أغاثا كريستي

تحرّيات باركر باين

مجموعة قصص قصيرة



الأجيال للترجمة والنشر





تحرِّيات باركر باين

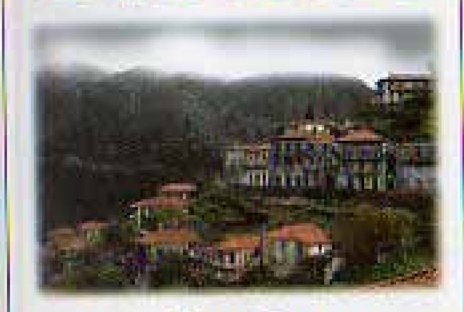
أحسّت السيدة باليأس والأسى، ولكن حياتها انقلبت رأساً على عقب بعدما قرأت في الصحيفة إعلاناً يقول: «هل أنت سعيد؟ إن لم تكن كذلك فعليك باستشارة السيد باركر باين».

مَن هو السيد باركر باين الذي يستشيره اليائسون من أصحاب المشكلات؟

إنه أبعد المحققين ورجال التحري عن المألوف، ولكنه -بالتأكيد- الأكثر تألقاً ونجاحاً وغرابة!

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفي مليون نسخة!

Agatha Christie



Parker Pyne Investigates







رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

قضية الجندي النّئم

تردد الميجر ويلبراهام خارج باب مكتب السيد باركر باين ليقرأ، كما قرأ مراراً من قبل، الإعلان الذي قرأه في صحيفة الصباح والذي أحضره إلى هنا. كان إعلاناً بسيطاً تماماً: "هل أنت سعيد؟ إن لم تكن سعيداً فاستشر السيد باركر باين، ١٧ شارع ريتشموند".

سحب الميجر نفساً عميقاً ودخل من الباب الدوار المؤدي إلى المكتب الخارجي، فرفعت فتاة دميمة بصرها عن آلة الطباعة ونظرت إليه متسائلة.

قال الميجر ويلبراهام وقد احمرّ وجهه: مكتب السيد باركر باين؟

- تفضل من هنا رجاء.

تبعها إلى مكتب داخلي... إلى حضرة السيد الهادئ باركر باين، الذي بادره قائلاً: صباح الخير. هل لك أن تتفضل بالجلوس؟ والآن، قل لي ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك.

بدأ الرجل حديثه: اسمي هو ويلبراهام..

- ميجر؟ أم كولونيل؟

- بل ميجر.

- آه! وقد عُدتَ مؤخراً من الخارج. الهند؟ أم شرق أفريقيا؟

- بل شرق أفريقيا.

- أظنها مكاناً رائعاً. حسناً، فقد عدتَ ثانية إلى الوطن إذن، وأنت غير مرتاح لذلك. أليست هذه هي المشكلة؟

- أنت مُحقٌّ تماماً، مع أنني لا أعرف كيف عرفت.

لوح السيد باركر باين بيدٍ مؤثرة وقال: إن عملي هو أن أعرف؛ فلمدة خمسة وثلاثين عاماً من حياتي كنتُ أعمل في جمع الإحصائيات في مكتب حكومي، وقد تقاعدتُ الآن، وخطر لي أن أستخدم الخبرة التي حصلتُ عليها بطريقة مبتكرة. والأمر كله بسيط جداً. أؤكد لك أن التعاسة يمكن تصنيفها تحت خمسة عناوين كبيرة، لا أكثر، وبمجرد أن تعرف سبب المرض لا يعود العلاج مستحيلاً.

إنني أقوم مقام الطبيب؛ فالطبيب يشخّص علة مريضه أولاً، ثم يمضي ليصف طريقة علاج. وهناك حالات لا يكون فيها العلاج ذا فائدة، وإذا كان الأمر كذلك فإنني أقول -بصراحة- إنني لا أستطيع فعل شيء، أما إن توليتُ القضية فإن العلاج يكون مضموناً عملياً.

إن بوسعي أن أؤكد لك -يا ميجر ويلبراهام- أن ستة وتسعين بالمئة من بُناة الإمبراطورية (كما أُسمّيهم) تُعساء. إنهم يتخلّون عن حياة نشيطة، حياة مليئة بالمسؤولية، حياة ذات أخطار مُحتملة، يتخلّون عنها مقابل... ماذا؟ مقابل فقر، وطقس سيء، وشعور عام بأنهم كالسمكة خارج الماء.

قال الميجر: كل ما قلته صحيح. إن ما أشكو منه هو الملل،

الملل والكلام التافه الذي لا ينتهي حول شؤون القرية. ولكن ما الذي أستطيع فعله إزاء ذلك؟ لديّ مبلغ صغير من المال بالإضافة إلى راتبي التقاعدي، ولديّ بيت صغير رائع قرب كوبهام، ولستُ متزوجاً. وجيراني جميعهم طيبون، ولكن ليست لديهم اهتمامات ذات شأن.

- خلاصة القول أنك تجد الحياة مملة.

- مملة جداً.

- وأنت ترغب بالمتعة، وربما بالخطر؟

رفع العسكري كتفيه بلا مبالاة وقال: لا وجود لشيء من هذا في هذا البلد التعس.

قال السيد باركر باين بجدية: اعذرني، ولكنك مخطئ في هذا؛ إذ يوجد الكثير من الخطر والكثير من التشويق هنا في لندن إن عرف المرء أين يطلبه. أنت لم ترَ إلاّ السطح من حياتنا الإنكليزية، السطح الهادئ الممتع. ولكن يوجد جانب آخر، وإن كنت ترغب فإن بوسعي أن أريك ذلك الجانب الآخر.

نظر إليه الميجر ويلبراهام متأملاً. كان في السيد باركر باين شيء يبعث على الاطمئنان. كان رجلاً ضخماً، ناهيك عن سمنته، وكان ذا رأس أصلع ضخم ويضع نظارات سميكة فوق عينيه اللتين ترمشان باستمرار. وكان له جوٌّ يعطي انطباعاً بأنه ممن يُعتمَد عليهم.

مضى السيد باركر باين قائلاً: غير أن عليّ أن أحذرك من أن في الأمر عنصر مجازفة.

التمعت عينا العسكري وقال: "لا بأس بذلك". ثم قال فجأة: وأتعابك؟

- أتعابي هي خمسون جنيهاً تُدفع مقدماً. وخلال شهر، إذا ما بقيتَ في نفس الحالة من الملل سأعيد إليك المبلغ.

فكر ويلبراهام قليلاً ثم قال أخيراً: عرض مُنصف... موافق. سأعطيك شيكاً الآن.

وهكذا أُبرمت الصفقة، وضغط السيد باركر باين على جرس على طاولته وقال: الساعة الآن الواحدة، وسأطلب منك أن تأخذ شابة لتناول الغداء.

فُتح الباب فقال السيد باركر باين: آه، عزيزتي مادلين! دعيني أُعرّفك على الميجر ويلبراهام الذي سيصحبك إلى الغداء.

قال الميجر: يسرني ذلك.

قال السيد باركر باين: الآنسة دي سارا.

تمتمت مادلين دي سارا: هذا لطف بالغ منك.

قال السيد باركر باين مخاطباً الميجر: لديّ عنوانك هنا، وستستلم غداً صباحاً تعليمات إضافية مني.

* * *

كانت الساعة الثالثة عندما عادت مادلين. رفع السيد باركر باين بصره وسأل: حسناً، ماذا جرى؟

هزت مادلين رأسها وقالت: لقد خاف مني؛ فقد ظن أنني أستهدف استغلاله.

- هذا ما توقعتُه. هل نفّذتِ تعليماتي؟

- نعم؛ لقد أخذنا راحتنا في التعليق على مَن كان حولنا في المطعم. إن النوع الذي يحبه هو الشقراء ذات العينين الزرقاوين، مع شيء من الشحوب، دون أن تكون بالغة الطول.

- يُفترض أن يكون هذا سهلاً. أعطيني الخطة «ب» لأرى ما لدينا من خيارات في الوقت الراهن.

ومرّر إصبعه نزولاً على إحدى القوائم حتى أوقفها أخيراً على اسم وقال: 'فريدا كليغ. نعم، أظن أن فريدا ستقوم بالمهمة بشكل رائع'. ثم أضاف قائلاً بشيء من التأمل: يُستحسن أن أرى السيدة أوليفر بخصوص الأمر.

* * *

في اليوم التالي تلقى الميجر ويلبراهام رسالة جاء فيها:

في الساعة التاسعة من يوم الاثنين القادم اذهب إلى المنزل رقم ٨٩، شارع فرايرز لين، هامبستِدْ، واسأل عن السيد جونز. وسوف تقدم نفسك باعتبارك قادماً من شركة غوافا للشحن.

* * *

انطلق الميجر يوم الاثنين الذي تلا ذلك (وكان يوم عطلة

قاصداً ذلك العنوان في هامبستد. وأقول إنه انطلق، ولكنه لم يصل إلى هناك أبداً؛ إذ حدث شيء قبل أن يصل إلى هناك.

بدا أن العالم كله كان في طريقه إلى هامبستد، وقد علق الميجر ويلبراهام ضمن حشود، وكاد الازدحام في قطار الأنفاق أن يخنقه، ووجد صعوبة في العثور على المكان. كان فرانزز لين شارعاً مُغلقاً مهملاً تملؤه الجرذان، على جانبيه بيوت ابتعدت قليلاً عن الطريق إلى الخلف. كانت بيوتاً كبيرة شهدت فيما مضى أياماً أفضل من أيامها هذه، إلاّ أنها باتت خربة الآن.

مشى ويلبراهام في الشارع يحدق النظر إلى لوحات الأرقام التي أوشكت أن تمحي عن بوابات البيوت، وفجأة سمع شيئاً جعله يتصلب بكل انتباه. كان الصوت أقرب إلى الغرغرة؛ صوت صيحة نصف مختوقة. ثم سمع الصوت ثانية، ولكنه في هذه المرة كاد يشبه كلمة «النجدة»، وقد جاء الصوت من داخل البيت الذي كان يمر أمامه.

ودون أية لحظة تردد دفع الميجر ويلبراهام بوابة البيت المُخلَّعة وتسلل من دون صوت عبر الممشى المغطى بالأعشاب، وهناك، بين الشجيرات، كانت فتاة تكافح وهي في قبضة عملاقين من الزنوج. كانت تبلي بلاء حسناً في مقاومتهما وتقاوم وتضرب بقدميها، وكان أحد الزنجيين يكمم فمها بيده رغم محاولاتها المستميتة لتخليص رأسها.

وبما أن الرجلين كانا منصرفين إلى صراعهما مع الفتاة فإنهما لم ينتبها لتقدم ويلبراهام، وكان أول انتباههما لذلك عندما وجه الميجر لكمة عنيفة لفكّ الرجل الممسك بفم الفتاة مما جعله يتراجع إلى

الخلف. وقام الثاني، وقد أخذته المفاجأة، بترك الفتاة والالتفات ولكن ويلبراهام كان مستعداً له فعاجله بلكمة أخرى جعلته يتراجع ويسقط، ثم التفت الميجر إلى الرجل الآخر الذي كان يقترب منه.

ولكن الرجلين نالا نصيبهما. تدحرج الرجل الثاني وجلس ثم نهض واندفع باتجاه البوابة، ولحق به صاحبه سريعاً. وانطلق الميجر خلفهما، ثم غيّر رأيه والتفت إلى الفتاة التي كانت متكئة على شجرة وهي تلهث.

قالت لاهثة: آه، شكراً لك! كان ذلك فظيعاً.

رأى الميجر ويلبراهام للمرة الأولى الفتاة التي أنقذها بمحض المصادفة. كانت في نحو الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين من عمرها، شقراء زرقاء العينين، جميلة مع شيء من الشحوب في وجهها.

شهقت قائلة: لو لم تأتِ!

قال الميجر مُهدِّئاً: هيا، هيا، لا بأس الآن. ولكن أظن أن من الأفضل أن نخرج من هنا؛ فمن الممكن أن يعود هذان الرجلان.

ارتسمت على شفتي الفتاة ابتسامة خفيفة وقالت: لا أظنهما سيعودان... ليس بعدما لقياه منك. لقد كان ذلك رائعاً منك!

احمرّ وجه الميجر أمام حرارة نظرة الإعجاب في عينيها وقال بارتباك: لا يوجد ما يستحق ذلك. إنه أمر طبيعي تماماً... عندما تتم مضايقة سيدة. اسمعي، هل تستطيعين السير إذا اتكأتِ على ذراعي؟ أعرف أنها كانت صدمة شديدة عليك.

- إنني بخير الآن.

ومع ذلك فقد اتكأت على الذراع التي مُدّت لها. كانت ما تزال مضطربة قليلاً، ونظرت خلفها إلى البيت وهما يخرجان من البوابة وقالت: لا يمكنني تخيل ذلك. من الواضح أن هذا البيت خالٍ.

وافقها الميجر وهو ينظر إلى النوافذ المحطمة والبلى الذي لحق بالبيت: إنه خالٍ بالتأكيد.

قالت وهي تشير إلى اسم كاد ينمحي عند البوابة: ومع ذلك فهو منزل وايت فرايرز، وهو المكان الذي يُفترَض أن آتي إليه.

- لا تقلقي تجاه أي شيء الآن. بعد لحظات سيكون بوسعنا استئجار سيارة أجرة، وعندها سنذهب إلى مكان ما ونشرب فنجان قهوة.

وعند نهاية الزقاق خرجا إلى شارع أكثر حركة، ولحسن حظهما كانت سيارة أجرة قد أنزلت لتوها راكباً عند أحد البيوت. لوّح لها ويلبراهام، ثم أعطى السائق عنواناً وصعدا السيارة.

قال لرفيقته: لا تحاولي الكلام، تمددي فقط. لقد تعرضتِ لتجربة فظيعة.

ابتسمت له بامتنان، فقال: بالمناسبة، اسمي ويلبراهام.

- اسمي كليغ... فريدا كليغ.

بعد عشر دقائق كانت فريدا كليغ تحتسي قهوة حارة وتنظر عبر الطاولة الصغيرة إلى منقذها بامتنان. قالت: يبدو الأمر أشبه بالحلم، بل بالحلم السيء.

ارتعدت ثم أضافت: وقبل فترة قصيرة فقط كنتُ أتوق إلى حدوث شيء... أي شيء! آه، إنني لا أحب المغامرات.

- أخبريني كيف حدث ذلك.

- حسناً، حتى أخبرك بشكل جيد سيتعين عليّ أن أتحدث كثيراً عن نفسي.

قال الميجر وهو ينحني: وهو موضوع ممتاز.

- أنا يتيمة. مات والدي (وكان قبطاناً بحرياً) عندما كنتُ في الثامنة من عمري، وتوفيت أمي قبل ثلاث سنوات. وأنا أعمل في المدينة... موظفة في شركة للغاز. في إحدى أمسيات الأسبوع الماضي وجدتُ رجلاً ينتظر ليراني عندما عدتُ إلى بيتي، وكان محامياً يُدعى السيد ريد من ملبورن.

وقد كان مؤدباً جداً وسألني عدة أسئلة عن عائلتي، وقد شرح قائلاً إنه عرف والدي قبل سنوات كثيرة، بل إنه قام بتنفيذ صفقة قانونية له. ثم أخبرني بسبب زيارته فقال: "آنسة كليغ، إن لديّ أسباباً تدعوني للاعتقاد بأنك قد تستفيدين من صفقة مالية اشترك فيها أبوك قبل وفاته بسنوات عديدة". وقد دُهشتُ كثيراً بالطبع، ولكنه مضى قائلاً: من غير المحتمل أن تكوني قد سمعتِ بهذه القضية أبداً، وأحسب أن جون كليغ لم يأخذ تلك الصفقة على محمل الجد أبداً، وقد تحققت على غير توقع. ولكنني أخشى أن تعتمد أية مطالبة تقدمينها على امتلاكك أوراقاً معينة. ويحتمل أن تكون هذه الأوراق جزءاً من تركة والدك، ومن الممكن -طبعاً- أن تكون قد أُتلفت باعتبارها غير ذات قيمة. فهل احتفظتِ بأيٍّ من أوراق والدك؟

شرحتُ له أن والدتي قد احتفظت بالعديد من أغراض والدي في صندوق قديم، وأنني قد بحثتُ فيه على عجل ولكن لم أكتشف شيئاً ذا أهمية، فقال لي وهو يبتسم: لا يكاد يكون من المرجح أن تدركي أهمية تلك الوثائق.

عندها قمتُ فذهبتُ إلى الصندوق فأخرجت منه الأوراق القليلة التي يحتويها وجئتُ بها إليه. نظر إلى الأوراق، ولكنه قال إنه من المستحيل أن يستطيع الجزم فوراً بما هو مرتبط منها بالقضية وما هو غير مرتبط، وقال إنه سيأخذها معه وسيتصل بي إن جدّ شيء. وفي البريد المسائي ليوم السبت تلقيت منه رسالة يقترح فيها عليّ أن آتي إلى بيته لمناقشة القضية، وقد أعطاني العنوان: منزل وايت فرايرز، بشارع فرايرز لين، في هامبستد. على أن أكون هناك في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم.

وقد تأخرتُ قليلاً في العثور على المكان، ودخلتُ البوابة بسرعة واتجهتُ صوب البيت حيث قفز هذان الرجلان الفظيعان فجأة عليّ من بين الأغصان. ولم يتح لي من الوقت ما أصرخ معه، ولكنني خلّصتُ رأسي بصعوبة وصرخت، فقام أحدهما بوضع يده على فمي. وخلّصتُ رأسي ثانية وصرختُ طالبة النجدة، ولحسن الحظ أنك سمعتني، ولولاك...

ثم توقفت، وكانت عيناها أفصح من أي كلام.

- إنني سعيد جداً لمصادفة وجودي في ذلك المكان بالضبط، وإني لأتمنى أن أمسك بهذين الوحشين. هل رأيتهما من قبل؟

هزت رأسها بالنفي وقالت: ما معنى ذلك برأيك؟

- من الصعب الجزم، ولكن يبدو شيء واحد مؤكداً؛ يوجد شيء ما بين أوراق أبيك، وأحدهم يريده. لقد أخبرك هذا الرجل، ريد، بقصة ملفقة بحيث يحصل على فرصة تفتيش الوثائق. والواضح أن ما أراده لم يكن هناك.

- آه، عجباً! عندما عدتُ إلى البيت يوم السبت ظننتُ أن أحدهم قد عبث بأغراضي، والصراحة أنني شككتُ بأن صاحبة البيت فتشت غرفتي بدافع الفضول، ولكن الآن...

- ثقي بما أقوله، تلك هي المسألة. لقد استطاع أحدهم دخول غرفتك وقام بتفتيشها دون أن يجد مبتغاه، وقد شكّ بأنك تعرفين قيمة تلك الورقة كائناً ما كانت وأنك تحملينها معك دوماً، وهكذا خطط لهذا الكمين. فإن وُجدت معك أخذوها، وإن لم توجد احتفظوا بك سجينة حتى تخبريهم بمكانها.

صاحت فريدا: ولكن ما عساها تكون؟

- لا أدري، ولكنها ثمينة جداً بالنسبة له دون شك، حتى يبلغ به الأمر القيام بكل ذلك.

- لا يبدو هذا ممكناً.

- آه، لا أدري. لقد كان والدك بحاراً، وقد سافر إلى أماكن بعيدة نائية، ربما عثر على شيء لم يدرك قيمته أبداً.

ظهرت حمرة الانفعال على وجنتي الفتاة وقالت: أتظن ذلك حقاً؟

- نعم، بالتأكيد. المسألة هي: «ما الذي سنفعله الآن؟»... لا أحسبك تريدين اللجوء للشرطة؟

- آه، لا أريد ذلك رجاء.

- يسعدني أن تقولي ذلك؛ فأنا لا أرى ما يمكن أن يفعله الشرطة، ولن يسبب لك ذلك إلا المضايقة. أقترح الآن أن تسمحي لي بأن أدعوك إلى الغداء، ثم أرافقك إلى بيتك لأضمن وصولك بأمان إلى هناك. وبعدها يمكننا أن نبحث عن الورقة؛ لأنها ينبغي أن تكون موجودة في مكان ما.

- ربما يكون والدي نفسه قد أتلفها.

- هذا ممكن بالطبع، ولكن الطرف الآخر لا يبدو مقتنعاً بذلك، وهذا يحمل لنا بعض الأمل.

- ماذا تظنها تكون؟ كنزاً مدفوناً؟

هتف الميجر وقد استيقظت فيه مشاعر المغامرة لهذا الاقتراح: قد تكون كذلك! ولكن هيا الآن إلى الغداء يا آنسة كليغ.

تناولا وجبة رائعة معاً، وروى الميجر لها كل شيء عن حياته في شرق أفريقيا واصفاً لها صيد الفيلة، بحيث أثار متعتها. وعندما فرغا من طعامهما أصرّ على أخذها إلى البيت بسيارة أجرة.

كان منزل الفتاة قرب نوتينغ هِلْ غيت، ولدى وصولهما إلى هناك أجرت فريدا حديثاً قصيراً مع صاحبة البيت، ثم عادت إلى الميجر ويلبراهام وأخذته إلى الطابق الثاني حيث كانت لها غرفة نوم

وغرفة جلوس صغيرتان. قالت: إن الأمر كما ظنناه تماماً؛ لقد جاء رجل صباح يوم السبت ليشرف على تمديد سلك كهربائي جديد وأخبرها بوجود خطأ في تمديدات الأسلاك في غرفتي، وقد بقي هناك لفترة لا بأس بها.

قال ويلبراهام: أريني صندوق والدك.

أرته فريدا صندوقاً مرصعاً بالنحاس، وقالت وهي ترفع غطاءه: هل ترى؟ إنه فارغ.

أومأ العسكري برأسه متأملاً وقال: ألا توجد أوراق في أي مكان آخر؟

- لا أظن؛ لقد احتفظت أمي بكل شيء هنا.

تفحص الميجر داخل الصندوق، وفجأة أطلق صيحة انفعال وهو يقول: "ههنا فتحة في البطانة". ثم أدخل يده بحذر وتلمس داخل الفتحة، وما لبث أن قال: لقد دُسّ شيء هنا.

وسرعان ما أخرج لُقيته، وكانت ورقة قذرة تم طيها عدة مرات. مدّها على الطاولة وفريدا تنظر من ورائه، ثم هتفت بخيبة أمل: إنها مجرد علامات غريبة.

صاح الميجر ويلبراهام: عجباً، إنها مكتوبة باللغة السواحلية. بالسواحلية، من بين كل لغات الأرض؟! إنها لهجة سكان شرق أفريقيا.

- ما أغرب ذلك! هل تستطيع قراءتها إذن؟

قال: إلى حدٍّ ما. يا له من أمر مدهش!

ثم أخذ الورقة إلى قرب النافذة، فسألته فريدا بصوت مرتعش: هل تعني شيئاً؟

قرأ الميجر الورقة بتمعن، ثم عاد إلى الفتاة وقال متبسماً: حسناً، هذا هو كنزك المخبوء بالتأكيد.

- كنز مخبوء؟ حقيقة؟ أتعني أنه ذهب إسباني... سفينة ذهب غارقة... شيءٌ كهذا؟

- ربما لا يكون الأمر على هذا القدر من الرومانسية، ولكنه نفس الشيء في النهاية. إن هذه الورقة تبين مخبأ كنز من العاج.

قالت الفتاة بدهشة: العاج؟

- نعم، من الفيلة كما تعلمين. يوجد قانون يحدد العدد الذي يمكنك اصطياده منها، وقد تنجح صياد ما في اصطياد أعداد كبيرة والنجاة بفعلته. وحين تعقبوه دفن ما لديه من عاج... كمية هائلة منه. وهذه الورقة تعطي فكرة واضحة تماماً عن كيفية العثور على المكان. اسمعي، سيكون علينا أن نتتبع هذا الأمر، أنا وأنت.

- أتعني أنه يوجد -حقاً- مال كثير في هذا الأمر؟

- توجد ثروة لا بأس بها لك.

- ولكن كيف جاءت هذه الورقة لتصبح بين أوراق أبي؟

رفع الميجر كتفيه حيرة وقال: ربما كان ذلك الصياد يحتضر

مثلاً... وربما كان قد كتب هذه الورقة باللغة السواحلية من باب الحماية وأعطاها لوالدك الذي ربما كان قد صادقه بشكل ما، وبما أن والدك لم يكن بوسعه قراءتها فإنه لم يُعلّق عليها أهمية كبيرة. هذا مجرد تخمين مني، ولكن لا أظنه تخميناً مُستبعداً جداً.

تنهدت فريدا وقالت: يا له من أمر مثير جداً!

- السؤال الآن: ما الذي تفعله بالوثيقة الثمينة. لا أحب تركها هنا! فربما عادوا ليبحثوا من جديد. لا أحسبك تأتمنينني عليها؟

- بل أفعل بالطبع، ولكن ألا يمكن أن يكون ذلك خطيراً عليك؟

قال الميجر متجهماً: "إنني شديد المراس، لا حاجة لأن تقلقي علي". ثم طوى الورقة ووضعها في محفظته وقال: هل أستطيع القدوم لرؤيتك مساء غدٍ؟ سأكون قد وضعتُ عندها خطة، وسأدقق في الأماكن على خريطتي. في أية ساعة تعودين من المدينة؟

- أعود في نحو السادسة والنصف.

- عظيم. وسوف نتناقش عندها في الأمر، وربما سمحتِ لي باصطحابك إلى العشاء. علينا أن نحتفل بهذا الأمر. وداعاً إذن. غداً في السادسة والنصف.

* * *

في اليوم التالي وصل الميجر في الوقت المحدد تماماً. رنّ

جرس البيت وسأل عن الآنسة كليغ. وقد فتحت له الباب خادمةٌ وقالت: الآنسة كليغ؟ إنها ليست هنا.

لم يشأ الميجر ويلبراهام أن يقترح الدخول لانتظارها، بل قال: سأعود بعد قليل.

تجول في الشارع المقابل متوقعاً -في كل لحظة- أن تتقدم منه فريدا. ومرت الدقائق؛ السابعة إلاّ ربعاً، السابعة، السابعة والربع، ولم تأتِ فريدا. اجتاحه شعور بعدم الارتياح، فعاد إلى البيت وقرع الجرس ثانية.

- اسمعي. لديّ موعد مع الآنسة كليغ في السادسة والنصف. أأنت واثقة أنها ليست في الداخل، أو أنها لم... لم تترك ملاحظة؟

سألت الخادمة: أأنت الميجر ويلبراهام؟

- نعم.

- معي رسالة لك. لقد جاءت باليد.

أخذ الرسالة وقرأها:

عزيزي الميجر ويلبراهام،

لقد حدث شيء غريب بعض الشيء. لن أكتب المزيد الآن، ولكن هل لك أن تقابلني في منزل وايت فرايرز؟ اذهب إلى هناك بمجرد حصولك على هذه الرسالة.

المخلصة: فريدا كليغ

قطب الميجر ويلبراهام جبينه وهو يفكر بسرعة، ثم امتدت يده بشرود فأخرجت رسالة من جيبه وقال للخادمة: هل يمكنك الحصول لي على طابع؟

- أحسب أن السيدة باركنز قد تفيدك في ذلك.

ثم عادت بعد دقيقة ومعها طابع دفع الميجر ثمنه شلناً. وبعد دقيقة أخرى كان الميجر يمشي باتجاه محطة قطار الأنفاق حيث وضع الرسالة في صندوق بريدي لدى مروره.

أشعرته رسالة فريدا بعدم ارتياح شديد. ما الذي يمكن أن يأخذ الفتاة بمفردها إلى مسرح المواجهة المخيفة التي جرت بالأمس؟ هز رأسه حيرة. يا له من تصرف أحمق! هل ظهر ريد؟ هل نجح بشكل أو بآخر في جعل الفتاة تثق به؟ ما الذي أخذها إلى هامبستد؟

نظر إلى ساعته فوجدها تقارب السابعة والنصف. من شأنها أن تكون قد اعتمدت على انطلاقه إليها في السادسة والنصف. أي أن هناك ساعة كاملة من التأخير، وهي فترة طويلة. لو كان لديها من الحكمة ما يجعلها تعطيه لمحة عن الأمر!

حيرته الرسالة، وشعر -على نحو ما- بأن نبرة الاستقلالية فيها لم تكن من صفات فريدا كليغ.

كانت الساعة قد بلغت الثامنة إلاّ عشر دقائق عندما وصل إلى فرايرز لين، وكان الظلام قد بدأ يخيم. نظر بحدة حوله، فلم يجد أحداً. دفع البوابة المُخلّعة بهدوء بحيث انفتحت دون صوت. كان الممر خالياً، والبيت مظلماً. مشى في الممر بحذر وهو ينظر إلى

جانبيه، إذ لم يكن ينوي أن يؤخذ على حين غرة.

وفجأة توقف. فللحظة قصيرة فقط ظهرت التماعة ضوء من خلال إحدى النوافذ. فالبيت لم يكن فارغاً إذن! كان أحدهم في الداخل.

تسلل الميجر ويلبراهام بهدوء بين الأغصان وشق طريقه إلى مؤخرة المنزل، وفي النهاية عثر على ما كان يبحث عنه. كانت إحدى نوافذ الطابق الأرضي غير مقفلة، وكانت نافذة تبدو وكأنها لغرفة الأواني الملحقة بالمطبخ. فتح النافذة وأضاء مصباحاً كهربائياً يدوياً (كان قد اشتراه من محل عند قدومه) وسلط الضوء على داخل الغرفة المهجورة، ثم تسلق فدخلها.

فتح باب الغرفة بكل حذر وأصغى، فلم يسمع شيئاً، وأضاء المصباح ثانية فوجده مطبخاً فارغاً. وخارج المطبخ كانت هناك بضع درجات، وباب بدا واضحاً أنه يؤدي إلى القسم الأمامي من المنزل.

فتح الباب وأصغى، فلم يسمع شيئاً. مشى بهدوء حتى أصبح الآن في الصالة الأمامية، ولم يكن هناك أيضاً أي صوت. كان هناك بابان أحدهما إلى يمينه والآخر إلى شماله. وقد اختار الباب الأيمن فأصغى عنده للحظة ثم أدار قبضته فانفتحت، فقام بفتح الباب ببطء شديد ثم دخل.

وأضاء المصباح ثانية فوجد الغرفة فارغة لا أثاث فيها... وفي تلك اللحظة بالذات سمع صوتاً خلفه فالتفت... ولكن الوقت كان متأخراً. نزل شيء ما على رأسه فسقط على الأرض مغشياً عليه.

لم يعرف الميجر ويلبراهام كم مرّ عليه من الوقت قبل أن يستعيد وعيه، ولكنه عاد إلى الحياة متألماً موجوع الرأس. وحاول التحرك ولكنه وجد ذلك مستحيلاً؛ فقد كان مربوطاً بالحبال.

وفجأة عاد له رشده وتذكر أنه قد ضُرب على رأسه. وأظهر له ضوء خافت ينبعث من مصباح زيتي في أعلى الجدار أنه كان في قبو صغير. نظر حوله فقفز قلبه، فعلى بعد خطوتين منه كانت فريدا مربوطة مثله، مغمضة العينين، ولكنها تنهدت وهو ينظر إليها بلهفة وفتحت عينيها. وقعت نظرتها المذعورة عليه فقفزت إلى عينيها نظرة فرح وتعرّف، وقالت: أنت أيضاً! ما الذي حدث؟

- لقد خذلتُك أيما خذلان. سعيتُ مباشرة حتى وقعتُ في الفخ. أخبريني، هل تركتِ لي ملاحظة تطلبين فيها أن ألتقيك هنا؟

انفتحت عينا الفتاة دهشة وقالت: أنا؟ أنت مَن أرسل لي ملاحظة!

- آه، هكذا إذن؟

- نعم؛ تلقيتها في المكتب، وقد طلبت مني لقاءك هنا بدل بيتي.

دمدم قائلاً: اتبعت نفس الطريقة معنا نحن الاثنين.

ثم شرح لها الموقف، فقالت: فهمت، فقد كانت الفكرة إذن...

- الحصول على الورقة... لا بد أننا كنا مُلاحقين بالأمس، وهكذا نالوا مني.

- وهل... حصلوا عليها؟

قال العسكري وهو ينظر بحزن إلى يديه المقيدتين: لا أستطيع مد يدي للتأكد من ذلك مع الأسف.

بعد ذلك جفل الاثنان؛ فقد تكلم صوت، صوت بدا أنه قادم من الفراغ. قال الصوت: نعم، شكراً لكما. لقد حصلتُ عليها، بكل تأكيد.

جعلهما الصوت الخفي يرتعدان، وتمتمت فريدا: السيد ريد.

قال الصوت: ريد هو واحد من أسمائي يا فتاتي العزيزة... ولكنه واحد منها فقط؛ فلدي من الأسماء الكثير. والآن يؤسفني القول إنكما قد تدخلتما في خططي... وهو أمر لا أسمح به أبداً. إن اكتشافكما هذا البيت قضية خطيرة. إنكما لم تُخبرا الشرطة عن ذلك، ولكنكما قد تفعلان ذلك في المستقبل. أخشى أن لا أستطيع الثقة بكما في هذه المسألة. ربما وعدتما بالتزام الصمت، ولكن الوعود نادراً ما تُحترَم. وهذا البيت مفيد جداً بالنسبة لي. بوسعكما تسميته «بيت التصفية»... البيت الذي لا عودة منه. فمن هنا تنتقلان إلى... عالم آخر. ويؤسفني القول إنكما ستنتقلان إلى ذلك العالم، وهو أمر مؤسف... ولكنه ضروري.

سكت الصوت لحظة ثم تابع يقول: لا إراقة دماء؛ فأنا أمقت إراقة الدماء. طريقتي أبسط بكثير، وهي حقاً ليست مؤلمة جداً كما فهمت. حسناً، ينبغي أن أذهب. طاب مساؤكما.

صاح ويلبراهام: اسمعني! افعل بي ما تشاء، ولكن هذه الفتاة

لم تفعل شيئاً... أبداً. لا يمكن أن يؤذيك إطلاق سراحها.

ولكن لم يكن ثمة جواب. وفي تلك اللحظة انطلقت صرخة من فريدا: الماء... الماء!

التفت ويلبراهام متألماً ونظر إلى حيث تنظر فريدا، فرأى فتحة عند السقف ينصبّ منها الماء بلا انقطاع.

صاحت فريدا بجنون: إنهم سيغرقوننا!

تبلل جبين ويلبراهام بالعرق وقال: لم ينتهِ أمرنا بعد؛ سنصرخ طلباً للنجدة. لا بد أن يسمعنا أحد. هيا، لنصرخ معاً.

صرخا بكل ما أوتيا من قوة، ولم يسكتا حتى بُحّ صوتاهما. قال الميجر بحزن: أخشى أنه لا فائدة؛ فنحن تحت الأرض، وأظن أن الأبواب محكمة الإغلاق، ولو كان بالإمكان سماعنا لكتم ذلك الوحش أفواهنا دون ريب.

صاحت فريدا: والغلطة غلطتي؛ فأنا التي ورطتك في هذا الأمر.

- لا تقلقي بشأن ذلك يا طفلتي. إنك أنت ما أفكر به الآن. لقد وقعتُ في مآزق كثيرة من قبل وخرجتُ منها... لا تفقدي شجاعتك؛ سأخرجك من هذه الورطة... لدينا الكثير من الوقت؛ فحسب معدل دخول هذه المياه ستمر ساعات قبل حدوث أي مكروه.

- كم أنت رائع! أنا لم أقابل مثلك أبداً... إلاّ في الروايات.

- هراء... إنه المنطق فقط. والآن، عليّ أن أفك هذه الحبال.

وبعد نحو ربع ساعة وكثير من الجهد شعر ويلبراهام بأن قيوده تحللت إلى حدٍّ معقول، ثم تمكن من إحناء رأسه ورفع رسغيه ليهاجم عُقَد الحبل بأسنانه، وبمجرد أن أصبحت يداه طليقتين أصبح ما تبقى مسألة وقت فقط. كان جسمه قد تشنج وتصلب، ولكنه تحرر من الحبال وانكبّ على الفتاة، وبعد لحظة كانت قد تحررت هي الأخرى.

لم يكن الماء قد بلغ إلا كاحليهما حتى الآن. قال العسكري: والآن، إلى الخروج من هنا.

كان باب القبو في أعلى درج صغير، ففحصه الميجر وقال: لا توجد صعوبة هنا؛ فهو باب أخرق الصنع ولن يلبث أن ينخلع من مفاصله.

وضع عليه كتفه وأخذ يدفع. طقطق الخشب، ثم سُمع صوت ارتطام، وانخلع الباب من مفاصله.

كان في الخارج درجٌ في أعلاه باب آخر... باب مختلف تماماً، من الخشب القوي وقضبان الحديد.

قال الميجر ويلبراهام: هذا أصعب قليلاً... ولكن مرحى، لدينا شيء من الحظ هنا؛ إنه غير مقفل.

فتحه ونظر إلى الخارج، ثم أشار للفتاة أن تتبعه. خرج الاثنان إلى ممر خلف المطبخ، وبعد لحظات كانا يقفان تحت النجوم في فرايرز لين.

قالت فريدا وهي تتشنج قليلاً: آه! كم كان ذلك رهيباً!

طوقها بذراعيه وقال: يا حبيبتي المسكينة! لقد كنتِ شجاعة بشكل رائع. فريدا... هل لك... أعني هل يمكنك... إنني أحبك يا فريدا. هل تتزوجينني؟

وبعد فترة صمت مناسبة ومُرضيةٍ كثيراً لكلا الطرفين قال الميجر ويلبراهام ضاحكاً: وفوق ذلك فلا يزال أمامنا سر العاج.

- ولكنهم أخذوا الورقة منك!

ضحك الميجر ثانية وقال: هذا ما لم يفعلوه أبداً! فقد كتبتُ نسخة زائفة من الرسالة، وقبل أن آتي إليك هنا هذه الليلة وضعتُ الرسالة الحقيقية في رسالة ووضعتها في صندوق البريد. لقد حصلوا على النسخة الزائفة... وأتمنى لهم كل سعادة بها! أتعلمين ماذا سنفعل يا حبيبتي؟ سنذهب إلى شرق أفريقيا لقضاء شهر عسلنا وللبحث عن الكنز.

* * *

غادر السيد باركر باين مكتبه وصعد درجاً، وفي غرفة في أعلى المبنى جلست السيدة أوليفر، كاتبة الروايات المثيرة التي أصبحت الآن واحدة من موظفي السيد باركر باين.

قرع السيد باركر باين الباب ودخل. كانت السيدة أوليفر تجلس على طاولة عليها آلة طباعة، وعدة دفاتر ملاحظات، وفوضى شديدة من المخطوطات، وسلة كبيرة من التفاح.

قال لها السيد باركر باين بمودة: كانت قصة جيدة جداً يا سيدة أوليفر.

- هل نجحت؟ يسعدني ذلك.

- ولكن تلك المسألة الخاصة بصب مياه في القبو، ألا ترين ضرورة للتفكير بشيء أكثر إبداعاً في المستقبل؟

طرح اقتراحه ذلك بشيء من الخجل المطلوب، فهزت السيدة أوليفر رأسها بالنفي وقالت وهي تأخذ تفاحة من السلة: لا أظن ذلك يا سيد باين؛ فقد تعود الناس قراءة مثل هذه الأمور: أقبية يتم ملؤها بالماء، تسريب غاز مسموم... إلى آخر ذلك. إن معرفة هذه الأمور مسبقاً تجعلها ذات متعة أكبر عندما تحدث للمرء. إن الجمهور محافظ يا سيد باين، وهو يحب الحيل القديمة نفسها.

- حسناً، أنت تعرفين أفضل مني.

اعترف السيد باركر باين بهذا وهو يفكر بست وأربعين رواية ناجحة للسيدة أوليفر حققت كلها أعلى المبيعات في إنكلترا وأمريكا وتُرجمت إلى الفرنسية والألمانية والإيطالية والهنغارية والفنلندية واليابانية والحبشية.

قال لها: ماذا عن التكاليف؟

- سحبت السيدة أوليفر ورقة وقالت: تكاليف زهيدة عموماً. لقد طلب الزنجيان، بيرسي وجيري، مبلغاً بسيطاً جداً. وقد وافق الممثل الشاب لوريمر على أداء دور السيد ريد مقابل خمسة جنيهات، أما خطبة القبو فقد كانت تسجيلاً بالطبع.

- لقد أفادني منزل وايت فرايرز أيما فائدة، فقد اشتريته بثمن بخس جداً، وقد كان حتى الآن مسرحاً لإحدى عشرة مسرحية مثيرة.

- آه، لقد نسيت! أجور جوني... خمسة شلنات.

- جوني؟

- نعم، الصبي الذي صب الماء من أباريق السقاية من خلال فتحة الجدار.

- آه، نعم. وبالمناسبة يا سيدة أوليفر، كيف حدث أنك تعرفين اللغة السواحلية؟

- أنا لا أعرفها.

- فهمت. استعنتِ إذن بالمتحف البريطاني؟

- لا، بل بمكتب ديلفريدج للمعلومات.

تمتم قائلاً: ما أروع مصادر التجارة الحديثة!

قالت السيدة أوليفر: الأمر الوحيد الذي يقلقني هو أن الاثنين لن يجدا أي كنز عندما يصلان هناك.

- ولكن المرء لا يستطيع الحصول على كل شيء في هذا العالم. سيقضيان شهر عسل مثيراً على أي حال.

* * *

كانت السيدة ويلبراهام تجلس على كرسي، وكان زوجها يكتب رسالة. سألها: ما هو تاريخ اليوم يا فريدا؟

- السادس عشر.

- السادس عشر؟ يا إلهي!

- ما الأمر يا عزيزي؟

- لا شيء. تذكرتُ -فقط- رجلاً يُدعى جونز.

مهما كانت سعادة الزواج فإن هناك أموراً لا يبوح بها المرء. فكر الميجر ويلبراهام قائلاً لنفسه: تباً! كان ينبغي أن أزور ذلك المكتب وأسترد مالي.

وبعد ذلك، ولأنه ذو عقل مُنصف، نظر إلى المسألة من زاوية أخرى وقال لنفسه: ولكنني أنا من نقض الاتفاق، إذ أحسب أنني لو ذهبتُ لرؤية جونز لكان قد حدث شيء ما. وعلى أية حال فإنني لو لم أذهب لرؤية جونز لما قُدِّر لي أبداً أن أسمع استغاثة فريدا، وربما ما كنا نلتقي أبداً. ولذلك فربما كان لهم الحق، بشكل غير مباشر، في جنيهاتي الخمسين!

السيدة ويلبراهام كانت تتابع هي الأخرى سلسلة أفكارها الخاصة: كم كنتُ حمقاء غبية حين صدّقتُ ذلك الإعلان ودفعت ثلاثة جنيهات لأولئك الناس. إنهم لم يفعلوا شيئاً يبرر ذلك المبلغ بالطبع، ولم يحدث شيء أبداً. لو أنني عرفتُ فقط ما كان ينتظرني! السيد ريد أولاً، ثم هذه الطريقة الرومانسية الغريبة التي دخل تشارلي بها حياتي... والأنكى أن أفكر بأنني لولا المصادفة المحضة لما كان لي أن ألتقيه أبداً!

التفتت وابتسمت لزوجها بحب.

* * *

زوجة في وسط العمر

بأربع زفرات استياء، وصوتٍ ساخط يسأل عن سبب عبث الناس بالقبعات، وبباب مصفوق، غادر السيد باكينغتن للّحاق بقطار التاسعة إلاّ ربعاً المتجه إلى المدينة. أما السيدة باكينغتن فقد جلست على مائدة الإفطار، وكان وجهها محمراً، وشفتاها مزمومتين، وكان السبب الوحيد لعدم بكائها هو أن الغضب حلّ في اللحظة الأخيرة محل الحزن. قالت السيدة باكينغتن: "لن أتحمل ذلك، لن أتحمله". وبقيت تفكر بتجهم -للحظات- ثم تمتمت: السافلة! تلك اللئيمة القذرة! كيف يمكن لجورج أن يكون مغفلاً إلى هذا الحد؟

تلاشى الغضب، وعاد الحزن، وترقرقت الدموع في عيني السيدة باكينغتن ثم انحدرت نزولاً على خديها الكهلين وهي تفكر: من السهل جداً القول إنني لن أتحمل ذلك، ولكن ما الذي أستطيع فعله؟

فجأة شعرت بالوحدة، والعجز، والهجران التام. وببطء أخذت صحيفة الصباح وقرأت، كما قرأت مراراً من قبل، هذا الإعلان على الصفحة الأولى: "هل أنت سعيد؟ إن لم تكن سعيداً فاستشر السيد باركر باين، ١٧ شارع ريتشموند".

قالت السيدة باكينغتن: "هراء وسخف كامل!"، ثم قالت بعد قليل: ولكن يمكن أن أجرّب فقط... وهذا هو سبب دخول السيدة

باكينغتن في الساعة الحادية عشرة، وهي مرتبكة قليلاً، إلى المكتب الخاص للسيد باركر باين.

وكما سبق وقيل، كانت السيدة باكينغتن مرتبكة، ولكن لسبب أو لآخر فإن مجرد رؤية السيد باركر باين قد جلب لها شعوراً بالطمأنينة. كان رجلاً ضخماً، كيلا نقول سميناً، وكان له رأس أصلع ضخم، ونظارات سميكة، وعينان صغيرتان ترمشان باستمرار. قال: "أرجوك أن تجلسي"، ثم أضاف يحثها على الكلام: هل جئت استجابة لإعلاني؟

قالت السيدة باكينغتن: نعم.

وتوقفت عند ذلك، فقال السيد باركر باين بصوت بهيج واقعي: وأنت لست سعيدة؟ قليلون هم السعداء. ستُدهشين لو علمتِ مدى قلة السعداء.

- حقاً؟

قالتها السيدة باكينغتن دون أن تشعر بأن سعادة الآخرين أو تعاستهم مسألة مهمة.

قال السيد باركر باين: أعرف أن هذا لا يهمك، ولكنه يهمني أنا كثيراً. فلمدة خمسة وثلاثين عاماً من حياتي كنتُ مشغولاً بوضع إحصائيات في مكتب حكومي. وقد تقاعدتُ الآن، وقد خطر لي أن أستخدم الخبرة التي كسبتها بأسلوب يتسم بالجدة. والأمر كله بسيط جداً، أؤكد لك أن التعاسة يمكن أن تندرج تحت خمسة عناوين رئيسة... لا أكثر، وبمجرد معرفتك بسبب المرض لا يعود العلاج مستحيلاً. إنني أقوم مقام الطبيب، فالطبيب يشخص أولاً علة

مريضه، ثم يمضي ليصف طريقة علاج. وتوجد حالات لا يكون فيها العلاج ذا فائدة، وإذا كان الأمر كذلك فإنني أقول بصراحة إنني لا أستطيع فعل شيء، ولكنني أؤكد لك -يا سيدة باكينغتن- أنني إن توليتُ قضية فإن العلاج يكون مضموناً عملياً.

أيمكن أن يكون الأمر كذلك؟ أهذا هراء، أم أنه ربما كان صحيحاً؟ حدقت السيدة باكينغتن إليه بأمل.

قال السيد باين مبتسماً: "هل لنا أن نشخص حالتك؟"، ثم عاد ليستند إلى ظهر مقعده، ثم جمع أطراف أصابعه معاً وقال: المشكلة تخص زوجك. لقد قضيتِ -عموماً- حياة زوجية سعيدة، وأظن أن زوجك قد لاقى نجاحاً. وأحسب أن في هذه القضية فتاة شابة... وربما كانت شابة في مكتب زوجك.

- إنها عاملة طابعة حقيرة... ذات خصلات شعر ملفوف.

انطلقت الكلمات من فمها بسرعة، فأومأ السيد باركر باين برأسه كمن يسرّي عنها وقال: لا بأس، وأنا متأكد كيف يفكر زوجك الآن: لماذا لا يستمتع بصداقة بريئة مع هذه الشابة، ويكون قادراً على إدخال قليل من الحبور وقليل من الفرح على حياتها المملة؟ فالطفلة المسكينة لم تر الكثير من السعادة. يُخيَّلُ لي أن تلك هي مشاعره.

أومأت السيدة باكينغتن برأسها بقوة وقالت: كذب... كله كذب! إنه يأخذها إلى النهر، وأنا أحببت دوماً الذهاب إلى النهر، ولكنه قال لي قبل خمس سنوات أو ست إن ذلك يتعارض مع لعبة الغولف التي يلعبها. ولكنه يستطيع التخلي عن الغولف من أجلها

هي. وأنا أحب المسرح... وقد كان جورج يقول دائماً إنه يكون متعباً جداً في الليل بحيث لا يستطيع الذهاب إليه. والآن يأخذها كل ليلة ويعود في الثالثة صباحاً! إنني... إنني...

- ولا شك أنه يستنكر حقيقة كون النساء غيورات، غيورات بشكل غير معقول في حين لا يوجد أبداً داعٍ للغيرة، أليس كذلك؟

أومأت السيدة باكينغتن ثانية برأسها وهي تقول: 'بالضبط'. ثم سألت بحدة: كيف تعرف كل ذلك؟

قال السيد باركر باين ببساطة: الإحصاء.

- إنني تعِسة جداً. لقد كنت دوماً زوجة طيبة لجورج. لقد عملت أعمالاً شاقة في أيامنا الأولى، وساعدته على التقدم، ولم أنظر أبداً إلى أي رجل آخر. ملابسه دائماً جاهزة، وجباته جيدة، والبيت في أحسن حال وأديره بشكل اقتصادي جداً. والآن... وقد تحسنت أحوالنا، وأمكننا أن نستمتع بحياتنا ونسافر قليلاً ونفعل كل الأمور التي كنا نتطلع لفعلها يوماً ما... تأتي هذه المشكلة!

ثم ابتلعت ريقها بصعوبة، فأومأ السيد باركر باين برأسه بجدية وقال: أؤكد لك أنني أفهم قضيتك تماماً.

سألته بصوت أشبه بالهمس: وهل... وهل تستطيع فعل شيء بشأنها؟

- بالتأكيد يا سيدتي العزيزة. يوجد علاج. نعم، يوجد علاج.

سألت: 'وما هو؟'، ثم انتظرت وقد اتسعت عيناها ترقباً.

تكلم السيد باركر باين بهدوء وحزم: سوف تضعين أمرك بين يدي، وستكون أجوري مئتي جنيه.

- مئتي جنيه!

- بالضبط. يمكنك دفع مثل هذا المبلغ يا سيدة باكينغتن، من شأنك أن تدفعي هذا المبلغ لعملية جراحية، والسعادة لا تقل أهمية عن الصحة الجسمية.

- وأحسب أنني سأدفع لك فيما بعد، أليس كذلك؟

- على العكس، ستدفعين لي مقدماً.

نهضت السيدة باكينغتن قائلة: أخشى أنني لا أرى طريقي...

قاطعها السيد باركر باين قائلاً بمرح: لشراء سمك في بحر؟ حسناً، ربما كنتِ على حق. إنه مبلغ أكبر من أن يُجازَف به، ولكن عليك أن تثقي بي، وعليك أن تدفعي المال وتجربي فرصتك. تلك هي شروطي.

- مئتا جنيه!

- بالضبط، مئتا جنيه. إنه مبلغ كبير. طاب صباحك يا سيدة باكينغتن. أخبريني إن غيرتِ رأيك.

ودّعها وهو يبتسم بشكل هادئ، وعندما ذهبت ضغط جرساً على مكتبه، فأجابت على الجرس شابة بشعة الشكل. قال لها: أريد ملفاً من فضلك، وأبلغي كلود بأنني يمكن أن أحتاجه قريباً.

- زبونة جديدة؟

- نعم، زبونة جديدة. لقد ذهبت حالياً، ولكنها ستعود. وربما عادت في نحو الرابعة من بعد ظهر اليوم، فأدخليها.

- الخطة «أ»؟

الخطة «أ» بالطبع. غريب كيف يظن كل امرئ أن مشكلته فريدة لا مثيل لها. حسناً، تهي كلود. قولي له أن لا يكون غريب المظهر أكثر مما ينبغي. لا يستعمل عطراً، ومن الأفضل أن يقصر شعره.

كانت الساعة الرابعة والربع عندما دخلت السيدة باكينغتن مرة أخرى إلى مكتب السيد باركر باين. أخرجت دفتر شيكات وكتبت شيكاً وأعطته له، فأعطاها إيصالاً بالمقابل.

قالت السيدة باكينغتن وهي تنظر إليه بأمل: والآن؟

قال السيد باركر باين وهو يبتسم: والآن ستعودين إلى البيت، وستتسلمين غداً في بريد الصباح تعليمات معينة سأكون سعيداً إن نفذتها.

ذهبت السيدة باكينغتن إلى البيت بحالة ترقب مُفرح، أما السيد باكينغتن فقد عاد إلى البيت بمزاج دفاعي، جاهزاً لمناقشة موقفه إذا ما أُعيد فتح الموضوع الذي طُرح على مائدة الإفطار. ولكنه ارتاح إذ رأى أن زوجته ليست في مزاج قتالي. كانت تتأمل على غير عادتها.

أصغى جورج للمذياع، وتساءل إن كانت تلك الفتاة العزيزة

ستسمح له بأن يقدم لها معطفاً من الفراء؛ فقد كان يعرف أنها شديدة الاعتزاز بالنفس، وهو لا يريد جرح مشاعرها. ومع ذلك فقد سبق لها أن اشتكت من البرد، ومعطفها الصوفي ذاك معطف رخيص لا ينفع كثيراً في مكافحة البرد. ربما كان بوسعه طرح الموضوع بحيث لا تمانع. يجب أن يقضيا أمسية أخرى في الخارج قريباً. إنه لمن الممتع أن يأخذ المرء فتاة كهذه إلى مطعم راقٍ. لقد كان بوسعه رؤية العديد من الشبان يحسدونه؛ فقد كانت جميلة بشكل يندر وجوده، وهي معجبة به، فبالنسبة لها -كما أخبرته- لم يبدُ لها كبيراً أبداً.

رفع بصره لتلتقي عينه بعين زوجته، وشعر فجأة بالذنب، الأمر الذي أزعجه. يا لماريا من امرأة ضيقة التفكير شكاكة! إنها تنغص عليه أي لحظة سعادة. ثم أغلق المذياع وذهب إلى فراشه.

تلقت السيدة باكينغتن رسالتين غير متوقَّعتين في صباح اليوم التالي. كانت إحداهما استمارة مطبوعة تؤكد موعداً لدى أحد صالونات التجميل المشهورة، وكانت الثانية موعداً لدى خياط. كما استلمت رسالة ثالثة كانت من السيد باركر باين ويطلب فيها منها تشريفه بقبول تناول الغداء معه في فندق ريتز في ذلك اليوم.

ذكر السيد باكينغتن أنه قد لا يعود إلى البيت للعشاء مساء لأنه مرتبط بموعد عمل مع أحد الرجال، وقد اكتفت السيدة باكينغتن بإيماءة من رأسها وهي شاردة، وغادر السيد باكينغتن البيت وهو يهنئ نفسه على نجاته من العاصفة.

كان اختصاصي التجميل رائعاً: 'يا لهذا الإهمال! ولكن لماذا يا سيدتي؟ كان ينبغي تدارك ذلك منذ سنوات، ولكن الوقت لم

يفت بعد". جرت عمليات عديدة لوجهها، فقد ضُغط ودُلّك وبُخّر، ووضع عليه معجون، ورُشّ بالمساحيق، ثم أجريت عليه العديد من اللمسات الأخيرة. وفي النهاية أعطوها مرآة، فقالت لنفسها: أظن أنني أبدو أصغر حقاً. أما جلسة الخياط فلم تكن أقل إثارة، وقد خرجت من عنده وهي تشعر بالأناقة والعصرية.

وفي الساعة الواحدة والنصف ذهبت السيدة باكينغتن إلى موعدها في فندق ريتز، وكان السيد باركر باين ينتظرها بأفضل هندام وقد حمل معه ذلك الجوّ المُطَمْئِن المهدّئ الذي يتميز به. قال وعينه الخبيرة ترمقها من رأسها حتى أخمص قدميها: رائع. لقد طلبتُ لك القهوة.

أصغت السيدة باكينغتن لمرشدها اللطيف وهي ترتشف من فنجانها. قال السيد باركر: ينبغي أن تجعل زوجك «ينفعل» يا سيدة باكينغتن، أتفهمينني؟ أن ينفعل ويُثار. وللمساعدة في ذلك فإنني سأعرّفك على صديق شاب لي، وسوف تتغدّين معه اليوم.

في تلك اللحظة جاء شاب وهو ينظر من جانب لآخر، وما لبث أن لمح السيد باركر فجاء نحوه برشاقة. قال السيد باركر مُعرّفاً: السيد كلود لوتريل، السيدة باكينغتن.

لم يكن السيد لوتريل قد بلغ الثلاثين من عمره، وكان بهي الطلعة مرحاً شديد الأناقة والوسامة. تمتم قائلاً: "أسعدني معرفتك"، وبعد ثلاث دقائق كانت السيدة باكينغتن تواجه مُرشدها الجديد على طاولة صغيرة مخصصة لاثنين.

كانت خجلة في البداية، ولكن السيد لوتريل سرعان ما جعلها

تشعر بالارتياح. وقد سألها إن كانت تحب المسرح، فأجابته بأنها تحبه ولكنها نادراً ما تزوره في هذه الأيام إذ أن السيد باكينغتن لا يهتم بالخروج ليلاً.

قال السيد لوتريل وهو يبتسم مُظهراً صفاً من الأسنان شديدة البياض: ولكن لا يمكن أن يكون ظالماً بحيث يُبقيك في البيت. إن النساء لا يتحملن غيرة الرجال في هذه الأيام.

أوشكت السيدة باكينغتن على القول إن الغيرة لا شأن لها بهذا الأمر، ولكنها لم تقل ذلك، فهذه فكرة جيدة على أي حال. تحدث كلود لوتريل بعذوبة عن المسارح، ثم تقرر أن يذهبا معاً في الليلة التالية إلى مسرح ليسبر المشهور.

كانت السيدة باكينغتن مترددة قليلاً في إعلان هذه الحقيقة لزوجها، فقد شعرت بأن جورج سيرى ذلك غريباً، ولكن جاء ما يوفر عليها كل عناء في هذا الشأن؛ فقد كانت أكثر تردداً من أن تفصح عن نيتها على مائدة الإفطار، ولكنها تلقت في الثانية ظهراً مكالمة هاتفية مفادها أن السيد باكينغتن سيتناول عشاءه في المدينة.

وقد كانت الأمسية ناجحة جداً، فقد كانت السيدة باكينغتن في مزاج جيد، وقد هنأها السيد لوتريل على ثوبها وعلى تسريحة شعرها أيضاً (وكان قد ضُربَ لها موعد صباح ذلك اليوم مع مصفف شعر ذي أسلوب حديث). وعندما ودعها السيد لوتريل كانت في قمة السعادة، فهي لم تكن قد تمتعت بأمسية كهذه منذ سنين عديدة.

مرت بعد ذلك عشرة أيام حافلة، تغدّتْ فيها السيدة باكينغتن

وتعشت وزارت كل المسارح، وسمعت كل شيء عن طفولة كلود لوتريل البائسة والظروف المؤسفة التي خسر فيها أبوه كل أمواله، وسمعت قصة حبه التراجيدية ومشاعره المريرة نحو النساء عامة.

وفي اليوم الحادي عشر كانا يتعشيان معاً في مطعم أدميرال، وقد رأت السيدة باكينغتن زوجها قبل أن يراها هو. كان جورج مع الشابة التي تعمل في مكتبه، ولم يكن على طاولة بعيدة. وعندما صدف والتفت باتجاهها قالت بخفة: مرحباً جورج.

وبسعادة بالغة رأت السيدة باكينغتن وجه زوجها يحمرّ أولاً، ثم يغدو قرمزياً من دهشته. ومع الدهشة أمكنها رؤية شيء من الشعور بالذنب، وشعرت -فرِحةً- بأنها سيدة الموقف. يا لجورج المسكين! جلست على طاولتها تراقبه... كم كان سميناً وأصلع! مسكين جورج؛ يريد -يائساً- أن يبدو شاباً! وتلك الفتاة المسكينة التي يتعشى معها مضطرة للتظاهر بالتمتع بالأمر. إنها تبدو الآن سئمة تماماً، ووجهها خلف كتفه بحيث لا يستطيع رؤيته.

وفكرت السيدة باكينغتن -بشيء من الرضا- بأن وضعها هي أكثر مدعاةً للحسد. ونظرت إلى كلود الذي كان الآن ساكتاً بلباقة. كانت تحس بنظرة جورج الاعتذارية تراقبهما، وتذكرت أن الفكرة كانت تقضي أساساً بإثارة غيرة جورج. كم مضى وقتٌ طويل على ذلك! إنها لا تريد الآن حقاً إثارة غيرة جورج. فهذا قد يزعجه، ولماذا عساها تزعج ذلك المسكين؟ لقد كان الجميع سعداء.

كان السيد باكينغتن قد وصل إلى البيت قبل ساعة عندما

وصلت السيدة باكينغتن. بدا حائراً غير واثق من نفسه، وقال معلقاً: آه، لقد عُدتِ إذن؟

ألقت السيدة باكينغتن وشاح سهرة كان قد كلفها أربعين جنيهاً في ذلك الصباح نفسه وقالت مبتسمة: نعم، لقد عدت.

تنحنح جورج وقال: لقد...

- لقد كان من الغريب أن ألاقيك، أليس كذلك؟

- إنني... فكرتُ أن من اللطف أن آخذ الفتاة إلى مكان ما؛ فقد كانت تتعرض للعديد من المتاعب في البيت... مجرد لطف.

أومأت السيدة باكينغتن برأسها. مسكين جورج!

- من هو هذا الشاب الذي كنتِ معه؟ إنني لا أعرفه، أليس كذلك؟

- اسمه لوتريل، كلود لوتريل.

- وكيف قابلتِه؟

قالت السيدة باكينغتن بغموض: عرّفني عليه أحدُهم.

- أمر غريب منك بعض الشيء -يا عزيزتي- أن تخرجي مع شاب كهذا وأنت... بمثل سنك. يجب أن لا تجعلي نفسك أضحوكة يا عزيزتي.

ابتسمت السيدة باكينغتن. كانت تشعر بأنها الآن ألطف من أن تجيبه الجواب الواضح. قالت بمودة: التغيير مسألة لطيفة دائماً.

- ولكن ينبغي أن تحرصي؛ يوجد الكثير من هؤلاء العاطلين عن العمل في المجتمعات الراقية، والنساء في وسط أعمارهن يجعلن من أنفسهن أضحوكة أحياناً. إنني أحذرك فقط يا عزيزتي؛ فلست أحب أن أراك تفعلين شيئاً غير مناسب.

- لقد وجدتُ الأمور مسلية جداً.

- آه... نعم.

قالت السيدة باكينغتن بلطف: وأظنك وجدتها أنت كذلك أيضاً. الأمر المهم هو أن يكون المرء سعيداً، أليس كذلك؟ أذكر أنك قلتَ ذلك ذات صباح على مائدة الإفطار، قبل نحو عشرة أيام.

نظر إليها زوجها بحدة ولكن أسلوبها بدا خالياً من السخرية، ثم تثاءبت وقالت: ينبغي أن أذهب إلى النوم. وبالمناسبة يا جورج، لقد كنتُ مسرفةً جداً مؤخراً، وسوف تأتي بعض الفواتير الرهيبة. لا أحسبك تمانع، أليس كذلك؟

قال السيد باكينغتن: فواتير؟

- نعم؛ للملابس والتدليك ومعالجة الشعر. لقد كنتُ مسرفة جداً، ولكنني أعرف أنك لا تمانع.

ثم صعدت الدرج، فيما بقي السيد باكينغتن فاغراً فمه. لقد كانت ماريا لطيفة إلى حدٍّ مدهش بخصوص هذه الليلة، إذ لم يبدُ أنها تهتم أبداً، ولكن من المؤسف أن تعتاد فجأة على صرف المال. ماريا... التي هي رمز الاقتصاد والتدبير!

يا للنساء! هز جورج باكينغتن رأسه. يا للورطات التي يتورط بها الرجال مؤخراً! حسناً، لقد أسعده أن يُساعد، ومع ذلك، ورغم كل شيء فإن الأمور لم تكن تجري على ما يرام في المدينة. وصعد السيد باكينغتن الدرج بدوره وهو يتنهد.

أحياناً يتم في وقت لاحق تذكُّر الكلمات التي لم تُعطِ تأثيرها. فبعض الكلمات التي قالها السيد باكينغتن لم تخترق وعي زوجته حتى صباح اليوم التالي: العاطلون في المجتمعات الراقية، النساء في وسط أعمارهن يجعلن من أنفسهن أضحوكة.

كانت السيدة باكينغتن ذات قلب شجاع، فجلست وأخذت تواجه الحقائق. أيكون كلود من أولئك الشباب الذين تستأجرهم النساء المسنات لمرافقتهن؟ لقد قرأت الكثير عن مثل هؤلاء الشباب في الصحف، وقرأت أيضاً عن مخازي النساء الكهلات.

أيكون كلود من هؤلاء؟ رأت أنه منهم. ولكن السائد هو أن تدفع النساء مصاريف أمثال هؤلاء، فيما كان كلود هو الذي يدفع مصاريفها. نعم، ولكن السيد باركر باين هو الذي دفع وليس كلود. أو أن المصاريف -بالأحرى- كانت من المئتي جنيه التي دفعتها هي. أتراها كهلة مغفلة؟ هل يضحك كلود منها خلف ظهرها؟ احمرّ وجهها لهذه الفكرة.

حسناً، وما أهمية ذلك؟ لقد كان كلود من أولئك الشباب، وهي كهلة مغفلة، ورأت أنه كان عليها أن تهديه شيئاً. قادتها فكرة غريبة مفاجئة لأن تذهب لتوها إلى محل لبيع الهدايا، حيث اختارت علبة ذهبية للفافات التبغ ودفعت ثمنها. وكان مُقرراً أن تلتقي بكلود

للغداء في مطعم كلاريدج. وفيما كانا يحتسيان القهوة أخرجت العلبة من محفظتها وقالت له: هدية صغيرة.

رفع بصره، وعبس ثم قال: لي أنا؟

- نعم؛ وأرجو أن تعجبك.

أطبقت يده على العلبة ثم دفعها بعنف عبر الطاولة قائلاً: لماذا تعطيني هذه؟ لن آخذها. خذيها، أعيديها.

كان غاضباً وعيناه السوداوان تلتمعان. تمتمت قائلة: "إنني آسفة"، ثم وضعتها في حقيبتها من جديد.

ساد شيء من التحفظ بينهما يومها، وفي صباح اليوم التالي اتصل بها وقال: يجب أن أراك. هل أستطيع القدوم إلى بيتك بعد ظهر اليوم؟

أخبرته أن يأتي في الساعة الثالثة، فجاءها شاحباً جداً ومتوتراً. تبادلا التحية، وكان التحفظ أكثر وضوحاً. وفجأة قفز واقفاً مواجهاً لها وقال: ماذا تحسبينني؟ هذا ما جئتُ للسؤال عنه، فأنت تظنين أنني... أنني من أولئك العاطلين الذين يصاحبون النساء لقاء أجر. تظنينني مخلوقاً يعيش على حساب النساء، أليس كذلك؟

- أبداً، أبداً.

نحى جانباً احتجاجها بحركة من يده. كان وجهه قد شحب كثيراً، ومضى يقول: أنت تظنين ذلك بالفعل! حسناً، هذا صحيح. هذا ما جئتُ لقوله. هذا صحيح! لقد تلقيتُ أوامر لكي أُخرجكِ،

وأُسليك، وأجعلك تنسين زوجك. كانت تلك مهمتي... مهمة بغيضة، أليس كذلك؟

- لماذا تقول لي ذلك؟

- لأنني أنهيتُ ذلك كله. لا أستطيع الاستمرار في هذا. ليس معك أنت؛ فأنت مختلفة. أنت امرأة أستطيع تصديقها والثقة بها. إنك تظنين أنني أقول ذلك ادعاءً فقط وأنه جزء من اللعبة.

اقترب منها وقال: "وسوف أُثبت لك أنه ليس كذلك. إنني مسافر... بسببك. إنني سأجعل من نفسي رجلاً بدل هذا المخلوق المقيت الذي ترينه، وذلك كله بسببك". ثم ابتعد قائلاً: وداعاً، لقد كنتُ وغداً دائماً، ولكنني أقسم أن الأمور ستختلف الآن. لقد قلتِ لي -مرة- إنك تحبين قراءة زاوية مشكلات القرّاء في الصحف، أليس كذلك؟ في مثل هذا اليوم من كل عام ستجدين هناك رسالة مني تقول إنني ما أزال أذكر وإنني أتقدم بشكل جيد، وعندئذ ستعرفين ما كنتِ تعنينه بالنسبة لي. وأمر آخر... أنا لم آخذ منك شيئاً، ولكنني أريدكِ أن تأخذي شيئاً مني.

سحب من إصبعه خاتماً ذهبياً وقال: هذا كان لأمي، وأود أن تأخذيه. والآن وداعاً.

* * *

جاء جورج باكينغتن إلى البيت مبكراً، فوجد زوجته تحدق إلى نار الموقد بنظرة بعيدة متأملة، وقد تكلمت معه بلطف ولكن بشرود. وفجأة قال لها: اسمعيني يا ماريا، بخصوص تلك الفتاة؟

- نعم يا عزيزي؟

- أنا... أنا لم أقصد أبداً إزعاجك. لا يوجد في الأمر شيء.

- أعرف... لقد كنتُ غبية. قابلها وقتما تشاء إن كان هذا يُسعدك.

كان من شأن هذه الكلمات -بالتأكيد- أن تُفرح جورج باكينغتن، ولكن الغريب أنها أزعجته، إذ كيف تستطيع التمتع بالخروج مع فتاة إذا ما كانت زوجتك تحثّك على ذلك؟ تباً للأمر كله، فهذا ليس معقولاً! وهكذا تلاشى ومات ميتة غير مُشرفة كلّ هذا الشعور لديه بأنه ذلك الرجل المرح القوي الذي يلعب بالنار. وشعر جورج باكينغتن فجأة بأنه متعب وبأنه أفقر جيباً بكثير؛ لقد كانت الفتاة لعوباً ذكية! وقال بشيء من الخنوع: بوسعنا أن نسافر معاً إلى مكان ما لبعض الوقت إن أحببتِ يا ماريا؟

- آه، لا تهتم لي، أنا سعيدة تماماً.

- ولكنني أرغب في أخذك في رحلة... لنسافر إلى الريفيرا!

ابتسمت السيدة باكينغتن له من بعيد. يا لجورج المسكين! كانت من قبل مغرمة به، ورأته الآن رجلاً يستحق الشفقة. لم يكن في حياته ألقٌ سري كذلك الموجود في حياتها.

وابتسمت بشكل أكثر لطفاً وقالت: سيكون ذلك رائعاً يا عزيزي.

* * *

قال السيد باركر باين لسكرتيرته الآنسة ليمون: حساب الترفيه؟

قالت: مئةٌ وجنيهان وأربعة عشر شلناً وستة بنسات.

فُتح الباب ودخل كلود لوتربل وهو يبدو معكر المزاج. قال السيد باركر باين: صباح الخير يا كلود، هل مضى الأمر بشكل مُرضٍ؟

- أظن ذلك.

- والخاتم؟ ما الاسم الذي نقشتَه داخله بالمناسبة؟

قال كلود متجهماً: ماتيلدا، ١٨٩٩.

- ممتاز. وما هي صيغة الدعاية؟

- «أنا أتقدم، وما زلتُ أذكر. كلود».

- اكتبي ملاحظة بذلك يا آنسة ليمون. في زاوية مشكلات القراء، في الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) لكل عام حتى... لنَرَ؛ لقد كانت النفقات مئةً وجنيهين وأربعة عشر شلناً وستة بنسات. حسناً، اجعلي الإعلان يُنشر لمدة عشر سنوات. هذا يترك لنا أرباحاً قدرها اثنان وتسعون جنيهاً وشلنان وأربعة بنسات... ربح مناسب، مناسب تماماً.

غادرت الآنسة ليمون. وانفجر كلود قائلاً: اسمعني، إنني لا أحب هذا الأمر... إنها لعبة قذرة.

- يا فتاي العزيز!

- إنها لعبة قذرة. لقد كانت تلك امرأة طيبة. إن رواية كل ذلك الكذب وشحنها بكل تلك العواطف... تباً، إن هذا يقرفني!

عدَّل السيد باركر باين نظارته ونظر إلى كلود بنوع من الاهتمام العلمي، وقال ببرود: يا إلهي! لا أكاد أذكر أن ضميرك قد أزعجك خلال حياتك المهنية في الماضي.

- حسناً، لقد بدأت أشعر بشكل مختلف؛ فهذه اللعبة ليست... ليست لطيفة.

تكلم السيد باركر باين بصوت مدير مدرسة يوبخ أحد تلامذته المفضلين: لقد نفَّذت عملاً يستحق الثناء يا عزيزي كلود. لقد منحت امرأة تَعِسة ما تحتاجه كل امرأة: قصة حب شاعرية. إن من شأن المرأة أن تتجاهل حباً جارفاً وتضرب به عرض الحائط ولا تستفيد منه شيئاً، أما القصة الشاعرية فمن شأنها أن تحتفظ بها عطرة وتعود إليها لسنوات طويلة قادمة. إنني أعرف الطبيعة البشرية يا فتاي، وإنني أقول لك إن من شأن المرأة أن تعيش على مثل هذا الحادث لسنوات طويلة.

قال كلود: "إنني لا أحب هذه اللعبة"، ثم غادر الغرفة.

أخرج السيد باركر باين ملفاً جديداً من الدُرج وكتب فيه: «لوحظت دلائل مثيرة للاهتمام على وجود ضمير حي لدى الشاب. ملاحظة: تُدرس التطورات».

* * *

قضية السيدة الحزينة

دق الجرس الموجود فوق مكتب السيد باركر باين بصوت خافت، فقال الرجل الضخم: نعم؟

قالت سكرتيرته: سيدة شابة ترغب برؤيتك، وليس لديها موعد.

- يمكنك أن تُدخليها يا آنسة ليمون.

وبعد لحظة كان يصافح زائرته قائلاً: صباح الخير، تفضلي بالجلوس.

جلست الفتاة ونظرت إلى السيد باركر باين. كانت فتاة جميلة صغيرة السن، وكان شعرها أسود متموجاً تنزل منه خصلات على مؤخرة عنقها. وكانت ترتدي ملابس أنيقة، من الغطاء الأبيض المنسوج فوق رأسها إلى الحذاء الناعم. وبدا ارتباكها واضحاً.

سألت: أأنت السيد باركر باين؟

- نعم.

- أنت الذي... يُعلن؟

- أنا الذي أعلن.

- إنك تقول إن الناس إن لم يكونوا... إن لم يكونوا سعداء، فليأتوا إليك.

- نعم.

انطلقت قائلة: حسناً، إنني تعِسة جداً، ولذلك فكرت بأن آتي و... وأرى.

انتظر السيد باركر باين؛ فقد شعر أن المزيد سيأتي.

قالت: "إنني... إنني في مشكلة فظيعة". ثم ضمت قبضتيها بارتباك.

قال السيد باركر باين: هذا ما أراه. أتظنين أن بمقدورك أن تخبريني بالأمر؟

بدا أن ذلك ما لم تكن الفتاة واثقة منه أبداً. حدقت إلى السيد باين بانتباه يائس، ثم تكلمت فجأة بسرعة: نعم، سأخبرك؛ لقد عزمتُ أمري الآن. لقد كاد القلق يقتلني ولم أعرف ما أفعل أو إلى أين ألجأ، ثم رأيت إعلانك وفكرت في أنه ربما كان مجرد احتيال، ولكنه بقي في ذهني، فقد بدا مريحاً جداً على نحوٍ ما. وبعد ذلك فكرت... فكرت بأنه لن يكون ضرر إن جئتُ ورأيت. فبوسعي دوماً تقديم عذر والخروج ثانية إن لم... إن لم...

- بالضبط، بالضبط.

- أفهمتني؟ إن المسألة تعني الثقة بشخص ما.

قال مبتسماً: وهل تشعرين أن بوسعك الثقة بي؟

قالت الفتاة بشيء من الوقاحة اللاواعية: غريب! ولكنني أشعر بذلك دون أن أعرف أي شيء عنك! أنا واثقة أن بوسعي الثقة بك.

- يمكنني أن أؤكد لك أن ثقتك لن تكون في غير محلها.

- إذن فإنني سأخبرك كل شيء عن الموضوع. اسمي هو دافني سينت جون.

- نعم يا آنسة سينت جون.

- بل سيدة؛ فأنا... فأنا متزوجة.

تأوه السيد باركر باين متزعجاً من نفسه وقد لاحظ الخاتم البلاتيني في الأصبع الوسطى ليدها اليسرى، وقال: ما أغباني!

قالت الفتاة: لو لم أكن متزوجة لما اهتممتُ إلى هذا الحد. أعني أن المسألة لم تكن لتهم كثيراً. إن التفكير بجيرالد... حسناً، إليك قصة المشكلة كلها!

نبشت في حقيبتها وأخرجت منها شيئاً وألقته على المكتب حيث تدحرج وهو يلتمع حتى وصل السيد باركر باين. كان ذلك خاتماً بلاتينياً ذا ألماسة ضخمة من السوليتير.

التقطه السيد باين وأخذه إلى قرب النافذة، ثم اختبره على زجاج النافذة، ثم وضع على عينه عدسة جواهريٍّ وتفحصه بدقة، ثم قال وهو يعود إلى المكتب: ألماس رائع جداً. أظنه يساوي نحواً من ألفي جنيه على الأقل.

- نعم، وهو مسروق... أنا سرقته! ولا أعرف ماذا أفعل.

- يا إلهي! هذا مثير جداً.

انهارت زبونته وراحت تنتحب في منديل لا يفي بهذا الغرض، فقال السيد باين: هيا، هيا. سيكون كل شيء على ما يرام.

جففت الفتاة عينيها ونشقت قائلة: آه، هل سيكون كذلك حقاً؟

- طبعاً سيكون كذلك. أخبريني فقط بالقصة كلها.

- حسناً، لقد بدأ الأمر بضائقة مررتُ بها. وأنا امرأة مسرفة جداً، وجيرارد ينزعج كثيراً من ذلك. جيرارد هو زوجي، وهو أكبر مني بكثير، وله أفكار... متزمتة جداً. فهو يرى أن وقوع المرء في الدين مسألة فظيعة؛ ولذلك لم أخبره. وقد ذهبتُ مع بعض الأصدقاء إلى لو توكيه، وظننت أنني ربما أكون محظوظة قليلاً في القمار وأقف على رجليّ من جديد. وقد ربحتُ في البداية، ثم خسرت، ثم رأيت أن عليّ الاستمرار في اللعب، ثم... ثم...

- نعم، نعم؛ لا حاجة بك للخوض في التفصيلات. الخلاصة أنك أصبحتِ في بلوى أكبر من أية بلوى سابقة، أليس كذلك؟

أومأت دافني سينت جون برأسها موافقة وقالت: وبعد ذلك لم أستطع -ببساطة- إخبار جيرالد؛ لأنه يكره القمار. آه، لقد كنتُ في حال يرثى لها! بعد ذلك ذهبنا للإقامة أياماً مع عائلة دورثيمرز قرب كوبهام. وصاحب البيت غني جداً بالطبع، وقد كانت زوجته نعومي معي في المدرسة، وهي جميلة ولطيفة. وعندما كنا هناك تخلخل فصّ هذا الخاتم، وفي صباح مغادرتنا طلبت مني أن آخذه إلى بائع الحليّ الذي تتعامل معه في شارع بوند.

ثم سكتت، فقال السيد باركر باين يساعدها: والآن نأتي إلى الجزء الصعب من القصة. استمري يا سيدة سينت جون.

قالت المرأة متوسلة: لن تخبر أحداً بذلك أبداً، أليس كذلك؟

- إن أسرار زبائني مقدسة. وعلى أية حال فقد أخبرتني -يا سيدة سينت جون- ما يمكنني معه أن أكمل القصة من عندي.

- هذا صحيح. حسناً، ولكنني أكره سرد ذلك... فهو فظيع جداً. ذهبتُ إلى شارع بوند، وهناك رأيت محل حلي آخر اسمه فيرو، وهو محل يصنع نسخاً طبق الأصل عن الجواهر. فجأة فقدتُ عقلي، فدخلتُ بالخاتم وقلتُ إنني أريد نسخة مطابقة له، مبررة ذلك بأنني مسافرة إلى الخارج ولا أريد أخذ جواهر حقيقية معي. وبدا أنهم رأوا الأمر طبيعياً تماماً.

بعد ذلك حصلت على النسخة الزائفة، وكانت من الإتقان بحيث لا تستطيع تمييزها عن الخاتم الأصلي، وأخذتها إلى الليدي دورثيمر. وقد كانت لديّ علبة عليها اسم الجواهريّ الأصلي الذي تتعامل معه الليدي، وهكذا لم أجد صعوبة في الأمر؛ وضعتُ الخاتم في العلبة وغلّفته بشكل يدل على الاحتراف. وبعدها قمتُ... قمتُ برهن الخاتم الحقيقي.

خبأت وجهها بين يديها وقالت: كيف أمكنني ذلك؟ كيف فعلتُ ذلك؟ لقد كنتُ لصة وضيعة!

تنحنح السيد باركر باين وقال: لا أظنك أكملتِ القصة تماماً.

- نعم، لم أكملها. لقد حدث ذلك قبل نحو ستة أسابيع،

وقد وفيت كل ديوني حتى لم أعد مدينة لأحد، ولكنني كنتُ بائسة طوال الوقت بالطبع. وبعد ذلك توفي ابن عمٍّ عجوز لي فورثتُ بعض المال، وكان أول شيء فعلته هو استعادة الخاتم وفك الرهن عنه. حسناً، لقد تم ذلك كما ينبغي، ولكن حدث أمر صعب جداً.

- وما هو؟

- تشاجرنا مع عائلة دورثيمر. وكانت المشاجرة بشأن بعض الأسهم التي أقنع السير روبن دورثيمر زوجي بشرائها، وقد تكبد زوجي خسارة فادحة فيها فسبّ السير دورثيمر بأقذع الكلام. آه، إنه أمر فظيع! والآن لا أستطيع إعادة الخاتم.

- ألا تستطيعين إرساله إلى الليدي على أنه من مجهول؟

- هذا يفضح الأمر كله؛ لأنها ستتفحص خاتمها فتجده مزيفاً وتخمن فوراً ما فعلتُه.

- أنت تقولين إنها صديقتك، فلماذا لا تقولين لها الحقيقة كاملة... وتضعين نفسك تحت رحمتها؟

هزت السيدة سينت جون رأسها وقالت: لسنا صديقتين إلى هذه الدرجة، وعندما يتعلق الأمر بالمال أو الحلي فإن نعومي فاقدة لأية مشاعر. ربما لا تستطيع ملاحقتي قضائياً إن أعدتُ لها الخاتم، ولكن بوسعها أن تخبر الجميع بما فعلتُه فتدمرني، وسيعرف جيرالد ولن يسامحني أبداً. آه، ما أفظع الأمر كله!

ثم بدأت تبكي من جديد وقالت: لقد فكرتُ وفكرت،

ولا أستطيع أن أرى ما يمكنني فعله! آه يا سيد باين، ألا تستطيع فعل شيء؟

- بل عدة أشياء.

- أتستطيع؟ حقاً؟

- بالتأكيد. لقد اقترحتُ عليك أبسط الطرق لأنني وجدتها، بخبرتي الطويلة، أفضل الطرق؛ فهي تجنب المرء أي تعقيدات غير محسوبة. ومع ذلك فبإمكاني أن أرى وجاهة اعتراضاتك. ألا يعرف أحدٌ غيرك بهذا الحدث المؤسف في الوقت الراهن؟

- أنت فقط.

- آه، أنا لا أُعَدّ! حسناً، إن سرك في حرز أمين حالياً. كل ما هو مطلوب هو تبديل الخاتمين بشكل لا يثير الريبة.

قالت الفتاة بلهفة: هذا هو الأمر.

- ينبغي أن لا يكون ذلك صعباً. ينبغي أن نأخذ بعض الوقت لنفكر في أفضل طريقة...

قاطعته قائلة: ولكن لا يوجد وقت! هذا ما يكاد يدفع بي إلى الجنون؛ إذ أنها ستأخذ الخاتم لتبديل حجره.

- وكيف عرفتِ؟

- بالمصادفة البحتة. كنت أتغدى مع امرأة قبل يومين وأبديت إعجابي بخاتم كان في يدها... من الزمرد الضخم، فقالت إنه آخر

صبحات الموضة وإن نعومي دورثيمر ستأخذ خاتمها لتغير حجره وفق هذه الموضة.

قال السيد باركر باين متأملاً: مما يعني أن علينا التصرف بسرعة، وهذا يعني ضرورة النجاح في إدخال أحدهم إلى البيت... ولن ينجح أن يكون هذا المرء خادماً؛ ففرصة الخدم في الوصول إلى الخواتم الثمينة فرصة ضعيفة. هل لديك أنت أية أفكار يا سيدة سينت جون؟

- حسناً، إن نعومي ستقيم حفلة يوم الأربعاء، وصديقتي هذه ذكرت أنها كانت تبحث عن فرقة للرقص الاستعراضي.

- أظن أن الأمر يمكن ترتيبه. إن كانت المسألة قد تم ترتيبها أصلاً فسيكون ذلك مُكلفاً أكثر، هذا كل ما في الأمر. وهناك شيء آخر. هل تعرفين مكان لوحة المفاتيح الكهربائية في البيت؟

- الحقيقة أنني أعرف ذلك بالفعل، فقد حدث هناك تماس كهربائي في ساعة متأخرة من إحدى الليالي بعد أن ذهب الخدم إلى النوم. إن اللوحة في صندوق في مؤخرة الصالة داخل خزانة صغيرة.

وبناء على طلب السيد باين، قامت برسم مخطط للمكان.

قال السيد باركر باين: والآن سيكون كل شيء على ما يرام، لا تقلقي يا سيدة سينت جون. ماذا عن الخاتم؟ هل آخذه الآن أم تفضلين الاحتفاظ به حتى يوم الأربعاء؟

- ربما كان من الأفضل أن أحتفظ به.

- حسناً، لا حاجة لمزيد من القلق الآن.

سألت بشيء من الخنوع: وماذا عن... أتعابك؟

- يمكن تأجيل ذلك حالياً. سأخبرك عما احتجناه من نفقات في يوم الأربعاء، وأؤكد لك أن الأتعاب ستكون رمزية.

قادها إلى الباب، ثم ضغط على زر الجرس على مكتبه وقال: أرسلي لي كلود ومادلين إلى هنا.

كان كلود لوتربل واحداً من أشد طفيليي المجتمعات الراقية وسامةً في إنكلترا، أما مادلين دي سارا فكانت فتاة بالغة الجاذبية.

استعرضهما السيد باركر باين باستحسان وقال: يا عزيزيّ، عندي لكما عمل؛ ستكونان من أكثر الراقصين الاستعراضيين شهرة في العالم. والآن اسمعني جيداً يا كلود، وافهم جيداً ما أقوله لك...

* * *

كانت الليدي دورثيمر مقتنعة تماماً بالترتيبات التي أجرتها لحفلتها. استعرضت زينة الزهور ووافقت عليها، ثم أعطت بعض الأوامر الأخيرة لكبير الخدم، وقالت لزوجها إن كل شيء قد سار على ما يرام حتى الآن!

وقد كانت خيبة أمل بسيطة أن مايكل وخوانيتا، الراقصين من فرقة ريد أدميرال، لم يستطيعا الإيفاء بعقدهما في اللحظة الأخيرة بسبب التواء في كاحل خوانيتا، ولكن تم بدل ذلك إرسال راقصين أثارا عاصفة إعجاب في باريس (هكذا مضت القصة على الهاتف).

وصل الراقصان في الوقت المحدد وحظيا بقبول الليدي دورثيمر، ومضت الأمسية بشكل رائع. وقد قام خوليس وسانشيا بفقرتهما، وكانت ممتعة جداً، وقد تضمنت رقصة صاخبة بعنوان الثورة الإسبانية، ثم تم استعراض رائع للرقص الحديث.

وبعد أن انتهى الاستعراض، تم استئناف الرقص العادي. وقد طلب خوليس الوسيم مراقصة الليدي دورثيمر، وطافا معاً يرقصان. أما السير روبن دورثيمر فقد كان يبحث عن سانشيا عبثاً؛ إذ لم تكن في قاعة الرقص (والحقيقة أنها كانت في الخارج، في الصالة الفارغة قرب علبة صغيرة على الجدار، وعيناها ثابتتان على الساعة الثمينة التي كانت تضعها في معصمها).

تمتم خوليس في أذن الليدي دورثيمر: أنت لستِ إنكليزية... لا يمكن أن تكوني إنكليزية بطريقة رقصك الرائعة هذه... دروشكا بيتروفكا نافارونشي.

- أية لغة هذه؟

قال خوليس كاذباً: الروسية. إنني أقول بالروسية شيئاً لا أجرؤ على قوله بالإنكليزية.

وفجأة انطفأت الأنوار فسحبت الليدي دورثيمر يدها، ولكن خوليس قام بحركة بارعة، وعلى نحوٍ ما انزلق خاتم من إصبعها إلى يده. وقد بدا للّيدي أن انقطاع الكهرباء لم يدم إلا ثانية واحدة، وجدت بعدها خوليس يبتسم لها قائلاً: خاتمك، لقد انزلق من يدك. هل تسمحين لي؟

ثم أعاد وضعه في إصبعها فيما كان السير دورثيمر يتحدث عن لوحة مفاتيح الكهرباء ويقول: لا بد أنه مغفلٌ ما.

* * *

وصل السيد باركر باين إلى مكتبه صباح الخميس ليجد السيدة سينت جون في انتظاره، فقال لسكرتيرته: أدخليها.

دخلت وقالت له بكل لهفة: ماذا حدث؟

قال لها بلهجة اتهام: تبدين شاحبة الوجه.

هزت رأسها وقالت: لم أستطع النوم طوال الليلة الماضية. كنت أتساءل...

- ها هي فاتورة التكاليف. أجور تدريب، وأزياء، وخمسون جنيهاً لمايكل وخوانيتا. المجموع خمسة وستون جنيهاً وسبعة عشر شلناً.

- نعم، نعم. ولكن ماذا بشأن الليلة الماضية؟ هل نجح الأمر؟

نظر إليها السيد باركر باين دَهِشاً وقال: يا فتاتي العزيزة! لقد نجح الأمر بالتأكيد. لقد افترضتُ -جدلاً- أنك قد فهمتِ ذلك.

- يا له من ارتياح! لقد خشيتُ...

هز السيد باركر باين رأسه مؤنباً وقال: إن الفشل كلمة غير مسموح بها في هذه المؤسسة، فإن لم أكن أرى أن بإمكاني النجاح

فإنني أرفض تولي القضية أساساً، وإذا ما توليت قضية فإن نجاحها يكون مسألة محسومة عملياً.

- هل استردت خاتمها حقاً دون أن تشك بشيء؟

- لم تشكَّ بشيء أبداً، لقد تم تنفيذ العملية بكل دقة ومهارة.

تنهدت دافني سينت جون وقالت: إنك لا تعرف الحمل الذي نزل عن عاتقي. ماذا كنتَ تقول عن التكاليف؟

- خمسة وستون جنيهاً وسبعة عشر شلناً.

فتحت السيدة سينت جون حقيبتها وعدَّت النقود، وشكرها السيد باركر باين وكتب لها إيصالاً باستلام المبلغ. فقالت: ولكن ماذا عن أتعابك؟ هذا فقط لتغطية النفقات.

- في هذه القضية لا توجد أتعاب.

- آه يا سيد باين! إنني لا أستطيع قبول ذلك.

- إنني أُصرّ يا فتاتي العزيزة. لن ألمس بنساً واحداً، فسيكون ذلك مخالفاً لمبادئي. ها هو إيصالك. والآن...

وبابتسامة ساحر يُخرج حيلة ناجحة سحب علبة صغيرة من جيبه ودفعها إليها عبر المكتب. فتحتها دافني، وكانت بداخلها النسخة طبق الأصل من الخاتم. قالت السيدة سينت جون وهي تُعطي وجهها مظهر الاشمئزاز: بغيض... لَكَم أكرهك! تراودني نفسي أن ألقي بك من النافذة.

قال السيد باركر باين: ما كنتُ لأفعل ذلك، فهذا قد يُدهش الناس.

- أأنت واثق تماماً أنه ليس الخاتم الأصلي؟

- نعم، نعم! إن الخاتم الذي أريتني إياه في المرة السابقة هو الآن في يد الليدي دورثيمر دون شك.

نهضت السيدة سينت جون ضاحكة بسرور وقالت: حسنٌ إذن.

- ولكن من الغريب أن تسأليني ذلك، إذ أن كلود المسكين لا عقل له بالطبع، وربما اختلط عليه الأمر بسهولة. ولذلك، وبغية التأكد، جعلتُ أحد الخبراء يلقي نظرة على هذا الخاتم صباح اليوم.

جلست السيدة سينت جون ثانية بشكل مفاجئ وقالت: آه! وماذا قال؟

قال السيد باركر باين مبتسماً: قال إنه تقليد ممتاز جداً، صنعة من الدرجة الأولى، ولذلك فإن هذا سيريح بالك، أليس كذلك؟

بدأت السيدة سينت جون تريد قول شيء ثم توقفت، وأخذت تحدق إلى السيد باين الذي عاد للجلوس خلف مكتبه وهو ينظر إليها بلطف، ثم قال حالماً: الملتقط الذي يأخذ الكستناء من بين الجمر، إن دور الملتقط هذا ليس دوراً لطيفاً... ليس بالدور الذي يمكن أن أُسنده لأيٍّ من موظفيّ. عفواً، هل قلتِ شيئاً؟

- أنا... لا، لا شيء.

قال السيد باركر باين:

جيد. أريد أن أقص عليك قصة صغيرة يا سيدة سينت جون. قصة عن فتاة أظنها شقراء الشعر، وهي ليست متزوجة وليس اسمها سينت جون، واسمها الأول ليس دافني. اسمها إيرنستين ريتشاردز، وقد كانت -حتى عهد قريب- سكرتيرة لليدي دورثيمر.

حسناً، تخلخل في أحد الأيام فص خاتم الليدي دورثيمر، وأخذته الآنسة ريتشاردز إلى المدينة لتثبيته. تماماً كقصتك تلك، أليس كذلك؟ وقد خطرت للآنسة ريتشاردز نفس الفكرة التي خطرت لك؛ فقامت بعمل نسخة عن الخاتم، ولكنها كانت فتاة بعيدة النظر، وقد توقعت أن يأتي يوم تكتشف فيه الليدي دورثيمر استبدال الخاتم. وعندما يحدث ذلك فإنها ستتذكر مَن الذي أخذ الخاتم إلى المدينة، وستحوم الشكوك حول الآنسة ريتشاردز فوراً.

ما الذي حدث إذن؟ يخيل لي أن الآنسة ريتشاردز قد قامت -بداية- بإجراء تغيير على شكلها، وغيرت تصفيفة شعرها ولونه ليصبح بنياً غامقاً بعض الشيء. ثم قامت بزيارتي، حيث أرتني الخاتم، وسمحت لي بأن أقنع نفسي بأنه حقيقي، بحيث تبدد أية شكوك قد تتولد عندي. وبعد القيام بذلك، ووضع خطة استبدال الخاتم، أخذت الشابة الخاتم إلى الجواهريّ الذي أعاده بعد ذلك لليدي دورثيمر.

وفي مساء أمس، تم على عجل تسليم الخاتم الآخر المزيف في آخر لحظة في محطة قطار واترلو. وقد اعتبرت الآنسة ريتشاردز (وهي محقة في ذلك) أن السيد لوتريل لا يُعقل أن يكون خبيراً حُجّة

في الجواهر، ولكنني، لمجرد إقناع نفسي بأن كل شيء مستقيم في العملية، رتبتُ لوجود صديقٍ لي من تجار الحلي على متن نفس القطار. وقد نظر إلى الخاتم وأعلن فوراً أنه ليس من الألماس الحقيقي، ولكنه تقليد ممتاز له.

إنك تفهمين المغزى طبعاً يا سيدة سينت جون، أليس كذلك؟ فما الذي ستتذكره الليدي دورثيمر عندما تكتشف خسارتها؟ سوف تتذكر الراقص الشاب الوسيم الذي سحب الخاتم من إصبعها عندما انطفأت الأنوار. وسوف تقوم بتحريات وتجد أن الراقصَيْن اللذين تم الاتفاق معهما أولاً قد تمت رشوتهما حتى لا يأتيا. وإذا ما قادت التحريات إلى مكتبي فإن من شأن قصتي عن السيدة سينت جونز أن تبدو ضعيفة أشد الضعف؛ فالليدي دورثيمر لم تعرف أبداً سيدة باسم سينت جون، وستبدو القصة تلفيقاً بيّناً. ولعلك تفهمين الآن أنني لا يمكن أن أسمح بذلك، ولذلك فإن صديقي كلود قد وضع في إصبع الليدي دورثيمر نفس الخاتم الذي نزعه!

ثم ابتسم السيد باركر باين دون أن تكون ابتسامته لطيفة الآن، وقال: هل فهمتِ لماذا لم أستطع تقاضي أتعاب منك؟ إنني أضمن توفير السعادة، ومن الواضح أنني لم أوفر لك السعادة. وسأقول شيئاً واحداً آخر. إنك شابة، وربما كانت هذه أول محاولة لك في أمور كهذه، أما أنا فعلى العكس؛ فأنا متقدم في العمر نسبياً، ولقد اكتسبتُ خبرة طويلة في إعداد الإحصائيات. ويمكنني -من هذه الخبرة- أن أؤكد لك أن سبعة وثمانين بالمئة من القضايا لا يفيد فيها الغش والخداع. سبعة وثمانون بالمئة، فكري في هذا الأمر!

نهضت السيدة الزائفة سينت جون بحركة سريعة وقالت: أيها المتملق الوغد العجوز! تغرر بي وتجعلني أدفع النفقات! وأنت طوال الوقت...

ثم غصت الكلمات في فمها واندفعت باتجاه الباب.

قال السيد باركر باين وهو يمد يده بالخاتم: خاتمك.

خطفته منه، فنظرت إليه ثم ألقته من النافذة المفتوحة، ثم خرجت وصفقت الباب خلفها.

نظر السيد باركر باين من النافذة بشيء من الاهتمام وقال: كما توقعت، لقد أثار ذلك الكثير من الدهشة؛ فبائع الخرداوات لا يعرف ما يفعل بالخاتم.

* * *

قضية الزوج المحبَط

مما لا شك فيه أن إحدى الصفات العظيمة لدى السيد باركر باين كانت أسلوبه المتعاطف، فقد كان ذلك الأسلوب يوحي بالثقة، وقد كان يعرف تمام المعرفة ذلك النوع من الشلل الذي يهبط على زبائنه بمجرد دخولهم إلى مكتبه. وكانت مهمة السيد باين أن يمهد الطريق أمام الاعترافات الضرورية.

وفي هذا الصباح -بالذات- جلس يواجه زبوناً جديداً يُدعى السيد ريجينالد ويد، وقد استنتج فوراً أن السيد ويد كان من النوع الذي لا يُحسن التعبير عما في نفسه؛ ذلك النوع الذي يجد صعوبة في وضع أي شيء ذي علاقة بالعواطف على شكل كلمات.

كان رجلاً طويلاً عريضاً ذا عينين زرقاوين هادئتين مريحتين وبشرة سفعتها الشمس. جلس وهو يشد شاربه الصغير بشرود وهو ينظر إلى السيد باركر باين بكل ما يثيره حيوان أبكم من شفقة وقال بسرعة: لقد رأيت إعلانك، وفكرت بأن من الأفضل أن آتي إليك. مسألة عويصة، ولكن المرء لا يدري، ماذا؟

فسر السيد باين هذه الملاحظات الغامضة بشكل صحيح، وقال: عندما تسوء الأمور يصبح المرء مستعداً للمجازفة والتجربة.

- نعم، نعم؛ بالضبط. إنني مستعد للمجازفة... لأية مجازفة.

إن الأمور سيئة معي يا سيد باين ولا أدري ماذا أفعل إزاءها. صعبة، صعبة جداً.

- وهنا يأتي دوري؛ فأنا أعرف ماذا أفعل! إنني مختص بكل أنواع المتاعب البشرية.

- آه، هذا أمر صعب بعض الشيء.

- ليس صعباً حقاً؛ فالمشكلات البشرية يمكن تصنيفها ضمن بضعة عناوين أساسية بسهولة. اعتلال الصحة مثلاً، والملل، ونساء قلقات بسبب أزواجهن، وأزواج...

توقف قليلاً ثم أكمل: قلقون بشأن زوجاتهم.

- الحقيقة أنك أصبت صميم الموضوع... أصبت صميمه تماماً.

- أخبرني بالأمر.

- لا يوجد الكثير مما يمكن قوله؛ فزوجتي تريدني أن أطلقها بحيث تستطيع الزواج برجل آخر.

- هذا شائع جداً في أيامنا هذه حقيقة. والآن أفهم أنك لا ترى رأيها تماماً في هذا الأمر.

قال السيد ويد ببساطة: إنني أحبها.

كانت تلك عبارة بسيطة ومكرورة إلى حدٍّ ما، ولكن لو قُدِّر للسيد ويد أن يقول: "إنني مجنون بها... إنني مستعد لتقطيع نفسي

إرباً إرباً من أجلها" (أو أي عبارة أخرى مشابهة) لما كان ذلك أكثر وضوحاً وتأثيراً بالنسبة للسيد باركر باين.

ومضى الرجل قائلاً: ومع ذلك، فما الذي يمكنني عمله؟ أعني أنني عاجز تماماً؛ فإن كانت تفضل ذلك الرجل الآخر فليس بوسعي سوى أن أتنحى جانباً.

- والمُقترَح هو أن تقوم هي بطلب الطلاق؟

- بالطبع، فلا أريد لها أن تعاني من الشد والجذب الطويلين في محاكم الطلاق.

نظر إليه السيد باركر باين متأملاً وقال: ولكنك جئتَ إليّ؟ لماذا؟

ضحك الرجل بخجل وقال: لا أدري... الحقيقة أنني لستُ بالرجل الذكي، ولا أستطيع التفكير بوسائل وطرق. وقد ظننتُ أنك ربما اقترحتَ علي شيئاً؛ فلديّ ستة أشهر، وقد وافقتْ على ذلك. فإذا ما ظلّتْ -بعد الأشهر الستة- مصممة على ما في رأسها فعندها أخرج من حياتها. لقد ظننتُ أنك ربما استطعت أن تعطني فكرة أو فكرتين. إن كل ما أفعله يزعجها في الوقت الحاضر... أتفهمني يا سيد باين؟ خلاصة القول أنني لستُ رجلاً ذكياً! إنني أحب الألعاب الكروية... أحب لعب الغولف، وأستمتع بعدة تنس جيدة، ولكنني لستُ بارعاً في أمور الموسيقى والفن وغير ذلك. أما زوجتي فهي ذكية وتحب السينما والأوبرا والحفلات الموسيقية، ومن الطبيعي أنها تمل مني. أما ذلك الرجل الآخر، وهو رجل قذر طويل الشعر،

فإنه يعرف كل شيء عن هذه الأمور، ويمكنه الحديث عنها، بينما لا أستطيع أنا ذلك. يمكنني -على نحوٍ ما- أن أفهم سأمَ امرأةٍ ذكية جميلة من حمار مثلي.

قال السيد باركر باين بصوت هادئ: كم مضى على زواجك؟ تسعُ سنوات؟ وأحسب أنك تبنيت هذا الموقف منذ البداية... وهذا خطأ يا سيدي العزيز؛ خطأ كارثي تماماً! لا تتبنَّ موقفاً اعتذارياً ضعيفاً مع امرأة أبداً، وإلاّ فإنها ستعاملك وفق تقويمك لنفسك... وستكون مستحقاً لذلك! كان عليك أن تفاخر بخبرتك الرياضية، وكان عليك أن تتحدث عن الفن والموسيقى باعتبارهما «كل ذلك الهراء الذي تحبه زوجتي»... كان ينبغي أن تعزّيها على عدم قدرتها على لعب الرياضة بشكل أفضل! إن النفسية المتواضعة المسكينة -يا سيدي العزيز- هي الفشل الذريع في الحياة الزوجية؛ فلا يُتوقع من امرأة أن تتحمل ذلك أبداً. ولا عجب أن زوجتك لم تستطع إكمال المسيرة.

كان السيد ويد ينظر إليه بحيرة، ثم قال: حسناً، ماذا تظنّ أن عليّ أن أفعل؟

- هذا هو السؤال بالتأكيد. لقد فات الآن وقت القيام بكل ما كان ينبغي القيام به قبل تسع سنوات... ينبغي تبنّي أساليب جديدة. هل سبق لك أن اقتربت من نساء أخريات؟

- كلا بالتأكيد.

- ولا بشكل عابر؟

- إنني لا أهتم كثيراً بالنساء.

- حسناً، ينبغي أن تبدأ الآن.

بدا السيد ويد مذعوراً وقال: آه، اسمعني، لا أستطيع حقاً... أعني...

- لن تتعرض لأي مشكلات في ذلك. سيتم ترتيب أمر إحدى العاملات لديّ لتؤدي هذا الدور، وسوف تخبرك بما هو مطلوب منك. ومن الطبيعي أنها ستفهم أن أي اهتمام تبديه نحوها سيكون مجرد عمل.

بدا الارتياح على السيد ويد وقال: هذا أفضل. ولكن هل ترى حقاً... أعني أنني أظن أن إيريس ستكون -في هذه الحالة- أحرص على التخلص مني.

- إن معرفتك بالطبيعة البشرية ضعيفة يا سيد ويد، والأضعف منها معرفتك بالطبيعة البشرية للنساء. إنك الآن -من وجهة النظر النسوية- سلعة فائضة عن الحاجة؛ لا أحد يريدك. فما استفادة امرأة من شيء لا أحد يريده؟ لا فائدة لها منه على الإطلاق. ولكن خذ الأمر من منظور آخر. افترض أن زوجتك اكتشفت أنك تتطلع إلى الفوز بحريتك من جديد بقدر ما تتطلع هي.

- ينبغي عندها أن تسعد لذلك.

- ربما كان ينبغي ذلك، ولكنه لن يحصل! وفوق هذا فسترى زوجتك أنك قد نلت إعجاب شابة جذابة... شابة يمكنها أن تختار وتنتقي من تشاء. سوف تعلو أسهمك فوراً، وتعرف زوجتك أن كل صديقاتها سيقلن إنك أنت الذي سئمتَ منها ورغبتَ في الزواج بامرأة أكثر جمالاً... وسوف يزعجها هذا.

- أتظن ذلك؟

- بل إنني واثق منه. ولا شك أنها ستحاول استردادك دون أن تتخلى عن الرجل الآخر، ولكنك سترفض أن تُستزَد! ستكون عقلانياً وتردد على مسامعها كل حججها: "من الأفضل كثيراً أن نفترق"، "أمزجتنا مختلفة". وسوف تدرك أنه في الوقت الذي كان كلامها صحيحاً حول عدم فهمك لها أبداً، فإن الصحيح أيضاً أنها لم تفهمك أبداً هي الأخرى. ولكن لا حاجة بنا للمضي إلى هذا المدى الآن، فستصلك تعليمات كاملة في الوقت المناسب.

بدا أن السيد ويد لم يزل متشككاً، وسأل بارتياب: أتظن أن خطتك هذه ستنجح حقاً؟

قال السيد باركر باين بحذر: لن أقول إنني واثق كلياً من ذلك؛ إذ يوجد احتمال ضعيف في أن تكون زوجتك محبة لذلك الرجل الآخر حباً جارفاً لا يفيد معه أي شيء تقوله أو تفعله، ولكنني أعتبر ذلك أمراً غير محتمل. فربما ساقها الملل إلى مثل هذه العلاقة؛ الملل من جو التعلق غير المشروط والإخلاص التام الذي أحطتها به دون تفكير منك. وإذا ما اتبعت تعليماتي فإنني أرى أن الاحتمالات في صالحك بنسبة سبعة وتسعين بالمئة.

- هذا جيد جداً. سأفعل ذلك. وبالمناسبة... كم الكلفة؟

- أتعابي هي مئتا جنيه تُدفع مقدماً.

سحب السيد ويد دفتر شيكاته.

* * *

كانت حدائق منزل لوريمر كورت رائعة تحت أشعة شمس العصر، وكانت إيريس تتمدد بملابسها الزاهية على كرسي طويل وتتحدث مع صديقتها السيدة ماسينغتن (التي كانت تجدها -دوماً- صديقة متعاطفة معها)، وكانت المرأتان قد ابتليتا بزوجين رياضيين يتراوح كلامهما، دوماً وبالتناوب، بين الأسهم والغولف.

أنهت إيريس حديثها قائلة: وهكذا يتعلم المرء أن يعيش ويترك لغيره أن يعيش.

قالت السيدة ماسينغتن: "إنك رائعة يا عزيزتي". ثم أضافت بسرعة: أخبريني من هي هذه الفتاة؟

رفعت إيريس كتفاً سئماً وقالت: لا تسأليني! لقد وجدها ريجي. إنها صديقته الصغيرة! أمر مُسلٍّ جداً! فأنت تعلمين أنه لا ينظر إلى الفتيات عامة. وقد جاء إليّ فهمهم وغمغم وقال أخيراً إنه يريد دعوة هذه الآنسة، دي سارا، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع هنا. وقد ضحكتُ بالطبع... لم أتمالك نفسي؛ فهو ريجي الذي تعرفينه! وها هي هنا.

- أين التقى بها؟

- لا أدري، لقد كان غامضاً جداً حول الأمر كله.

- ربما كان يعرفها منذ وقت طويل.

- آه، لا أظن ذلك. وبالطبع فإنني مسرورة... مسرورة تماماً. أعني أن ذلك يجعل الأمر أسهل بكثير علي؛ لأنني كنت حقاً حزينة على ريجي؛ فهو مسكين، وهذا ما ظللتُ أردده على سيكلير... أن

الأمر سيجرح ريجي كثيراً. ولكنه أصر على أن ريجي سيتغلب على ذلك سريعاً، ويبدو أنه كان على حق، فمنذ يومين كان ريجي يبدو كسير القلب... وها هو الآن يريد دعوة هذه الفتاة إلى هنا! وكما قلتُ فإنني سعيدة! إنني أحب رؤية ريجي يمتع نفسه. يخيل لي أن المسكين ظنَّ أنني ربما شعرتُ بالغيرة... يا لها من فكرة سخيفة! وقد قلتُ له: "بالطبع، أحضر صديقتك". يا لريجي المسكين! وكأن فتاة كهذه يمكن أن تهتم به أبداً... إنها تسلي نفسها فقط.

قالت السيدة ماسبنغتن: إنها جميلة جداً... تكاد تكون خطيرة الجمال؛ من ذلك النوع الذي لا يهتم إلاّ بالرجال، ولسبب ما لا أشعر أنها يمكن أن تكون فتاة لطيفة حقاً.

- ربما لا تكون كذلك.

قالت السيدة ماسبنغتن: وهي ترتدي ملابس رائعة جداً.

- ألا ترين أنها ملابس مفرطة في غرابتها قليلاً؟
- ولكنها ثمينة جداً.
- تتظاهر بالغنى... إنها تبدو شديدة التظاهر بالغنى.
- ها قد وصلا.

* * *

كانت مادلين دي سارا تتمشى مع ريجي ويد على المرجة العشبية. كانا يضحكان ويتحدثان معاً ويبدوان بأسعد حال، ورمت مادلين نفسها على كرسي، ونزعت قبعة الرياضة التي كانت ترتديها

ثم مررت يديها خلال خصلات شعرها الأسود الجميل.

لا سبيل لإنكار جمالها.

صاحت: لقد قضينا وقتاً رائعاً جداً! إنني أشعر بحرٍّ شديد؛ لا بد أنني أبدو فظيعة الشكل.

جفل ريجي بارتباك عندما سمع الجملة التي كانت إيذاناً له ليتكلم، ثم قال: إنك تبدين... تبدين...

ثم أطلق ضحكة صغيرة وأكمل قائلاً: لن أقولها.

التقت عينا مادلين بعينيه. كانت نظرة تفهم كامل من طرفها، وقد انتبهت السيدة ماسبنغتن لذلك بكل يقظة.

قالت مادلين لمضيفتها: ينبغي أن تلعبي الغولف كيلا تفوتك الكثير من المتعة. لماذا لا تتعلمينه؟ لدي صديقة تعلمته وأصبحت ماهرة جداً، وكانت أكبر منك بكثير.

قالت إيريس بيرود: إنني لا أهتم بمثل هذه الأشياء.

- ألا تتقنين الألعاب؟ كم هو سيء بالنسبة لك! إنه أمر يجعل المرء يشعر بأنه فاقد للصلة مع العصر. ولكن التدريب قد أصبح حقاً ممتازاً هذه الأيام -يا سيدة ويد- بحيث صار بمقدور أي امرئ أن يلعب بشكل جيد. لقد حسّنتُ لعبي في التنس كثيراً في الصيف الماضي، ولكنني سيئة جداً في لعب الغولف.

قال ريجي: هراء! أنت لا تحتاجين إلاّ للتدريب... ألم تري

كيف نفّذتِ تلك الضربات بالمضرب النحاسي قبل قليل؟

- ذلك لأنك علمتني كيف أضربها؛ فأنت مدرب ممتاز. إن الكثير من الناس لا يحسنون التدريب، ولكن لديكَ هذه الموهبة. لا شك أنك تشعر بتفوق رهيب... إن بوسعك القيام بأي شيء.

قال ريجي بارتباك: هراء! لستُ جيداً في شيء... لا فائدة مني أبداً.

قالت مادلين وهي تلتفت إلى مضيفتها: ينبغي أن تكوني فخورة جداً به. كيف استطعتِ الاحتفاظ به كل هذه السنين؟ لا بد أنك كنت شديدة الذكاء... أم أنكِ خبأتِه بعيداً عن أعين الناس؟

لم تجبها مضيفتها، بل مدت يداً مرتجفة وأخذت كتابها. وتمتم ريجي بكلام عن حاجته لتبديل ملابسه وذهب.

قالت مادلين لمضيفتها: إنني أرى أن من لطفك الشديد أن تستقبليني هنا؛ فبعض النساء شكاكات جداً في صديقات أزواجهن. إنني أرى -فعلاً- أن الغيرة أمر سخيف، ألا ترين ذلك؟

- أرى ذلك بالتأكيد... ما كنتُ لأحلم بالغيرة على ريجي.

- هذا رائع؛ لأن بوسع أي امرئ أن يرى أنه جذاب جداً. لقد صُدمت عندما سمعتُ أنه متزوج. ما بال الرجال الجذابين يُختطَفون سريعاً وهم صغار؟

- أنا سعيدة لأنك تجدين ريجي جذاباً إلى هذا الحد.

- إنه جذاب فعلاً، أليس كذلك؟ وسيم تماماً، ورياضي ماهر

جداً. وتلك اللامبالاة التي يتظاهر بها تجاه النساء!

قالت السيدة ويد: أحسب أن لديك الكثير من الأصدقاء الرجال.

- آه، نعم. إنني أحب الرجال أكثر من النساء؛ فالنساء لسن لطيفات معي حقاً. لا أدري السبب في ذلك.

قالت السيدة ماسينغتن بضحكة صغيرة: ربما كنتِ لطيفة جداً مع أزواجهن!

- المرء يشعر بالحزن على الناس أحياناً؛ فالكثير من الرجال الرائعين يكونون مرتبطين بزوجات مملات جداً، من أولئك النساء مدّعيات الفن والثقافة العالية. ومن الطبيعي أن الرجل يريد فتاة شابة تفهمه. أعتقد أن الأفكار الحديثة الخاصة بالزواج والطلاق حكيمة جداً... فليبدأ المرء ثانية، وهو ما يزال شاباً، مع شريك حياة يبادله الكثير من الأذواق والأفكار؛ فهذا أفضل للجميع في نهاية المطاف. أظن أن اختصار المرء لخسائره والمبادرة للبدء من جديد أمر حكيم تماماً، ألا ترين ذلك يا سيدة ويد؟

- بالتأكيد.

أدركت مادلين -بوعي يقظ- أن البرود الشديد قد ساد جو الحديث، فتمتمت بشيء عن تغيير ملابسها استعداداً لتناول الشاي وتركتهما.

قالت السيدة ويد: إن بنات هذه الأيام هؤلاء مقيتاتٌ جداً، لا تجدين فكرة واحدة في رؤوسهن.

قالت السيدة ماسينغتن: ولكن لدى هذه الفتاة فكرة واحدة في رأسها يا إيريس... إن الفتاة تحب ريجي.

- هراء!

- إنها تحبه... لقد رأيت طريقة نظرتها إليه قبل قليل؛ إنها لا تأبه أبداً لكونه متزوجاً أم غير متزوج، وهي تنوي الحصول عليه... أمر مقرف!

بقيت السيدة ويد ساكتة للحظة ثم ضحكت بشيء من التردد وقالت: وماذا يهم ذلك في نهاية الأمر؟

وسرعان ما نهضت السيدة ويد هي الأخرى وصعدت إلى الطابق العلوي. كان زوجها في غرفة الملابس يبدل ثيابه، وكان يغني.

قالت له: أتستمتع بوقتك يا عزيزي؟

- آه، نعم، تقريباً.

- يسعدني ذلك، أريدك أن تكون سعيداً.

- نعم.

لم يكن تمثيل الأدوار أحد نقاط القوة عند ريجي ويد، ولكن ما حدث هو أن حرجه الشديد الناتج من تفكيره بأنه يؤدي دوراً كان مناسباً جداً؛ فقد تجنب نظرات زوجته، وكان يجفل عندما تتحدث إليه. وقد شعر بالخجل وكره هذا التهريج كله، ولكن لم يكن شيء يمكن أن يترك أثراً أبلغ أو أشد من ذلك؛ فقد بدا مثالاً لمن يؤرقه ذنب بفعله.

سألته زوجته فجأة: منذ متى وأنت تعرفها؟

- مَن تعنين؟

- الآنسة دي سارا بالطبع.

- لا أعرف بالضبط. أعني... منذ بعض الوقت.

- حقاً؟ ولكنك لم تذكر شيئاً عنها؟

- ألم أذكرها؟ أحسب أنني نسيت.

قالت: "نسيت فعلاً؟!"، ثم غادرت سريعاً وثوبها البنفسجي يلتف معها.

بعد تناول الشاي قام السيد ويد باصطحاب الآنسة دي سارا لرؤية حديقة الورود. مشى الاثنان عبر المرجة العشبية وهما يحسان بأربعة أعين تلسع ظهريهما.

قال السيد ويد ليفرغ العبء عن كاهله وقد أصبحا آمنَيْن في حديقة الورود: اسمعيني. أظن أن علينا التخلي عن هذا الأمر. لقد نظرتْ إليّ زوجتي الآن وكأنها تكرهني.

قالت مادلين: لا تقلق؛ فالأمر على ما يرام.

- أتظنين ذلك؟ أعني أنني لا أريد أن أكسب عداوتها. لقد قالت عدة أشياء مقذعة أثناء تناول الشاي.

- الأمر على ما يرام. إنك تتصرف بشكل رائع.

- أتظنين ذلك حقاً؟

- نعم.

ثم مضت قائلة بصوت منخفض: إن زوجتك تمشي عند زاوية المصطبة، وهي تريد أن ترى ما نفعله. الأفضل أن تعبّر عن حبك لي بصوت مسموع.

قال السيد ويد بارتباك: آه! أيجب ذلك؟ أعني...

قالت مادلين بشدة: قل أي شيء بسرعة!

خرجت من فم السيد ويد بعض كلمات الغزل المتعثرة التي بدت طبيعية تماماً مع ما خالطها من ارتباك، وقد كان من شأن مادلين أن تعالج أي نقص في حيوية الأداء وتبادله بكلمات مماثلة.

ثم سألته: هل كرهتَ ذلك كثيراً؟

قال بارتباك: "لا، لا. ولكن... ولكن الأمر كان مفاجأة". ثم قال بحزن: أترين أننا مكثنا في حديقة الورود بما يكفي من الوقت؟

- أظن ذلك، لقد قمنا بعمل رائع هنا.

عادا إلى المرجة العشبية، وأبلغتهما السيدة ماسينغتن أن السيدة ويد قد ذهبت لتتمدد قليلاً.

وفي وقت لاحق جاء السيد ويد إلى مادلين بوجه حائر متكدر وقال: إنها بحالة فظيعة... حالة هستيريا.

- جيد.

- لقد رأتنا وسمعتنا.

- حسناً، هذا ما قصدناه أساساً.

- أعرف، ولكنني لا أستطيع قول هذا، أليس كذلك؟ لم أدرِ ما أقول. قلت إنها كانت مجرد... مجرد كلام عابر.

- ممتاز.

- قالت إنك تخططين للزواج بي وقالت إنك فتاة سيئة، وقد أزعجني ذلك... فقد بدا حظاً سيئاً جداً بالنسبة لك. أعني في وقت لا تقومين فيه إلاّ بعمل محض. قلت لها إنني أُكنّ لك احتراماً بالغاً وإن ما قالته ليس صحيحاً أبداً، وأظنني غضبتُ عندما استمرت في الموضوع.

- هائل.

- ثم طلبت مني أن أرحل، وقالت إنها لا تريد التحدث إلي أبداً بعد الآن. ثم تحدثت عن جمع أمتعتها ومغادرة البيت.

كان وجهه ينضح بالأسى. ولكن مادلين ابتسمت وقالت: سأقول لك كيف تجيبها على هذه النقطة الأخيرة. قل لها إنك أنت الذي سيرحل وإنك ستحزم أمتعتك وتغادر إلى المدينة.

- ولكنني لا أريد ذلك!

- لا بأس بذلك، فلن تُضطر للمغادرة؛ فمن شأن زوجتك أن تكره التفكير بك وأنت تمتع نفسك في لندن.

* * *

في اليوم التالي كانت لدى ريجي ويد نشرة أخبار جديدة يذيعها: لقد قالت إنها كانت تفكر بأنه ليس من الإنصاف أن تغادر طالما أنها وعدت بالبقاء ستة أشهر، ولكنها قالت إنها لا ترى سبباً يمنعها من دعوة أصدقائها إلى هنا طالما أنني أدعو أصدقائي. ولذا ستدعو سينكلير جوردان.

- أهو صاحبها؟

- نعم، وإنني سأكون مغفلاً إن سمحتُ له بالمجيء إلى هذا البيت!

- ينبغي أن تسمح له. لا تقلق؛ سأتولى أنا أمره. قل لها إنك لا تعارض مجيئه بعد أن فكرت في الأمر ملياً، وإنك تعلم أنها لن تعارض بقائي هنا أيضاً.

تنهد السيد ويد وقال: آه، يا إلهي!

- لا تفقد شجاعتك؛ كل شيء يسير بشكل رائع. أسبوعان آخران وتنتهي كل متاعبك.

- أسبوعان؟ أتظنين ذلك حقاً؟

- أظن ذلك؟ بل أنا واثقة منه.

* * *

بعد أسبوع من ذلك دخلت مادلين دي سارا مكتب السيد باركر باين وألقت بنفسها بسأم على أحد الكراسي.

قال السيد باركر باين مبتسماً: جاءت خاطفة الأزواج!

- خاطفة الأزواج؟!

ثم أطلقت ضحكة وقالت: إنني لم أصادف -أبداً- صعوبة في عملي كما صادفتُ هذه المرة. إن ذلك الرجل مهووس بزوجته!

قال السيد باين مبتسماً: نعم، بالفعل. ولكن هذا يجعل مهمتنا أسهل.

ضحكت الفتاة وقالت: لو تعرف الصعوبة التي لاقيتُها!

- حسناً، هل أنجزتِ مهمتك؟

- نعم، أظن أن كل شيء على ما يرام. لقد حدث مشهد رائع ليلة أمس. هل كان آخر تقرير لي قبل ثلاثة أيام؟

- نعم.

- حسناً، كما أخبرتك؛ لم يتطلب الأمر مني سوى نظرة واحدة إلى ذلك الحشرة التَعِسة سينكلير جوردان، فقد تعلق بي أيما تعلق... خاصة وأنه ظن من ملابسي أنني غنية. وقد جُنّ جنون السيدة ويد بالطبع، فها هما رَجُلاها يتقربان مني زاحفين. وسرعان ما أظهرتُ أين يكمن خياري، فسخرتُ من سينكلير وجهاً لوجه وأمامها، وضحكتُ من ملابسه ومن شعره الطويل، وأشرتُ إلى أنه مقوس الساقين عند ركبتيه...

قال السيد باركر باين: أسلوب رائع!

- وقد تفاقم الأمر كله الليلة الماضية. فقد خرجت السيدة ويد

عن صمتها واتهمتني بأنني أريد تحطيم بيتها، وأشار ريجي إلى قضية سينكلير فقالت إن علاقتها معه لم تكن إلاّ نتيجة لتعاستها ووحدتها وإنها قد لاحظت شرود زوجها منذ بعض الوقت ولكنها لم تعرف سبب ذلك، وقالت إنهما كانا دوماً سعيدين جداً وإنها تحبه وهو يعرف ذلك جيداً، وقالت إنها تريده هو، وهو فقط.

قلتُ لها إن الوقت قد فات على ذلك... وقد اتبع السيد ويد التعليمات بشكل رائع فقال إنه لا يهتم قيد شعرة، وإنه سيتزوجني! وإن بوسع زوجته أن تأخذ «سينكليرها» بأسرع ما تشاء، فلا يوجد سبب يدفع للتأجيل بإجراءات الطلاق، وقال إن انتظار ستة أشهر مسألة سخيفة. قال إنها ستحصل على الطلاق الذي تريده خلال بضعة أيام، وإن بوسعها أن تُخطر محاميها بذلك. قال إنه لا يستطيع العيش من دوني، وعندها أمسكت السيدة ويد بصدرها وتكلمت عن متاعب في القلب بحيث أعطوها مهدئاً... ولكن السيد ويد لم يضعف. وقد جاء إلى لندن هذا الصباح، ولا شك أنها جاءت خلفه.

قال السيد باركر باين بفرح: هذا جيد... قضية مُرضية جداً.

فُتح الباب فجأة ووقف في مدخله ريجي ويد، ثم قال وهو يدخل الغرفة: هل هي هنا؟ أين هي؟

ثم انتبه لوجود مادلين فاقترب منها هاتفاً: حبيبتي! لقد عرفتِ أن ما قلته ليلة أمس كان حقيقياً، أليس كذلك؟... وأنني عنيتُ كل كلمة قلتُها لإيريس؟ لا أدري لماذا كنتُ أعمى كل الوقت، ولكني أدركتُ ذلك في الأيام الثلاثة الماضية.

قالت مادلين بصوت ضعيف: ما الذي عرفته؟

- عرفت أنني أهيم بك حباً، وأنه لا توجد امرأة في هذا العالم أريدها زوجة سواك. ستحصل إيريس على طلاقها، وعندما ينتهي ذلك فستتزوجين بي، أليس كذلك؟ قولي إنك موافقة يا مادلين... إنني أحبك.

شلّت المفاجأة مادلين، فيما فُتح الباب ثانيةً لتدخل هذه المرة امرأة نحيلة ترتدي ثوباً أخضر غير مرتب. قالت القادمة الجديدة: لقد حسبتُ ذلك وتبعتُك... عرفت أنك ستذهب إليها!

أما السيد باركر باين، الذي صحا أخيراً من دهشته الشديدة، فقد بدأ يقول: بوسعي أن أؤكد لك...

ولكن المرأة لم تأبه لكلامه، وانطلقت تقول: آه، ريجي! لا يمكن أن تكون راغباً في تحطيم قلبي. عد إليّ فقط! لن أقول كلمة واحدة عن هذا الأمر، وسأتعلم الغولف، ولن أعرف أحداً سواك... بعد كل هذه السنين، حيث كنا في غاية السعادة معاً...

قال السيد ويد وهو مستمر بالتحديق في مادلين: إنني لم أجد سعادة أبداً إلاّ الآن. تباً يا إيريس! لقد أردتِ الزواج بذلك الحمار جوردان، فلماذا لا تمضين في ذلك وتتزوجينه؟

صاحت السيدة ويد قائلة: 'إنني أكرهه، إنني أكره رؤيته'. ثم التفتت إلى مادلين وقالت: أيتها المرأة الشريرة! تسرقين مني زوجي.

صاحت مادلين بغضب: لا أريد زوجك.

قال السيد ويد وهو يحدق إليها بألم: مادلين؟

- أرجوك أن ترحل عني.

- ولكن اسمعي، إنني لا أتظاهر، بل أعني ما أقول.

صاحت مادلين بهستيرية: آه، اذهب عني! اذهب عني!

تحرك ريجي يتردد نحو الباب وهو يقول محذراً: سوف أعود، لن تكون هذه آخر مرة ترينني فيها.

ثم خرج وصفق الباب خلفه، فيما صرخت السيدة ويد قائلة: إن الفتيات من أمثالك ينبغي أن يُجلدن! لقد كان ريجي دائماً ملاكاً معي إلى أن ظهرتِ أنت، وقد تغير الآن حتى لم أعد أعرفه.

ثم أسرعت خلف زوجها وهي تنتحب.

تبادل السيد باين ومادلين النظرات، ثم قالت مادلين بيأس: لم أستطع تمالك نفسي. إنه رجل لطيف جداً... ولكن لا يمكنني أن أحلم بالزواج به... لم تكن لدي أية فكرة عن هذا كله!

قال السيد باركر باين: يؤسفني الاعتراف بأن ذلك كان خطأ في الحكم من جانبي.

ثم هز رأسه بحزن، وسحب ملف السيد ويد إليه وكتب فيه:

فشل: لأسباب طبيعية.

ملاحظة: كان ينبغي التنبؤ بتلك الأسباب.

* * *

قضية موظف المدينة

اتكأ السيد باركر باين إلى مسند كرسيه الدوار وألقى نظرة مستعرضة على زائره. رأى أمامه رجلاً ضئيل الجسم رغم قوة بنيته، في نحو الخامسة والأربعين من عمره، ذا عينين كئيبتين حائرتين خانعتين تنظران إليه بشيء من الأمل المتلهف.

قال الرجل الضئيل بارتباك: لقد رأيتُ إعلانك في الصحيفة.

- أأنت واقع في مشكلة يا سيد روبرتس؟

- لا، لستُ في مشكلة بالضبط.

- هل تحس بالتعاسة؟

- ما كنتُ لأحب قول ذلك أيضاً، فعندي الكثير مما أحمد الله عليه.

- لدينا جميعاً الكثير مما نحمد الله عليه، ولكن عندما نُضطر لتذكير أنفسنا بهذه الحقيقة يكون ذلك مؤشراً سيئاً.

قال الرجل الضئيل بلهفة: أعرف... هذه هي القضية بالضبط! لقد أصبتَ كبد الموضوع يا سيدي.

- لماذا لا تخبرني كل شيء عن نفسك؟

- لا يوجد الكثير مما يمكن قوله في هذا الصدد؛ فأنا -كما قلت لك- لدي الكثير مما أحمد الله عليه. أولادي أقوياء أصحاء، ووظيفتي جيدة، وقد نجحتُ في توفير بعض المال.

- ما الذي تريده إذن؟

- إنني... إنني لا أعرف.

ثم احمر وجهه وأضاف: أحسب أن هذا يبدو لك سخيفاً يا سيدي.

- أبداً، أبداً.

استطاع السيد باين، بشيء من التحقيق المُحترف مع الرجل، أن يحصل على مزيد من الحقائق. فعرف عن عمل السيد روبرتس في شركة مشهورة، وتقدمه البطيء المطرد فيها. وعرف عن زواجه وكفاحه لتقديم صورة جيدة لعائلته... لتعليم الأطفال، وجعلهم في مظهر حسن، وعرف عن التخطيط والتدبير والتقتير وتوفير بضعة جنيهات كل عام. وفي الحقيقة فإنه سمع من الرجل تاريخاً لحياة من الجهود التي لا تتوقف للحفاظ على البقاء.

قال السيد روبرتس معترفاً: وهكذا ترى كيف هي الأمور... زوجتي مسافرة؛ مقيمة مع أهلها هي والطفلان، وهذا يشكل نوعاً من التغيير لهما، والراحة لها. لا يوجد مكان لي، ولا نستطيع دفع تكاليف الذهاب إلى مكان آخر. وبما أنني وحدي، وقد كنتُ أقرأ الصحيفة، فقد رأيتُ إعلانك، وقد جعلني ذلك أفكر. فأنا في الثامنة والأربعين، وقد تساءلتُ فقط... إن الأمور تجري في كل مكان.

أنهى كلامه بتلك العبارة وقد ظهرت في عينيه كلّ روحه المدينية الكئيبة.

قال السيد باين: أتريد أن تعيش بشكل مجيد لبعض الوقت؟

- ما كنتُ لأعبّر عن الأمر بهذه الصورة، ولكن ربما كنتَ على حق... حتى أخرج فقط عن نهج الحياة الرتيبة. وساعود إلى ذلك النهج ممتناً بعد ذلك... لو توفر لي فقط شيء أفكر به.

ثم نظر إلى الرجل الآخر بلهفة وقال: لا أظن أن بالإمكان القيام بشيء، أليس كذلك يا سيدي؟ أخشى... أخشى أنني لا أستطيع دفع الكثير.

- كم تستطيع أن تدفع؟

قال الرجل الضئيل: "يمكنني تدبّر أمر خمسة جنيهات"، ثم انتظر حابساً أنفاسه.

قال السيد باركر باين: "خمسة جنيهات؟ يخيل إليّ، مجرد خيال، أنه وبما أمكننا تدبر شيء مقابل خمسة جنيهات". ثم أضاف بحدة: هل تمانع في التعرض للخطر؟

احمرّ وجه السيد روبرتس الشاحب وقال: هل قلتَ الخطر؟ آه، لا؛ لا أمانع أبداً. إنني... إنني لم أُقدم أبداً على أي أمر خطير.

ابتسم السيد باركر باين وقال: تعال لرؤيتي -ثانيةً- يوم غد وسأقول لك ما يمكنني فعله لأجلك.

* * *

كان مقهى بون فوبجر مكاناً مغموراً، وهو مطعم لا يرتاده إلاّ القليل من الزبائن الذين يكرهون دخول غرباء جدد إليه. دخل السيد باركر باين إليه فاستُقبل باحترامِ شخصٍ معروف. وسأل: هل السيد بونيتغتن هنا؟

- نعم يا سيدي؛ إنه يجلس على طاولته المعتادة.

- حسناً، سأنضمّ إليه.

كان السيد بونيتغتن رجلاً عسكري الهيئة ذا وجه بليد بعض الشيء، وقد حيا صديقه بسرور قائلاً: مرحباً يا باركر. لم نعد نراك إلاّ لماماً في هذه الأيام. لم أكن أعرف أنك تأتي إلى هنا.

- أنا آتي من وقت لآخر، خاصة عندما أريد الإمساك بصديق قديم.

- أتعنيني أنا؟

- نعم؛ أعنيك أنت. والحقيقة -يا لوكاس- أنني كنتُ أقلّب النظر فيما كنا نتحدث به قبل أيام.

- بخصوص مسألة بيترفيلد؟... هل رأيت آخر الأخبار في الصحف؟ ولكن لا، لا يمكن ذلك؛ فلن تتناقل الصحف ذلك إلاّ هذا المساء.

- وما هي آخر الأخبار؟

قال السيد بونيتغتن بهدوء وهو يتناول السَلَطة: لقد قتلوا بيترفيلد الليلة الماضية.

صاح السيد باين: يا إلهي!

- آه، ولكن هذا لا يدهشني. لقد كان بيترفيلد عجوزاً عنيداً. لم يكن ليصغي إلينا، وقد أصر على إبقاء المخططات لديه تحديداً.

- وهل حصلوا عليها؟

- لا، يبدو أن امرأة ما قد جاءته وأعطت البروفسور وصفة معينة لطبخ اللحم، وقد عمد الحمار العجوز (وهو الشارد دوماً كعادته) إلى وضع وصفة طبخ اللحم في خزنته، ووضع المخططات في المطبخ.

- هذا حظٌّ حسن.

- بل هي العناية الإلهية. ولكن ما زلت أجهل من سيأخذها إلى جنيف؛ إذ أن ميتلاند في المستشفى، وكارسليك في برلين، وأنا لا أستطيع المغادرة. وهذا لا يُبقي إلاّ الشاب هوبر.

ثم نظر إلى صاحبه، فسأله السيد باركر باين: أما زلتَ على نفس الرأي؟

- بالتأكيد... لقد توصلوا إليه! أنا أعرف ذلك رغم أنني لا أملك عليه أي دليل، ولكنني أؤكد لك -يا باركر- أنني أميّز الرجل عندما ينحرف ويصبح غشاشاً! وأنا أريد لكل المخططات أن تصل إلى جنيف؛ فعصبة الأمم بحاجة إليها، وهذه هي المرة الأولى التي لا يباع فيها اختراع إلى دولة معينة، بل يتم تسليمه طوعياً إلى عصبة الأمم. إنها أروع التفاتة سلام تم القيام بها حتى الآن، ولا بد أن تصل إلى منتهاها. هوبر غشاش؛ وسوف ترى. ربما يتم تخديره

في القطار، وإذا ما سافر بالطائرة فستنزل الطائرة في مكان ملائم معين! إنني لا أستطيع إرساله، ولذلك تحدثتُ إليك قبل أيام.

- لقد سألتني إن كنتُ أعرف أحداً.

- نعم. ظننتُ أنك ربما كنت تعرف أحداً من خلال عملك، شخصاً جريئاً يبحث عن المتاعب بحثاً. فمَن أرسلُه معرض لاحتمال القتل. ولكن ربما كان رجل من طرفك بعيداً تماماً عن الشبهات، بشرط أن يكون شجاعاً.

- أظنني أعرف شخصاً مستعداً للقيام بذلك.

- الحمد لله على وجود رجال لا يزالون مستعدين للمجازفة. حسناً، لقد اتفقنا إذن؟

- لقد اتفقنا.

* * *

كان السيد باركر باين يلخص تعليماته: والآن، أهذا واضح تماماً؟ ستسافر إلى جنيف في مقصورة نوم في الدرجة الأولى في القطار. ستغادر لندن في الساعة الحادية عشرة إلاّ ربعاً في قطار يمر بفوكستون وبولون، وستدخل مقصورة نومك في بولون. وسوف تصل إلى جنيف في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، وها هو العنوان الذي ستذهب إليه. يرجى أن تحفظه غيباً لأنني سأتلفه. بعد ذلك تذهب إلى هذا الفندق وتنتظر هناك ورود مزيد من التعليمات. وها هي نقود كافية لك بالعملة الفرنسية والسويسرية. هل فهمت؟

- نعم يا سيدي.

كانت عينا السيد روبرتس تشتعلان بالانفعال، وسأل: اعذرني يا سيدي. ولكن هل يُسمح لي أن... أن أعرف شيئاً عن هذا الذي أحمله؟

ابتسم السيد باركر باين بمحبة وقال: إنك تحمل نصاً مُشفَّراً يكشف المخبأ السري لجواهر العائلة المالكة في روسيا. إنك تفهم -طبعاً- أن عملاء البلاشفة سيكونون متيقظين حريصين على اعتراضك، فإن كان من الضروري عليك أن تتحدث عن نفسك فإنني أنصحُ بأن تقولَ إنك قد ورثت بعض المال وتستمتع برحلة خارج البلاد.

* * *

رشف السيد روبرتس القهوة من فنجانه ونظر أمامه إلى بحيرة جنيف. كان سعيداً ولكنه كان يحس، في نفس الوقت، بخيبة أمل.

كان سعيداً لأنه في بلد أجنبي لأول مرة في حياته، وفوق ذلك فقد كان في فندق ما كان لينزل فيه ثانية أبداً، وما كان عليه أن يقلق لحظة واحدة بشأن المال! وقد كانت له غرفة ذات حمّام خاص، مع وجبات لذيذة وخدمة ممتازة. كل هذه الأشياء استمتع بها السيد روبرتس كثيراً.

وقد كان يشعر بخيبة الأمل لأنه لم يصادف -حتى الآن- ما يمكن تصنيفه في باب المغامرة... إذ لم يعترض طريقه لا بلاشفة متنكرون ولا روس غامضون، وقد كانت المحادثة الوحيدة التي

أجراها مع إنسان هي ذلك الحديث اللطيف مع تاجر فرنسي في القطار يتحدث الإنكليزية بطلاقة تامة. وكان قد أخفى الأوراق في بطانة حقيبته كما طُلب منه وأوصلها حسب ما اقتضته التعليمات، ولم تحدث هناك مخاطر ليتغلب عليها ولا مآزق نجا منها بأعجوبة. كان السيد روبرتس خائب الأمل.

وفي تلك اللحظة جاءه رجل طويل مُلتحٍ فتمتم قائلاً: "عفوك" وجلس قبالته على الطاولة الصغيرة وقال: اعذرني، ولكني أظن أنك تعرف أحد أصدقائي. ويبدأ اسمه بحرفي ب ب.

أحس السيد روبرت بمتعة شديدة. فها هو ذا أخيراً روسي غامض. قال له: صح... صحيح.

- إذن فأظن أننا متفاهمان.

نظر إليه السيد روبرتس متفحصاً. لقد كان هذا يشبه ما يجري -حقيقة- في مثل هذه الظروف. كان الغريب في نحو الخمسين من عمره، ذا مظهر مميز رغم أنه مظهر أجنبي. وكان يلبس نظارة ويضع شريطاً ملوناً صغيراً في جيب سترته.

قال الغريب: لقد نفذتَ مهمتك على أكمل وجه. هل أنت مستعد لتولي مهمة أخرى؟

- بالتأكيد. آه، نعم.

- حسناً. سوف تحجز مقصورة نوم في القطار المغادر من جنيف إلى باريس ليلة غد، وسوف تطلب السرير رقم تسعة.

- وإن كان محجوزاً؟

- سيكون شاغراً؛ سوف يتم تولي هذا الأمر.

كرر السيد روبرتس: السرير رقم تسعة. نعم، لقد حفظتُ ذلك.

- وخلال رحلتك سيأتي إليك شخص ويقول لك: "آسف يا سيدي، ولكني أظنك كنتَ مؤخراً في غراس؟"، وستجيب أنت على ذلك بقولك: "نعم، في الشهر الماضي"، وسيقول لك الشخص: "هل أنت مهتم بالعطور؟"، وستجيب أنت قائلاً: "نعم، فأنا أصنع زيوتاً مركبة من الياسمين". بعد ذلك ستضع نفسك كلياً تحت تصرف ذلك الشخص الذي تحدث معك. وبالمناسبة، هل أنت مُسلّح؟

قال روبرتس مرتعداً: لا، لا، لم أحسب أبداً... أي أنني...

- يمكن معالجة ذلك.

ثم نظر الرجل الملتحي حوله فلم يرَ أحداً بالقرب منهما، فدسّ في يد السيد روبرتس شيئاً صلباً يلتمع وقال وهو يبتسم: إنه سلاح صغير ولكنه يؤدي الغرض.

دس السيد روبرتس المسدس على مضض في جيبه، ولم يكن قد استعمل مسدساً أبداً من قبل، وانتابه شعور غير مريح بأن المسدس قد ينطلق في أية لحظة.

قاما بمراجعة كلمات السر ثانية، ثم نهض صديق روبرتس الجديد وقال: أتمنى لك حظاً سعيداً، وأرجو أن تخرج من الأمر سالماً. إنك رجل شجاع يا سيد روبرتس.

وعندما غادر الرجل قال السيد روبرتس لنفسه: "أنا شجاع حقاً؟ أنا واثق من أنني لا أريد أن أقتل، فلن يفيدني ذلك بشيء". وسرت في نفسه متعة غامضة.

ذهب إلى غرفته وتفحص السلاح. لم يكن متأكداً -بعد- من آلية عمله، ورجا أن لا تدفعه الظروف إلى استعماله. ثم خرج ليحجز مقعده.

غادر القطار جنيف في الساعة التاسعة والنصف، وقد وصل روبرتس إلى المحطة في الوقت المحدد، وأخذ موظف مقصورات النوم بطاقته وجواز سفره ووقف جانباً بينما قذف مساعد له بحقيبة السيد روبرتس إلى الرف. وقد كانت هناك حقائب أخرى: حقيبة من الجلد، وحقيبة أخرى من النوع الذي يُطوى.

قال الموظف: السرير رقم تسعة هو السرير الأسفل.

وفيما التفت روبرتس لمغادرة المقصورة اصطدم برجل ضخم كان يدخلها. تنحى الاثنان جانباً وهما يعتذران، روبرتس بالإنكليزية والرجل الآخر بالفرنسية. كان رجلاً ضخماً قوي البنية ذا رأس حليق تماماً ونظارة سميكة جداً بدت عيناه من ورائها وكأنهما تنظران بارتياب.

قال روبرتس لنفسه: "رجل بشع!". وقد أحس -على نحوٍ غامض- بشيء شرير في رفيق سفره هذا. أيمكن أن يكون قد طُلب منه أخذ السرير رقم تسعة بهدف مراقبة هذا الرجل؟ رأى أن هذا ممكن.

خرج إلى الممر ثانية. كانت أمامه عشر دقائق قبل أن ينطلق

القطار، ورأى أن يمشي ذهاباً وإياباً على رصيف المحطة. وفي منتصف طريقه في الممر تنحى جانباً ليسمح لسيدة بالمرور. كانت تدخل القطار لتوها والموظف يتقدمها والبطاقة في يده، وفيما هي تمر قرب روبرتس أسقطت حقيبتها اليدوية، فسارع السيد روبرتس لالتقاطها وإعادتها لها.

قالت: شكراً لك أيها السيد.

كانت تتكلم الإنكليزية، ولكن بلهجة أجنبية، وكان صوتها منخفضاً غني النبرة. وفيما كانت تستعد للمضي في طريقها ترددت قليلاً وتمتمت: عذراً يا سيدي، ولكني أظنك كنت في غراس مؤخراً؟

قفز قلب روبرتس انفعالاً؛ فسوف يضع نفسه تحت تصرف هذه المخلوقة الرائعة. كانت ترتدي معطف سفر من الفرو، وقبعة أنيقة، ولآلئ حول عنقها.

نطق روبرت بالجواب المطلوب: نعم، في الشهر الماضي.

- هل أنت مهتم بالعطور؟

- نعم، فأنا أصنع زيوتاً مركبة من الياسمين.

أحنت رأسها وعبرت تاركة وراءها مجرد همسة تقول: "في الممر حالما يتحرك القطار".

بدت الدقائق العشر التالية دهوراً بالنسبة لروبرتس. وأخيراً انطلق القطار، فمشى ببطء في الممر، فوجد السيدة التي ترتدي

معطف الفرو تعالج إحدى النوافذ فهُرع لمساعدتها.

قالت: "شكراً أيها السيد. قليل من الهواء قبل أن يطلبوا إغلاق كل شيء". ثم قالت بصوت منخفض سريع رقيق: بعد الحدود، وعندما ينام صاحبنا في المقصورة (وليس قبل ذلك) اذهب إلى مكان الغسيل، ومن خلاله إلى المقصورة التي تقع عند الطرف الآخر. هل فهمت؟

قال: "نعم"، ثم أنزل النافذة وقال بصوت أعلى: أهذا أفضل يا سيدتي؟

- شكراً جزيلاً.

عاد إلى مقصورته فوجد رفيق سفره متمدداً على السرير العلوي. وبدا واضحاً أن استعداداته لقضاء الليل كانت بسيطة تماماً، ولم تتعدَّ -في الحقيقة- نزع حذائه ومعطفه.

فكر روبرتس في ملابسه، فمن الواضح أنه لا يستطيع أن يغير ملابسه إن كان سيذهب إلى مقصورة سيدات. وجد نعلين خفيفين فاستبدلهما بحذائه ثم تمدد وأطفأ الضوء، وبعد بضع دقائق بدأ الرجل فوقه يشخر.

بعد الساعة العاشرة بقليل وصل القطار إلى الحدود، وفُتح باب المقصورة وطُرح سؤال روتيني: هل لدى السيدين ما يصرّحان به؟ ثم أُغلق الباب ثانية، وسرعان ما خرج القطار ببطء من بيلغارد.

عاد الرجل في السرير العلوي للشخير ثانية، وانتظر روبرتس

نحواً من عشرين دقيقة، ثم انزلق واقفاً وفتح باب غرفة المرافق الصحية. وعندما أصبح داخلها أقفل الباب خلفه ونظر إلى الباب المقابل في الجهة الأخرى. لم يكن ذلك الباب مقفلاً. وتردد قليلاً؛ أيتوجب عليه أن يقرع الباب؟

ربما كان من السخافة أن يقرعه، ولكنه لم يرتَح كثيراً للدخول دون قرع الباب. وأخيراً وجد حلاً وسطاً؛ فقد فتح الباب بهدوء بضعة سنتيمترات ثم انتظر، بل إنه جازف بسعلة خفيفة.

جاء الجواب سريعاً؛ فقد فُتح الباب، وأمسكت قبضة بذراعه وشدته إلى داخل الغرفة، ثم أغلقت الفتاة الباب وأقفلته خلفه.

حبس روبرت أنفاسه؛ إذ لم يسبق له أن تخيل نفسه وسط مغامرات من هذا النوع. رأى الفتاة واقفة أمامه وقد استندت إلى الباب المفضي إلى الممر وهي تلهث. وكان روبرتس قد قرأ كثيراً عن مخلوقات جميلة مذعورة محاصرة، ولكنه رأى الآن واحدة من تلك المخلوقات لأول مرة!

تمتمت الفتاة: الحمد لله.

تكلمت بصوت منخفض مستعجل، وكانت إنكليزيتها جيدة ولكن لكنتها كانت أجنبية تماماً. قالت: إنني سعيدة جداً بمجيئك. لقد خفتُ خوفاً شديداً؛ إن فاسيليفيتش على متن القطار. أتفهم ما يعنيه ذلك؟

لم يفهم روبرتس أبداً ما يعنيه ذلك، ولكنه أومأ برأسه بالإيجاب.

- لقد ظننتُ أنني تخلصتُ منه، ولكن كان عليّ أن لا أنخدع بذلك. ماذا سنفعل؟ إن فاسيليفيتش في المقصورة المجاورة لهذه المقصورة، ولا ينبغي أن يحصل على الجواهر مهما حصل.

قال روبرتس بتصميم: إنه لن يحصل على الجواهر.

- ماذا أفعل بها إذن؟

نظر روبرتس خلفها إلى الباب وقال: إن الباب مقفل.

ضحكت الفتاة وقالت: وما أهمية الأقفال عند فاسيليفيتش؟

تفاقم لدى روبرتس الشعور بأنه وسط واحدة من رواياته المفضلة. قال لها: شيء واحد فقط يمكن فعله؛ أعطني إياها.

نظرت إليه بارتياب وقالت: إنها تساوي ربع مليون.

احمرّ وجه روبرتس وقال: يمكنك أن تثقي بي.

ترددت الفتاة قليلاً، ثم قالت: نعم، سأثق بك.

ثم قامت بحركة سريعة، وبعد لحظة كانت تمد له يدها بزوج من الجوارب الشبكية المكوّرة. قالت لروبرتس المدهوش: خذها يا صديقي.

أخذها وفهم على الفور، فبدل أن تكون الجوارب خفيفة جداً كانت ثقيلة بشكل غير متوقع. قالت الفتاة: خذها إلى مقصورتك، ويمكنك أن تعطيني إياها في الصباح... إذا... إذا بقيتُ هنا.

تنحنح روبرتس وقال: 'اسمعي، بالنسبة لك، يجب... يجب

أن أبقى في حراستك'. واحمرّ وجهه وهو يحاول العثور على التصرف المناسب، ثم قال: "لا أعني هنا... سوف أبقى هناك". وأومأ برأسه إلى مقصورة المرافق الصحية وقال: وإن احتجتِ إليّ فناديني.

قالت الفتاة برقة: "شكراً لك يا صديقي"، وابتسمت له بامتنان فيما عاد هو إلى غرفة المرافق.

بعد نحو ساعتين من ذلك شعر -فجأة- بأنه سمع شيئاً. أصغى... فلم يسمع شيئاً. ربما كان مخطئاً، ومع ذلك فقد بدا له أنه سمع صوتاً خفيفاً من المقصورة المجاورة. فماذا لو...

فتح الباب بهدوء، فوجد المقصورة كما تركها، بوجود الضوء الصغير الأزرق في السقف. وقف هناك وعيناه تحدقان إلى العتمة حتى اعتادتا عليها. لم تكن الفتاة هناك!

أشعل ضوء المقصورة فوجدها فارغة، ثم استنشق فجأة بأنفه. كان في المقصورة أثر خفيف لرائحة، ولكنه ميّزها. وكانت رائحة الكلوروفورم التي تثير الدوار.

خرج من المقصورة (التي لاحظ أنها لم تعد مقفلة الآن) إلى الممر وأمعن النظر في جانبيه فوجده فارغاً. ثم تركزت عيناه على الباب المجاور لباب الفتاة. كانت قد قالت إن فاسيليفيتش يحتل المقصورة المجاورة لها. وجرب روبرتس قبضة الباب بحذر شديد فوجده مقفلاً من الداخل.

ماذا يفعل؟ أيطلب الدخول؟ ولكن من شأن الرجل أن يرفض، وقد لا تكون الفتاة هناك في نهاية الأمر! وإن كانت هناك فهل ستكون

ممتنة له على إثارة ضجة حول الموضوع قد يسمع بها القاصي والداني؟ لقد فهم أن السرية مسألة جوهرية في اللعبة التي يلعبونها.

تمشى الرجل الضئيل الحائر في الممر ببطء، ثم توقف عند آخر مقصورة. كان بابها مفتوحاً، وقد تمدد فيها موظف القطار نائماً، وفوقه كان قد علق معطفه الرسمي البني وقبعته الرسمية.

وبلحظة واحدة قرر روبرتس ما الذي سيفعله. وبعد دقيقة كان قد ارتدى المعطف والقبعة وأسرع عائداً في الممر، ثم توقف عند الباب المجاور لمقصورة الفتاة واستجمع كل عزيمته وقرع الباب بقوة.

وعندما لم يجبه أحد قرعه ثانية وقال بأفضل لهجة يستطيعها: سيدي.

فُتح الباب قليلاً وأطل منه رأس... وكان رأس امرئ أجنبي، حليق اللحية ذي شارب أسود. كان وجهاً غاضباً شريراً. قال الرجل بحدة: ما الأمر؟

قال روبرتس: "جواز سفرك يا سيدي". ثم تراجع قليلاً وأشار للرجل بالخروج.

تردد الآخر قليلاً ثم خرج إلى الممر، وكان روبرتس قد وضع حساباته على أساس هذا الخروج للرجل. لأنه إن كان يحتفظ بالفتاة في الداخل فمن الطبيعي أن لا يسمح للموظف بالدخول. وهكذا تصرف روبرتس بسرعة البرق فدفع الأجنبيّ جانباً بكل قوته (ولم يكن الرجل مستعداً لذلك، كما أن تأرجح القطار ساعد في الأمر) ثم دخل إلى المقصورة فأغلق بابها وأقفله.

كانت الفتاة ممددة عند طرف السرير وقد غطت فمها كمامةٌ ورُبط رسغاها معاً. حررها بسرعة فقالت ببطء: أشعر بضعف وإعياء شديدين. أظنه كان الكلوروفورم. هل حصل على الجواهر؟

ربت روبرتس على جيبه وقال: لا. ما الذي سنفعله الآن؟

جلست الفتاة، وكانت حواسها تستفيق فاستوعبت الزي الذي يلبسه وقالت: يا له من ذكاء منك! كيف فكرتَ في ذلك؟ لقد قال إنه سيقتلني إن لم أخبره عن مكان الجواهر، وقد كنتُ خائفة جداً... ثم أتيتَ أنت.

ثم ضحكت فجأة وأضافت: ولكننا كنا أذكى منه! لن يجرؤ على فعل شيء، بل إنه لا يستطيع حتى محاولة العودة إلى مقصورته. يجب أن نبقى هنا حتى الصباح. ربما غادر هو القطار في محطة ديجون، فالقطار يتوقف هناك بعد نحو نصف ساعة. سوف يرسل برقية إلى باريس، وسوف يتبعون أثرنا هناك. وفي غضون ذلك يُستحسن أن ترمي هذا المعطف والقبعة من النافذة؛ فقد يورطانك في متاعب كثيرة.

أطاعها روبرتس فيما قالت بتصميم: ينبغي أن لا ننام. يجب أن نبقى محترسين حتى الصباح.

وكانت ليلة حراسة غريبة مثيرة، وفي الساعة السادسة صباحاً فتح روبرتس الباب بحذر ونظر إلى الخارج فلم يرَ أحداً. انسلّت الفتاة بسرعة إلى مقصورتها ثم تبعها روبرتس، وكان من الواضح أن المقصورة قد تم تفتيشها. ثم عاد روبرتس إلى مقصورته عبر غرفة المرافق ليجد صاحبه ما يزال يشخر.

وصلا باريس في الساعة السابعة. وكان الموظف يشكو من فقدان معطفه وقبعته، ولم يكن قد انتبه بعد لفقدان أحد الركاب.

ثم بدأت واحدة من أمتع الملاحقات. فقد استقل روبرتس والفتاة سيارة أجرة بعد سيارة في شوارع باريس، ودخلا فنادق ومطاعم من أبوابها ليخرجا من أبواب خلفية أخرى، وفي النهاية تنهدت الفتاة وقالت: أشعر الآن بالثقة من أننا غير مُلاحقَين. لقد تخلصنا منهم.

تناولا طعام الإفطار ثم ركبا سيارة إلى مطار بورجيه، وبعد ثلاث ساعات كانا في مطار كرويدن في لندن (ولم يكن روبرتس قد ركب طائرة من قبل). وفي مطار كرويدن كان بانتظارهما رجل طويل يشبه قليلاً الرجل الذي التقاه روبرت في جنيف، وقد حيا الرجل الفتاة باحترام خاص، ثم قال: السيارة هنا يا سيدتي.

قالت الفتاة للرجل: "سيرافقنا هذا السيد يا بول"، ثم قالت لروبرتس: أقدّم لك الكونت بول ستيباني.

كانت السيارة سيارة ليموزين واسعة، وقد سارت بهما زهاء ساعة ثم دخلت حدائق بيت ريفي حتى توقفت أمام منزل ضخم مهيب أشبه بالقصر. وقد أخذ السيد روبرتس إلى غرفة فُرشت على شكل مكتب خاص، وهناك قام بتسليم زوج الجوارب الثمين، ثم تُرك وحيداً لبرهة سرعان ما عاد بعدها الكونت ستيباني وقال: سيد روبرتس، لك منا كل شكر وامتنان. لقد أثبتَّ أنك رجل شجاع واسع الحيلة.

ثم مدَّ يده بعلبة مزركشة حمراء وقال: اسمح لي أن أمنحك

وسام سينت ستانيسلاوس من الدرجة العاشرة مع رتبة الشرف.

فتح روبرتس العلبة وكأنه في حلم ونظر إلى الوسام المرصع بالجواهر، وكان الرجل العجوز مستمراً في كلامه: إن الدوقة أولغا تحب أن تشكرك بنفسها قبل أن تغادر.

أُخذ إلى غرفة جلوس كبيرة، وهناك وقفت رفيقة سفره وهي تبدو شديدة الجمال في ثوبها السابغ، ثم أشارت بيدها إشارة آمرة فتركهما الرجل الآخر. قالت الدوقة: "إنني مدينة لك بحياتي يا سيد روبرتس". ثم انحنت تجاهه وقالت: أنت رجل شجاع.

كان ما يزال في حلم عندما قال له أحدهم: "ستأخذك السيارة إلى حيث تريد"... وبعد ساعة من ذلك عادت السيارة إلى الدوقة أولغا، فصعدت إليها هي والرجل ذو اللحية البيضاء، وكان قد نزع لحيته بسبب الحر. وأنزلت السيارة الدوقة أولغا في بيت في منطقة ستريذام، وحين دخلت الفتاة البيت رفعت امرأةٌ كهلة بصرها عن مائدة الشاي وقالت: آه، عزيزتي ماغي؟ ها قد جئتِ أخيراً.

في القطار السريع الذي يربط جنيف وباريس كانت هذه الفتاةُ الدوقةَ أولغا، وفي مكتب السيد باركر باين كانت مادلين دي سارا، وفي البيت في منطقة ستريذام كانت ماغي سايرز، الابنة الرابعة لعائلة عاملة شريفة.

يا لسقوط العظماء!

* * *

كان السيد باركر باين يتغدى مع صديقه الذي قال: تهانينا،

لقد حمل صاحبك أمانته وأوصلها دون أي عائق. لا بد أن عصابة تورمالي قد جُنّ جنونها وهي تفكر أن مخططات ذلك المدفع قد ذهبت إلى عصبة الأمم. هل أخبرت صاحبك بما كان يحمله؟

- لا؛ فلقد رأيت أن من الأفضل أن... أن أضيف شيئاً قليلاً من «البهارة».

- إنه تكتم شديد منك.

- لم يكن تكتماً بالضبط. لقد أردت له أن يستمتع؛ تخيلتُ أنه قد يجد مسألة المدفع مملة قليلاً، وأردت له أن يغامر قليلاً.

قال السيد بونينغتن وهو يحدق إلى صاحبه: مملة؟ لقد كان من شأن تلك الجماعة أن تقتله بمجرد رؤيته.

- نعم، ولكنني لم أُرِدْ له أن يُقتَل.

- هل تربح الكثير من المال في عملك يا باركر؟

- أحياناً أخسر المال... إن كانت القضية تستحق ذلك.

* * *

كان ثلاثة رجال يتلاومون في باريس. قال أحدهم: لقد خذلَنا ذلك الشقي هوبر!

قال الآخر: إن المخططات لم يأخذها أحد من أفراد المكتب، ولكنها وصلت يوم الأربعاء. أنا واثق من ذلك؛ ولذلك فإنني أقول إنك أنت الذي أفسد الأمر.

قال الثالث بنكد: أنا لم أفسده. لم يكن على متن القطار أي إنكليزي باستثناء موظف صغير، وهذا الموظف لم يسمع أبداً بالمدفع أو بيترفيلد. أنا واثق من ذلك؛ فقد اختبرته، ولم يكن بيترفيلد أو المدفع يعني له شيئاً.

ثم ضحك بعمق وقال: لقد كانت عنده عقدة البلاشفة على نحو ما.

* * *

كان السيد روبرتس يجلس أمام الموقد، وعلى ركبته رسالة من السيد باركر باين، وكان في الرسالة شيك بخمسين جنيهاً «من أناس معنيين سرتهم الطريقة التي نُفذت بها المهمة».

وعلى ذراع كرسيه كانت الرواية التي يقرؤها. فتحها السيد روبرتس لا على التعيين وقرأ: "وتراجعت عند الباب كمخلوقة جميلة محاصرة خائفة"... إنه يعرف تماماً ماذا يعني ذلك. ثم قرأ جملة أخرى: "تنشق الهواء، فتسلل إلى أنفه أثر خفيف من رائحة الكلوروفورم التي تبعث الدوار"... وهذا أيضاً ما يعرف معناه تماماً.

تنهد السيد روبرتس. لم يكن ذلك حلماً؛ فقد حدث كله بالفعل. لقد كانت رحلة الذهاب مملة تماماً، أما رحلة العودة فقد استمتع بها! ولكنه كان سعيداً إذ عاد إلى بيته ثانية. شعر -على نحو غامض- بأن الحياة لا يمكن أن تُعاش بشكل دائم على تلك الوتيرة.

ستعود ماري والأطفال إلى البيت غداً. وابتسم السيد روبرتس بفرح حين تخيلها وهي تقول: "لقد قضينا إجازة رائعة. لقد كرهت

التفكير بك وأنت تعيش وحيداً هنا يا عزيزي المسكين". وسيقول هو: "لا بأس بذلك يا فتاتي، لقد اضطررتُ للذهاب إلى جنيف لأداء عمل للشركة... بعض المفاوضات الحساسة... وانظري ماذا أرسلوا لي"! وسوف يريها شيك الجنيهات الخمسين.

ثم فكر بوسام سينت ستانيسلاوس من الدرجة العاشرة مع مرتبة الشرف. لقد خبأه، ولكن ماذا لو عثرت ماري عليه! سيتطلب ذلك الكثير من التفسير. ولكن، ما الذي يهم؟ سيقول لها إنه اشتراه من الخارج على سبيل الذكرى.

فتح كتابه ثانية وقرأ بسعادة. لم يعد على وجهه تعبير كآبة... فهو أيضاً أصبح من تلك الفئة المجيدة التي تحدث لها الأمور.



قُدّم اسم السيدة أبتر رايمر إلى السيد باركر باين، وقد عرف الاسم ورفع حاجبيه. وسرعان ما أُدخلت زبونته إلى الغرفة.

كانت السيدة رايمر امرأة طويلة القامة غليظة العظام ذات جسم فظيع، ولم يفلح في إخفاء هذه الحقيقة ثوبها المخملي ولا معطف الفرو الذي ترتديه. كانت سلاميات كفها بارزة، وكان وجهها ضخماً عريضاً شديد السمرة، ولكن شعرها الأسود كان مصففاً حسب الموضة، وفي قبعتها الكثير من ريش النعام.

ألقت بنفسها على كرسي وهي تومئ برأسها قائلة: "صباح الخير". كان في صوتها نبرة خشنة، وأضافت تقول: إن كنتَ بارعاً حقاً في عملك فأخبرني كيف أصرف أموالي!

تمتم السيد باركر: سؤال فريد مبتكر. قليلون هم مَن يطلبون مني ذلك في هذه الأيام. إذن فأنت تجدين حقاً صعوبة في ذلك يا سيدة رايمر؟

قالت السيدة بأسلوب فج: نعم. إن لديّ ثلاثة معاطف فراء، والكثير من الملابس الباريسية وغيرها، ولديّ سيارة، وبيت في بارك لين، ولدي يخت، ولكنني لا أحب البحر. ولدي الكثير من أولئك الخدم الذين يعملون لدى الطبقات الراقية، ممن ينظرون إليك

شزراً. وقد سافرتُ قليلاً ورأيتُ بلداناً عديدة. ولا أجد ما أفعله أو أشتريه غير ذلك.

ثم نظرت بأمل إلى السيد باركر باين، فقال: ماذا عن التبرع للمستشفيات؟

- ماذا؟ أتعني أن أوزع مالي؟ كلا، هذا ما لن أفعله! دعني أؤكد لك أن هذا المال قد جاء بالعمل... وبالعمل الشاق أيضاً. فإن كنتَ تظن أنني سأعطيه هكذا بكل سهولة فأنت مخطئ تماماً. إنني أريد صرفه... صرفه والاستفادة منه بشكل ما. فإذا كانت لديك أية أفكار قيمة في هذا الإطار أمكن لك أن تتوقع أجراً مجزياً.

- إن عرضك يثير اهتمامي. أنت لم تشيري إلى امتلاكك أي بيت ريفي.

- نسيتُ الإشارة إليه، ولكنني أمتلك واحداً، وقد قتلني مللاً.

- ينبغي أن تخبريني بالمزيد عن نفسك؛ فمشكلتك ليست سهلة الحل.

- سأخبرك بكل استعداد؛ فأنا لست خجلة من أصلي. لقد عملتُ في بيت في إحدى المزارع عندما كنتُ فتاة، وكان عملاً شاقاً أيضاً. ثم بدأتُ الاهتمام بأبنر. وكان عاملاً في مطحنة قريبة، وقد بقي يطلب ودي ثمانية أعوام، ثم تزوجنا.

- وهل كنتِ سعيدة؟

- نعم. فقد كان أبنر رجلاً طيباً معي، وقد جاهدنا معاً أشد

الجهاد، إذ فقد عمله مرتين، وكان الأطفال يأتون تباعاً. أنجبنا أربعة أطفال، ثلاثة صبيان وبنتاً. ولكن أياً منهم لم يعش ليكبر، وأظن أن الأمر كان سيختلف لو أنهم عاشوا.

رقّ وجهها وبدت فجأة أصغر عمراً، ثم أكملت قائلة: كان صدر أبنر ضعيفاً، وقد امتنعوا عن أخذه إلى الحرب، ولكنه أبلى بلاءً حسناً هنا في الوطن. فقد جعلوه مشرفاً على العمال، وكان رجلاً ذكياً، فابتكر عملية جديدة في الإنتاج. وعليّ القول إنهم عاملوه بشكل منصف؛ فقد أعطوه مبلغاً جيداً مقابل ابتكاره. وقد استعمل ذلك المبلغ لتطوير فكرة أخرى من أفكاره، وقد جلب ذلك المالَ من كل حدب وصوب... وما زال المال يأتي. ولقد كان الأمر في البداية ممتعاً جداً. بعد أن امتلكنا منزلاً وخدماً خاصين... ولم تعد بالمرء حاجة لإتعاب نفسه بالطبخ والتنظيف والغسيل. كنتُ أكتفي بالجلوس على وسائد الحرير وأقرع الجرس لطلب الشاي... كما تفعل أية كونتيسة! كان ذلك ممتعاً جداً، وقد تمتعنا به. وبعد ذلك جئنا إلى لندن، وذهبتُ إلى أفضل الخياطين لتفصيل ملابسي. وذهبنا إلى باريس والريفيرا... كانت متعة كبرى.

- وبعد ذلك؟

- أظن أننا اعتدنا ذلك. فبعد فترة لم يعد الأمر يبدو ممتعاً، بل لقد مرت أيام لم نعد نشتهي فيه الطعام بشكل جيد... نحن الذين كان بوسعنا أن نختار ما يحلو لنا من طعام! وبدأت صحة أبنر تقلقه فدفعنا للأطباء مبالغ كبيرة، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شيء. حاولوا مختلف الطرق والأساليب والأدوية، ولكن دون فائدة. ومات أبنر.

توقفت قليلاً وقالت: كان شاباً، لا يعدو الثالثة والأربعين.

أومأ السيد باين برأسه متعاطفاً، وأكملت هي تقول: كان ذلك منذ خمس سنوات. والمال ما يزال يتدفق، ويبدو من المؤسف أن لا يستطيع المرء فعل شيء به. ولكن كما أخبرتك، فإنني لا أستطيع التفكير بشيء لم أحصل عليه أساساً.

- أي أن حياتك مملة، وأنت لا تستمتعين بها.

قالت السيدة رايمر بتجهم: لقد سئمتها. ليس لدي أصدقاء، ومعارفي الجدد لا يريدون إلاّ تبرعات، وهم يضحكون مني وراء ظهري. وأصدقائي القدامى لا يريدون أية علاقة معي؛ فهم يخجلون من ظهوري في سيارة فاخرة. هل تستطيع فعل شيء أو اقتراح شيء؟

- ربما كان ذلك ممكناً. سيكون الأمر صعباً، ولكنني أظن أن لدينا فرصة للنجاح. أظن أن من الممكن أن أعيد لك ما فقدته... أي اهتمامك بالحياة.

سألت السيدة رايمر باقتضاب: كيف؟

- هذا سري المهني، وأنا لا أكشف وسائلي مُسبقاً. السؤال هو: هل ستُقبلين على التجربة؟ إنني لا أضمن النجاح، ولكنني أظن -فعلاً- أن الفرصة لا بأس بها للنجاح. ولكن عليّ أن أتبع أساليب غير اعتيادية، ولذلك فسيكون الأمر مُكلفاً، وستكون أجوري ألف جنيه تُدفع مقدماً.

قالت السيدة رايمر باستحسان: أنت جريء في طلب أجور

عالية، أليس كذلك؟ حسناً، سأجازف بهذا. إنني معتادة على دفع أعلى الأسعار، إلاّ أنني عندما أدفع ثمناً لشيء فإنني أحرص كثيراً على نيله.

- ستنالين ما تحبين؛ لا تخافي.

نهضت السيدة رايمر قائلة: سأرسل لك الشيك هذا المساء. لا أعرف لماذا عساي أثق بك... يُقال إن الأحمق وماله سرعان ما يفترقان، وأظنني حمقاء! لا بد أنك تتمتع بالشجاعة حتى تُعلن في كل الصحف أن بوسعك إسعاد الناس!

- إن هذه الإعلانات تكلفني مالاً، وإن لم أستطع أن أكون عند كلامي فإن ذلك المال سيذهب سُدى. إنني أعرف أسباب التعاسة، ونتيجة لذلك فإن لدي فكرة واضحة عن كيفية إحداث الظرف المغاير لها.

هزت السيدة رايمر رأسها بارتياب وغادرت، تاركةً خلفها سحابة من العطور الثمينة المخلوطة.

دخل كلود لوترل الوسيم إلى المكتب وقال: أهو عمل يدخل في دائرة اختصاصي؟

هز السيد باين رأسه وقال: ليس الأمر بهذه السهولة. لا، هذه القضية صعبة، وأخشى أن يكون علينا الإقدام على بعض المجازفات التي ينبغي أن نجرب فيها ما هو غير تقليدي.

- السيدة أوليفر؟

ابتسم السيد باين لذكر الرواية المشهورة عالمياً وقال: السيدة أوليفر أكثر تقليدية منا جميعاً. إنني أفكر بعملية جريئة! وبالمناسبة، بوسعك أن تتصل لي بالدكتور أنتروباس.

- أنتروباس؟

- نعم. فستكون بنا حاجة لخدماته.

* * *

بعد أسبوع من ذلك دخلت السيدة رايمر مكتب السيد باركر باين من جديد، فنهض لتحيتها قائلاً: أؤكد لك أن هذا التأخير كان ضرورياً؛ فقد تعيّن ترتيب الكثير من الأمور، واضطررتُ لتأمين خدمات رجل غير عادي اضطر لقطع نصف أوروبا ليأتي إلى هنا.

تأوهت بارتياب؛ فقد كانت في ذهنها -بشكل دائم- حقيقة أنها دفعت شيكاً بمبلغ ألف جنيه، وأن ذلك الشيك قد صُرف.

ضغط السيد باركر باين جرساً، فأجابته فتاة سمراء شرقية السمت ترتدي زي الممرضات. قال لها: أكلّ شيء جاهز أيتها الممرضة دي سارا؟

- نعم؛ إن الدكتور كونستين ينتظر.

سألت السيدة رايمر بشيء من عدم الارتياح: ماذا ستفعل؟

- سأُعرّفك على شيء من السحر الشرقي يا سيدتي العزيزة.

تبعت السيدة رايمر الممرضة صعوداً إلى الطابق العلوي، حيث تم اصطحابها إلى غرفة لا علاقة لها بباقي غرف البيت؛ فقد غطّتْ

جدرانَها المُطرزاتُ الشرقية، وكان فيها عدد من الأرائك والوسائد الناعمة والسجاد الجميل على الأرض. وكان هناك رجل ينكب على مغلاة قهوة. اعتدل الرجل عند دخولها، وقالت الممرضة: الدكتور كونستين.

كان الدكتور يرتدي ملابس أوروبية، ولكن وجهه كان شديد السُمرة، كما كانت عيناه سوداوين غامضتين وفي نظرتهما قوة نفّاذة غريبة.

قال بصوت منخفض مهتز: هذه هي مريضتي إذن؟

قالت السيدة رايمر: أنا لست مريضة.

- جسدك ليس مريضاً، ولكن روحك سَئِمة. ونحن -في الشرق- نعرف كيف نشفي هذا المرض. اجلسي واشربي فنجاناً من القهوة.

جلست السيدة رايمر وتقبلت فنجاناً صغيراً من القهوة الثقيلة ذات النكهة القوية، وفيما كانت ترتشفه تحدث الدكتور: هنا في الغرب يعالجون الجسد فقط. وهذا خطأ؛ فالجسم لا يعدو أن يكون آلة موسيقية يُعزَف عليها لحن. وربما كان ذلك اللحن حزيناً سَئِماً، وربما كان لحناً فرحاً مليئاً بالبهجة. وهذا الأخير هو ما سنعطيك إياه. إن لديك مالاً، وسوف تصرفينه وتتمتعين. وسوف تكون الحياة جديرة بالعيش من جديد. إنه أمر سهل... سهل... سهل جداً...

زحف على السيدة رايمر إحساس بالارتخاء، وغدا جسم الطبيب والممرضة غائماً بالنسبة لها. شعرت بسعادة عميقة ونعاس،

ثم غدا جسم الدكتور أكبر. كان العالم كله يغدو أكبر.

كان الدكتور ينظر في عينيها ويقول: نامي، نامي. إن جفنيك ينغلقان... وستنامين حالاً. ستنامين... ستنامين.

أغلقت السيدة رايمر جفنيها وغابت في عالم واسع رائع.

* * *

عندما فتحت عينيها بدا لها أن وقتاً طويلاً قد انقضى. تذكرت عدة أشياء على نحو غامض... أحلاماً غريبة، ثم شعوراً باليقظة، ثم مزيداً من الأحلام. تذكرت شيئاً عن سيارة والفتاة الجميلة السمراء في ثياب الممرضة تنحني فوقها.

وعلى أية حال فقد كانت مستيقظة تماماً الآن، وهي في سريرها الخاص.

ولكن، أكان ذلك سريرها حقاً؟ إنها تحس به مختلفاً... إنه يفتقر إلى النعومة اللذيذة لسريرها الخاص. كان يذكّرها -على نحو غامض- بأيام كادت تُنسى. تحركت فأصدر السرير صريراً. لم يكن سرير السيدة رايمر في بارك لين يصرّ أبداً.

نظرت حولها. من المؤكد أن هذا ليس بيتها في بارك لين. أكان مستشفى؟ رأت أنه لم يكن مستشفى، كما أنه ليس فندقاً. كانت غرفة خالية من الأثاث، جدرانها ذات لون ليلكي باهت، وكانت فيها مغسلة عليها إبريق. كما كان هناك صندوق من خشب الصنوبر ذو أدراج، وصندوق معدني، بالإضافة إلى العديد من الثياب غير

المألوفة معلقة على أوتاد في الحائط، وأخيراً هذا السرير المغطى بلحاف كثير الرقع، وكانت هي تنام فيه.

قالت السيدة رايمر: أين أنا؟

فُتح الباب ودخلت امرأة قصيرة سمينة. كانت ذات خدين متوردين وشكل يوحي بالمرح وحب المزاح، وقد رفعت أكمامها وارتدت صدرية الخدم. هتفت المرأة: تعال! لقد استيقظتْ، ادخل يا دكتور.

فتحت السيدة رايمر فمها لتقول عدة أشياء... ولكن تلك الأشياء بقيت دون أن تُقال، ذلك أن الرجل الذي لحق بالمرأة السمينة إلى الغرفة لم يكن يشبه في شيء الدكتور كونستين المهيب الأسمر. كان هذا الرجل عجوزاً محدودب الظهر ينظر من خلال نظارات سميكة.

قال وهو يقترب من السرير ويأخذ رسغ السيدة رايمر بيده: هذا أفضل، ستكونين الآن أفضل حالاً يا عزيزتي.

سألت السيدة رايمر: ما الذي أصابني؟

- لقد أصابك نوع من السكتة، وقد غبتِ عن الوعي يوماً أو يومين. ولكن ليس لديك ما يُقلق.

قالت المرأة السمينة: لقد أفزعتنا يا حنة... وقد كنتِ تهذين أيضاً، وتقولين أغرب الأمور.

قال الطبيب مؤنباً: نعم، نعم يا سيدة غاردنر، ولكن ينبغي أن

لا تثير المريضة. سرعان ما ستقومين وأنت بأفضل صحة يا عزيزتي.

قالت السيدة غاردنر: ولكن، لا تقلقي على العمل يا حنة؛ لقد جاءت السيدة روبرتس لمساعدتي، وقد عملنا كل ما يجب عمله. ابقي فقط في سريرك وتحسّني يا عزيزتي.

قالت السيدة رايمر: لماذا تسمينني حنة؟

قالت السيدة غاردنر وقد فوجئت: لأنه اسمك!

- كلا، إنه ليس اسمي؛ فاسمي هو إميليا. إميليا رايمر، زوجة أبتر رايمر.

تبادل الطبيب والسيدة غاردنر النظرات، ثم قالت الأخيرة: "حسناً، ولكن تمددي فقط". وأضاف الطبيب: نعم، نعم، لا تقلقي.

ثم انسحبا فيما تمددت السيدة رايمر وهي حائرة تفكر. لماذا أسمياها حنة، ولماذا تبادلا نظرة عدم التصديق الغريبة تلك عندما أعطتهما اسمها؟ أين هي وما الذي حدث؟

تسللت من السرير. وقد شعرت بشيء من الضعف في ساقيها، ولكنها مشت ببطء إلى النافذة الصغيرة النافرة عن السطح المنحدر المائل، ثم نظرت منها... إلى ساحة مزرعة! عادت إلى السرير وهي شديدة الحيرة. ما الذي تفعله في بيت تابع لمزرعة لم تره أبداً من قبل؟

عادت السيدة غاردنر فدخلت الغرفة حاملة طاسة من الحساء على صينية.

بدأت السيدة رايمر أسئلتها: ما الذي أفعله في هذا البيت؟ من الذي أتى بي إلى هنا؟

- لم يأتِ بك أحد يا عزيزتي. إنه بيتك، وقد عشتِ فيه خلال السنوات الخمس الماضية... دون أن أشكّ مرة واحدة بأنك تتعرضين لهذه النوبات.

- عشتُ هنا! خمس سنوات؟

- نعم. لا أحسبك تقصدين أنك ما زلت لا تذكرين يا حنة؟

- أنا لم أعش هنا أبداً! إنني لم أرك أبداً من قبل.

- أرأيت، لقد تعرضتِ لهذا المرض ونسيت.

- إنني لم أعش هنا أبداً.

- ولكنك عشتِ يا عزيزتي.

وفجأة اندفعت السيدة غاردنر إلى صندوق الأدراج وأحضرت للسيدة رايمر صورة باهتة مؤطرة.

كان في الصورة مجموعة من أربعة أشخاص: رجل ذو لحية، وامرأة سمينة (هي السيدة غاردنر)، ورجل طويل نحيل ذو ابتسامة خنوعة مريحة، وامرأة في ثوب مُشجّر وصدرية خدم... وهذه الأخيرة هي نفسُها!

حدقت السيدة رايمر إلى الصورة وقد ذهلت. وضعت السيدة غاردنر الشُربة بقربها وغادرت الغرفة بهدوء.

احتست السيدة رايمر الشُربة بصورة آلية، وكانت لذيذة ثقيلة

ساخنة. وكان عقلها طوال الوقت في دوامة؛ مَن الذي كان مجنوناً؟ السيدة غاردنر أم هي؟ لا بد أن أحدهما مجنون! ولكن كان هناك الطبيب أيضاً.

قالت لنفسها بثبات: أنا إميليا رايمر. أعرف أنني إميليا رايمر ولن يقنعني أحد بغير ذلك.

كانت قد أنهت حساءها وأعادت الطاسة إلى الصينية. جذبت انتباهها صحيفة مطوية فأخذتها ونظرت إلى تاريخها. ١٩ تشرين الأول (أكتوبر). في أي يوم ذهبت إلى مكتب السيد باركر باين؟ إما يوم الخامس عشر أو السادس عشر. لا بد أنها مريضة -إذن- منذ ثلاثة أيام. قالت بغضب: يا لذلك الطبيب المخادع!

ومع هذا فقد أحست بقليل من الارتياح. لقد سمعت بحالات نسي الناس فيها هويتهم لسنوات عديدة، وكانت خائفة من أن يكون شيء من هذا القبيل قد حدث لها.

بدأت تُقلّب صفحات الصحيفة، وتستعرض أعمدتها من دون مبالاة فجذبت نظرها -فجأة- فقرة معينة:

تم أمس نقل السيدة أبنر رايمر، أرملة أبنر رايمر، إلى مصحة خاصة للأمراض العقلية. وكانت قد أصرت خلال اليومين الماضيين على القول إنها ليست نفسها، بل هي خادمة تُدعى حنة مورهاوس.

قالت السيدة رايمر: حنة مورهاوس! هذه هي القضية إذن؛ هي أنا وأنا هي، كنوع من القرينة كما أظن! حسناً، بوسعنا تسوية ذلك

حالاً! إن كان ذلك المداهن باركر باين ينوي القيام بلعبة ما...

ولكن في هذه اللحظة وقعت عينها على صورة كونستين وهو يحدق إليها من الصحيفة. وقرأت عنواناً بارزاً هذه المرة:

زعم الدكتور كونستين

في محاضرة وداعية ألقيت ليلة أمس عشية مغادرته إلى اليابان، عرض الدكتور كلاوديوس كونستين بعض النظريات المدهشة؛ فقد صرح أن من الممكن نقل الروح من جسد إلى آخر. وهو يزعم أنه -خلال تجاربه في الشرق- قد نجح في إجراء نقل مزدوج، حيث تم نقل روح الجسد «أ» المنوّم مغنطيسياً إلى الجسد المنوّم «ب»، ونقل روح الجسد «ب» إلى الجسد «أ». وعندما زال أثر التنويم المغناطيسي أعلنت «أ» أنها «ب»، كما ظنت «ب» أنها «أ». وبغية نجاح التجربة، كان من الضروري العثور على شخصين متشابهين كثيراً من الناحية الجسدية. وكان أحد المظاهر التي لا شك فيها أن وجود شخصين متشابهين تماماً يعني وجود انسجام بينهما. وقد لوحظ ذلك كثيراً في حالة التوائم، ولكن تبين أن شخصين غريبين بعضهما عن بعض تماماً ولكل منهما منزلة اجتماعية مختلفة يمكن أن يُظهرا نفس الانسجام إن كان لديهما تشابه ملحوظ في القسمات والملامح.

رمت السيدة رايمر الصحيفة من يدها وصاحت: يا للوغد، يا للوغد الشقي!

فهمت الأمر كله الآن! لقد كانت مؤامرة خسيسة للحصول على أموالها. وقد كانت حنة مورهاوس هذه أداةً بيد باركر باين... وربما كانت أداة بريئة. لقد قام هو وذلك الدكتور كونستين بتنفيذ هذا الفصل العجيب.

ولكنها ستفضحه، وستكشف أمره، وستستعدي عليه القانون! ستُخبر الجميع...

توقفت السيدة رايمر -فجأة- في أوجِ سُخطها حين تذكرت الفقرة الأولى؛ إذ أن حنة مورهاوس لم تكن أداة سهلة القياد. لقد احتجّت وأعلنت هويتها، وما الذي حدث؟ قالت السيدة رايمر: لقد أُلقيت المسكينة في مصحة للأمراض العقلية.

سرت رعدة في جسمها. مصحةُ أمراضٍ عقلية. لقد أدخلوكِ هناك ولن يدعوكِ تخرجين أبداً، وكلما قلتِ إنكِ عاقلة كُلما قل تصديقهم لك. هناك أنت وهناك ستبقين. كلا، لن تُجازف السيدة رايمر بذلك!

ثم فُتح الباب ودخلت السيدة غاردنر وقالت: آه، لقد تناولتِ حساءك يا عزيزتي. هذا جيد. ستكونين أحسنَ حالاً الآن.

- أكنتُ مريضة إذن؟

- دعيني أتذكر. لقد كان ذلك قبل ثلاثة أيام... يوم الأربعاء. كان ذلك هو الخامس عشر من الشهر. ساءت حالتك في نحو الساعة الرابعة.

صاحت السيدة رايمر: "آه!"، وكانت صيحتها مليئة بالمعاني.

ذلك أن تلك الساعة هي نفسها -تقريباً- الساعة التي دخلت فيها على الدكتور كونستين.

قالت السيدة غاردنر: لقد تراخيتِ في كرسيكِ وقلتِ "آه!"، ثم قلتِ بصوت حالم: "إنني أنام، إنني أنام..."، ثم نمتِ بالفعل، فحملناك إلى السرير واستدعينا الطبيب، وبقيت منذ ذلك الحين هنا على هذا الوضع.

جازفت السيدة رايمر قائلة: أحسب أنه ما من طريقة تعرفين من خلالها من أنا... أعني باستثناء وجهي.

- غريب أن تقولي ذلك. وهل يوجد أفضل من وجه المرء وسيلةً لمعرفته؟ ومع ذلك فلديك تلك العلامةُ منذ الولادة إن كان الوجه وحده لا يُقنعك.

قالت السيدة رايمر وقد تهلل وجهها: «العلامة؟»، (إذ لم تكن في جسمها مثلُ هذه العلامات).

- بُقعةٌ مُحمرّةٌ تحت مرفقك الأيسر تماماً. انظري إليها بنفسك يا عزيزتي.

قالت السيدة رايمر لنفسها: "هذا سيثبتُ الأمر"... فقد كانت تعرف أنها لا تملك علامة حمراء تحت مرفقها الأيسر. رفعت كُمّ ثوب النوم عن يدها، وكانت العلامة الحمراء هناك!

وانفجرت السيدة رايمر تبكي.

* * *

بعد أربعة أيام نهضت السيدة رايمر من فراشها. كانت قد فكرت بعدة خُطط للعمل، ورفضتها.

يمكنها أن تري السيدة غاردنر المقال الموجود في الصحيفة وتشرح لها الأمر. هل سيصدّقونها؟ كانت السيدة رايمر واثقة أنهم لن يصدقوها.

يمكنُها أن تلجأ إلى الشرطة. ولكن هل سيصدّقونها؟ ومرة أخرى رأت أنهم لن يصدقوها.

يمكنها أن تذهب إلى مكتب السيد باركر باين. وقد سرّتها تلك الفكرة بالتأكيد أكثر مما عداها، وذلك لسبب واحد، وهو أنها أرادت أن توسع ذلك الشقيّ سباً وشتماً. ولكن عقبة كُبرى منعتها من تنفيذ هذه الخطة؛ فهي الآن في كورنوول (هذا ما سمعَتْهُ)، وليس لديها من المال ما تذهب به إلى لندن؛ لم يكن وضعُها المالي ليتجاوز شلنين وأربعة بنسات في محفظة نقود قديمة مهترئة.

وهكذا، وبعد أربعة أيام، اتخذت السيدة رايمر قراراً يتسم بالمسايرة. فهي ستقبل الأمور كما هي في الوقت الحاضر! حنة مورهاوس؟ حسناً، ستكون حنة مورهاوس. ستقبل مؤقتاً هذا الدور، ولاحقاً، عندما تدخر ما يكفي من المال، ستذهب إلى لندن لتتحدى المُحتال في عُقر داره.

وبما أنها قررت ذلك فقد تقبلت دورها بنفسية جيدة تماماً، بل حتى بسرور ساخر مرير. كان التاريخ يعيد نفسهُ في الواقع. لقد ذكّرتها هذه الأيام بأيام صباها. لكَم بدا ذلك بعيداً!

* * *

كان العمل صعباً قليلاً بعد تلك السنوات من العيش الهنيء، ولكنها وجدت نفسها تعتاد على نظام العمل في المزرعة بعد الأسبوع الأول.

كانت السيدة غاردنر امرأة لطيفة طيبة المزاج، وكان زوجها الضخم قليلُ الكلام لطيفاً هو الآخر. أما الرجل النحيل الذي كان يظهر في الصورة فقد غادر المزرعة وحلّ محله رجل آخر ضخمُ الجثة مرحٌ في الخامسة والأربعين من عمره، بطيءُ الكلام والتفكير، ترمش عيناه الزرقاوان حياءً.

ومضت الأسابيع. وفي النهاية جاء اليوم الذي توفر فيه لدى السيدة رايمر ما يُمكّنها من أن تدفع ثمن بطاقة السفر إلى لندن. ولكنها لم تذهب، فقد أجّلت الأمر، ورأت أن لديها مُتسعاً من الوقت. لم تكن تشعر بارتياح في عقلها لمسألة مصحات المجانين. لقد كان ذلك الشقي باركر باين ذكياً، فمن شأنه أن يجعل أحد الأطباء يقول إنها مجنونة، وهكذا ستودع في غياهب المصحة دون أن يعلم بها أحد. ثم قالت لنفسها: وفوق ذلك فإن في الأمر محض التغيير المرغوب.

كانت تنهض مبكراً وتعمل عملاً شاقاً. وكان جو ويلش، عامل المزرعة الجديد، مريضاً في ذلك الشتاء، فقامت هي والسيدة غاردنر برعايته. وكان الرجل الضخم مُعتمداً عليهما بشكل يثير الشفقة.

ثم جاء الربيع... أوان ولادة الحملان، ونمت أزهار برية على الأسيجة، وصار الهواء نقياً منعشاً. وكان جو ويلش يساعد حنة في عملها، فيما كانت هي تُصلح له ثيابه، وأحياناً كانا يخرجان معاً

للمشي أيام الآحاد. كان جو أرملَ ماتت زوجته منذ أربع سنين، وقد اعترف -صراحة- أنه منذ وفاتها قد بدأ بشرب الكحول.

ولكنه لم يعد يذهب كثيراً إلى حانة كراونز هذه الأيام، وقد اشترى لنفسه بعض الملابس الجديدة.

كانت حنة تضحكُ من جو. كانت تغيظه وتتندر على شكله الأخرق، ولم يكن هو ينزعج لذلك، فقد بدا سعيداً بذلك رغم خجله.

وبعد الربيع جاء الصيف... صيف جيد في ذلك العام، وقد عمل الجميع بكل جد. وأخيراً انتهى الحصاد، واصفرّت واحمرّت الأوراق على الأغصان.

وفي الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) رفعت حنة بصرها عن شجيرة كانت تقطعها فرأت السيد باركر باين يتكئ على السياج.

قالت حنة (التي كانت السيدة رايمر): أنت؟! أنت يا...

واستغرق منها تفريغ ما في نفسها وقتاً طويلاً، حتى إذا انتهت من قول ما تيسر لها كانت أنفاسها قد تقطعت.

ابتسم السيد باركر باين بهدوء وقال: إنني أتفق معك تماماً.

قالت السيدة رايمر تكرر نفسها: إنك مخادعٌ كذاب! أنت و«كونستينك» وتنويمك المغنطيسي، وأنتم تودعون تلك الفتاة المسكينة حنة مع... المجانين.

قال السيد باركر باين: كلا، إنك تُسيئين الحكمَ عليّ في هذه

النقطة. إن حنة مورهاوس ليست في مستشفى المجانين... إن حنة مورهاوس لا وجود لها أبداً.

- حقاً؟ وماذا عن صورتها التي رأيتُها بأم عيني؟

- إنها مزيفة، وتدبير ذلك مسألة سهلة جداً.

- وتلك المقالة في الصحيفة عنها؟

- لقد كانت الصحيفة كلها مزيفة بحيث تكون فيها مقالتان تبدوان طبيعيتين بحيث تُقنعان... كما حدث بالفعل.

- يا لذلك الدكتور الدجال كونستين!

- هذا اسمٌ مستعار... استعرناه لصديق لي يُتقن التمثيل.

هتفت السيدة رايمر: ماذا؟ وأحسب أنني لم أُنوَّم مغنطيسياً أيضاً؟

- الحقيقة أنك لم تُنوَّمي، بل شربتِ في قهوتك مُستحضراً من الأعشاب الهندية المخدِّرة. وبعد ذلك تم إعطاؤك أدوية أخرى وجيءَ بك إلى هنا بالسيارة حيث استعدتِ وعيك.

- فقد كانت السيدة غاردنر شريكة في الأمر منذ البداية إذن؟

أومأ السيد باركر باين برأسه موافقاً فقالت: وأحسب أنك رشوتَها... أو ملأت رأسها بالأكاذيب!

- السيدة غاردنر تثق بي؛ فقد أنقذتُ ابنها، يوماً، من السجن مع الأشغال الشاقة.

كان في طريقة كلامه شيء جعل السيدة رايمر تمتنع عن متابعة ذلك الموضوع. ولكنها قالت: وماذا عن تلك العلامة على مرفقي؟

ابتسم السيد باين وقال: إنها تتلاشى، وبعد ستة أشهر ستكون قد اختفت تماماً.

- وما معنى كل هذا الهراء؟ تجعل مني أضحوكة، وتحشرني هنا كخادمة... أنا، رغم كل أموالي! ولكن لا أحسب أن بي حاجة للسؤال؛ فلا شك أنك كنتَ تأخذ من أموالي ما تريد يا صاحبي العزيز... هذا هو معنى الأمر كله.

- صحيح أنني أخذتُ منكِ عندما كنتِ تحت تأثير المُخدّر وكالة، وأنني خلال... خلال غيابك توليت الإشراف على شؤونك المالية، ولكنني أستطيع أن أؤكد لك -يا سيدتي العزيزة- أن شيئاً من مالك لم يدخل جيبي باستثناء الجنيهات الألف الأصلية. والحقيقة أن وضعك المالي قد تحسن عملياً بفضل الاستثمارات الحصيفة التي قمتُ بها.

ثم ابتسم لها، فبدأت السيدة رايمر تقول: لماذا إذن...

ولكن السيد باركر باين قاطعها قائلاً: سأسألك سؤالاً واحداً يا سيدة رايمر. وأنت امرأة صادقة، وأعرف أنك ستجيبين عن سؤالي بصدق. إنني أسألكِ إن كنتِ سعيدة.

- سعيدة؟ هذا سؤال رائع! تسرق أموال امرأة وتسألها إن كانت سعيدة! تعجبني وقاحتُك.

- أنت ما زلتِ غاضبة، وهو أمر طبيعي تماماً. ولكن دعي

تصرفاتي السيئة خارج الموضوع للحظة. عندما جئتِ إلى مكتبي منذ عام كامل كنتِ امرأة تَعِسة يا سيدة رايمر. هل لك أن تخبريني الآن إن كنتِ امرأة تَعِسة؟ إن كان الأمر كذلك فإنني أعتذر، وأنت حرة في اتخاذ أية إجراءات تحبينها ضدي. وفوق ذلك فسوف أعيد لك الجنيهات الألف التي دفعتِها لي. هيا يا سيدة رايمر... هل أنت امرأة تَعِسة الآن؟

نظرت السيدة رايمر إليه، ثم خفضت بصرها عندما تكلمت أخيراً: لا، لستُ تَعِسة.

وتسللت إلى صوتها نبرة عجب وقالت: لقد غلبتني في هذه النقطة... إنني أعترف. أنا لم أكن سعيدة كما أنا الآن منذ وفاة أبنر. إنني... إنني سأتزوج رجلاً يعمل هنا، اسمه جو ويلش، وسُتعلن خطوبتنا الأحد القادم، أعني أنها كانت ستعلن الأحد القادم.

- ولكن كل شيء قد اختلف الآن بالطبع.

توهج وجه السيدة رايمر وتقدمت خطوة للأمام قائلة: ماذا تعني بكلمة اختلف؟ أتظن أنني إن امتلكتُ كل أموال العالم فإن هذا سيجعلني «ليدي»؟ أنا لا أريد أن أكون ليدي، فهذه الطبقة عاجزة لا تصلح لشيء. جورج مناسب تماماً لي وأنا مناسبة له؛ إننا متلائمان معاً وسنكون سعيدين. أما بالنسبة لك -يا سيد باركر المتطفل- فأرجو أن تبتعد عن الموضوع ولا تتدخل فيما لا يعنيك!

أخرج السيد باركر باين ورقة من جيبه وأعطاها لها قائلاً: الوكالة. هل أمزقها؟ سوف تستعيدين السيطرة على ثروتك الآن.

ارتسم على وجه السيدة رايمر تعبير غريب. ألقت الورقة إليه

وقالت: خذها. لقد قلتُ بحقك كلاماً نابياً... وأنت تستحق بعضه. وإنك لرجل ماكر، ولكنني أثق بك رغم ذلك. يكفيني أن أضع سبعمئة جنيه هنا في المصرف... نشتري بها مزرعة لنا. والباقي... فلتأخذه المستشفيات.

- لا أظنك تقصدين تسليم ثروتك كلها للمستشفيات؟

- هذا بالضبط ما أعنيه. إن جو رجل طيب، ولكنه ضعيف، وإذا ما أعطيته مالاً فإنه سيحطم نفسه. لقد جعلتُهُ يترك الشرب، والحمد لله أنني أعرف ماذا أريد الآن. لن أسمح للمال بأن يحول بيني وبين السعادة.

قال السيد باركر باين ببطء: أنت امرأة رائعة، فنادراً ما يجد المرء امرأة تفعل ما تفعلين.

- هذا يعني أن من النادر وجود امرأة ذات عقل.

قال السيد باركر وفي صوته نبرة احترام: "إنني أنحني لك احتراماً". ثم رفع قبعته وانحنى بكل جدية، ثم ابتعد.

صاحت السيدة رايمر خلفه: ولكن انتبه إلى أن جو ينبغي أن لا يعرف أبداً بالأمر!

ثم وقفت هناك وخلفها تغرب الشمس، وفي يدها شجيرة ضخمة خضراء، ورأسها مرفوع إلى الأعلى وكتفاها مشدودان. صورة مهيبة لفلاحة تؤطّرها شمس المغيب.

* * *

هل حصلتَ على كل ما تريد؟

- من هنا يا سيدتي.

تبعت امرأة طويلةٌ ترتدي معطفاً من الفراء حمّالَها المُثقل على رصيف محطة ليون.

كانت تضع قبعة من نسج اليد وقد أنزلتها لتغطي إحدى عينيها وأذنيها، أما الطرف الآخر من الوجه فكان يُبدي صفحة وجه فاتن وخصلات شعر ذهبي تغطي أذناً صغيرة. كان شكلها الأميركي النموذجي رائعاً بمجمله، وقد التفت أكثر من رجل لينظر إليها وهي تعبر المقصورات الأولى من القطار الذي وقف في المحطة ينتظر موعد المغادرة. وكانت على جانبي المقصورات لوحات كبيرة مثبتة على محامل وقد كُتبت عليها أسماء المحطات المختلفة للقطار: «باريس-أثينا»، «باريس-بوخاريست»، «باريس-إسطنبول».

توقف الحمّال فجأة عند آخر لوحة من هذه اللوحات، وفكّ الحبل الذي ربط به الحقائب إلى ظهره لتستقر على الأرض بقوة وقال: ها قد وصلنا يا سيدتي.

كان موظف المقصورة واقفاً عند الدرج الصغير التابع لها. وقد تقدم وهو يقول: "مساء الخير يا سيدتي"، بتأثر ربما كان ناتجاً عن

القيمة الغالية لمعطف الفرو. ناولته المرأة بطاقةً من ورق رخيص لعربة النوم التي حجزتها فقال: رقم ستة... من هنا.

قفز إلى القطار برشاقة والمرأة تتبعه، وبينما كانت تسرع خلفه في الممر كادت تصطدم برجل مربوع وهو يخرج من الغرفة المجاورة لغرفتها. ولمحت -بسرعة- وجهاً هادئاً ضخماً ذا عينين طيبتين.

قال الموظف وهو يعرض عليها الغرفة: "تفضلي يا سيدتي"، ثم فتح النافذة وأشار إلى الحمّال الذي أخذ الحقائب ورفعها إلى الرفوف، وجلست المرأة.

وضعت بقربها على المقعد علبة قرمزية صغيرة بالإضافة إلى حقيبة يدها. وكانت المقصورة حارة، ولكن لم يخطر لها أن تنزع معطفها. حدقت خارج النافذة المفتوحة بعينين شاردتين فيما كان الناس يهرعون جيئة وذهاباً على الرصيف، وكان هناك باعة يبيعون الصحف والوسائد والشُكلاتة والفواكه والمياه المعدنية، وكانوا يرفعون بضائعهم أمامها، ولكن عينيها كانتا تنظران شاردتين إلى ما وراءهم. ابتعدت محطة ليون عن ناظريها، وكان على وجهها حزن وقلق.

- هل يمكن لسيدتي أن تعطيني جواز سفرها؟

لم تنطبع في عقلها الكلمات، فكررها الموظف وهو يقف في مدخل الغرفة. رفعت إلسي جيفريز رأسها جفلة وقالت: عفواً، ماذا قلت؟

- جواز سفرك يا سيدتي.

فتحت حقيبتها فأخرجت الجواز وأعطته له، فقال: ستكون

الأمور على ما يرام يا سيدتي؛ سأتولى كل شيء.

ثم ساد سكوتٌ ذو مغزى، فأخرجت إلسي ورقة نقدية من فئة الخمسين فرنكاً وأعطته إياها، فتقبلها بأسلوب عملي وسألها عن الموعد الذي تريد أن يكون فراشها جاهزاً فيه، وسألها إن كانت تريد تناول العشاء أم لا.

وبعد أن حُلّتْ هذه المسائل انسحب الرجل، وعلى الفور تقريباً جاء صاحب المطعم مندفعاً في الممر وهو يقرع جرسه بحماسة وينادي: الوجبة الأولى، الوجبة الأولى.

نهضت إلسي فنزعت معطف الفراء الثقيل وألقت نظرة عجلى على نفسها في المرآة الصغيرة، ثم حملت حقيبتها اليدوية وعلبة جواهرها وخرجت إلى الممر. ولم تكد تقطع خطوات قليلة حتى جاء عامل المطعم مسرعاً من جديد في طريق عودته، وبغية إفساح المجال له تراجعت إلسي خطوة إلى الخلف لتصبح عند مدخل الغرفة المجاورة لغرفتها، والتي كانت الآن فارغة. وبعد أن مرّ الرجل واستعدت لاستئناف مسيرتها إلى مقصورة الطعام وقع نظرها -مصادفة- على البطاقة المُلصقة على حقيبة كانت على المقعد في تلك الغرفة.

كانت حقيبة كبيرة منتفخة أصابها شيء من البلى، وعلى تلك البطاقة مكتوب «باركر باين، مسافر إلى إسطنبول». أما الحقيبة نفسها فقد كُتب عليها الحرفان الأولان: «ب ب».

ارتسم على وجه الفتاة تعبير المفاجأة، وترددت لحظة في الممر، ثم عادت إلى غرفتها فأخذت نسخة من صحيفة التايمز كانت

قد وضعتها على المائدة واستعرضت أعمدة الإعلانات على الصفحة الأولى. ولكنها لم تجد ما كانت تبحث عنه، فعادت لتشق طريقها إلى مقصورة المطعم وقد تجهم وجهها قليلاً.

خصص لها النادل مكاناً على مائدة صغيرة كان يشغل طرفها الآخر شخص واحد... هو الرجل الذي كادت أن تصطدم به في الممر، أي مالك تلك الحقيبة في الواقع.

نظرت إلسي إليه دون أن تُظهر ذلك. بدا هادئاً تماماً، وودوداً جداً، كما بدا غامضاً على نحو يستحيل تفسيره، رغم ما يبعثه شكله من طُمأنينة مُفرحة. تصرف بالطريقة البريطانية المُتحفظة، ولم يتكلم إلاّ بعد أن جيء بالفاكهة إلى الطاولة. قال: إنهم يجعلون هذه الأماكن حارة جداً.

قالت إلسي: أعرف، أتمنى لو كان بالإمكان فتح النافذة.

ابتسم ابتسامة كئيبة وقال: هذا مستحيل؛ فجميع الحضور هنا سيحتجون على ذلك، باستثنائنا نحن الاثنين.

أجابته بابتسامة منها، وسكت الاثنان.

قُدّمت القهوة، ثم أُحضرت الفاتورة التي لا يستطيع أحدٌ فكّ رموزها. وبعد أن كتبت عليها بعض الملاحظات قررت أن تستجمع شجاعتها وتبادر، فتمتمت قائلة: اعذرني، ولكني رأيتُ اسمك على حقيبتك... السيد باركر باين. هل أنت... هل أنت؟

ترددت قليلاً فسارع لإنقاذها قائلاً: "أظنني كذلك بالفعل". ثم اقتطف من الإعلان الذي لاحظت إلسي وجوده أكثر من مرة في

صحيفة التايمز وبحثت عنه دون جدوى قبل قليل، فقال: أعني أنني صاحب: «هل أنت سعيد؟ إذا لم تكن كذلك فاستشر السيد باركر باين». نعم، أنا هو ذاك دون شك.

- فهمت، كم هو غريب!

هز رأسه وقال: "ليس غريباً حقاً. قد يكون غريباً من منظورك أنت، ولكنه ليس كذلك من منظوري أنا". ثم ابتسم مُطَمئِناً وانحنى إلى الأمام قائلاً بعد أن غادر معظم الحضور المطعم: إذن فأنت تَعِسة، أليس كذلك؟

بدأت إلسي تقول: "إنني..."، ثم توقفت.

- لو لم تكوني كذلك لما قلتِ: "كم هو غريب".

سكتت إلسي للحظات. شعرت بهدوء وارتياح غريب لمجرد وجود السيد باركر باين، ثم اعترفت أخيراً قائلة: نـ... نعم. إنني... تعِسة. أو لنقل إنني قلقة على الأقل.

أومأ برأسه متعاطفاً، فيما مضت هي تقول: لقد حدث شيء غريب جداً... ولا أدري أبداً كيف أفهمه.

- لماذا لا تخبرينني عنه؟

فكرت إلسي بالإعلان. ولطالما كانت قد علّقت عليه هي وإدوارد وضحكا. لم تحسب أبداً أنها... ربما كان من الأفضل أن تحجم عن... فإذا كان السيد باركر باين دعياً... ولكنه يبدو لطيفاً!

اتخذت إلسي قرارها؛ ستفعل أي شيء لتُخرج هذا القلق من

رأسها. قالت: سأقول لك. أنا ذاهبة إلى إسطنبول للانضمام إلى زوجي، فهو يقوم بالكثير من الأعمال المتعلقة بالشرق، وقد رأى ضرورة للذهاب هناك هذا العام. وقد سافر قبل أسبوعين على أساس أن يرتب الأوضاع كي أنضم إليه. وقد تأثرت جداً بهذه الفكرة؛ فأنا لم أسافر إلى الخارج أبداً من قبل (وإن كنا قد قضينا ستة أشهر في إنكلترا).

- هل أنت وزوجك أميركيان كلاكما؟

- نعم.

- وربما لم تتزوجا منذ أمد بعيد، أليس كذلك؟

- تزوجنا منذ ما يقرب من عام ونصف.

- وكان زواجاً سعيداً؟

قالت: "آه، نعم! إدوارد شخص رائع. ربما لم يكن لديه الكثير من الحيوية والحماسة. إنه نوعاً ما... لنقل إنه شديد الاستقامة". ثم أضافت بسرعة: ولكنه رائع.

نظر إليها السيد باركر باين متأملاً للحظات ثم قال: استمري.

- بعد سفر إدوارد بأسبوع كنتُ أكتب رسالة في مكتبه، وقد لاحظتُ أن ورق النشاف كله جديد ونظيف باستثناء بضعة أسطر عليه. وكنتُ قد قرأتُ -لتوي- قصة بوليسية كان أحد مفاتيح اللغز فيها ما هو ظاهر على الورق النشاف من كتابة، ومن باب المتعة والفضول فقط أمسكت بورقة النشاف أمام المرآة لأعكس كتابتها. كان ذلك -حقاً- بدافع المتعة فقط يا سيد باين... أعني أن إدوارد

أشبه بحمل وديع لا يمكن للمرء أن يحلم أن يرى منه أي شيء من ذلك القبيل.

- نعم، نعم. إنني أفهم تماماً.

- كان من السهل تماماً قراءة ما هو مكتوب. كان هناك أولاً كلمة «زوجة» ثم «قطار سيمبلون السريع»، وتحت ذلك كُتب: «قبل البندقية تماماً سيكون أفضل وقت».

ثم توقفت، فقال السيد باين: أمر غريب، غريب تماماً. وكان الخط خط زوجك؟

- نعم، ولكنني عصرتُ فكري فلم أستطع أن أتخيل أي ظرف يمكن لزوجي أن يكتب فيه رسالة ليس فيها إلا تلك الكلمات.

كرر السيد باين: "قبل البندقية تماماً سيكون أفضل وقت". أمر غريب فعلاً.

كانت السيدة جيفريز قد مالت إلى الأمام وهي تنظر إليه بأمل متلهف وسألت ببساطة: ماذا أفعل؟

قال: "أخشى أن يكون علينا الانتظار حتى الوصول إلى ما قبل البندقية". ثم أخذ نشرة عن الطاولة وفتحها قائلاً: ها هو ذا جدول مواعيد قطارنا. إنه يصل إلى البندقية في الثانية وسبع وعشرين دقيقة من بعد ظهر الغد.

تبادلا النظرات، ثم قال السيد باركر: اتركي الأمر لي.

* * *

كانت الساعة الثانية وخمس دقائق، وكان قطار سيمبلون السريع قد تأخر إحدى عشرة دقيقة ومرّ من ميستري قبل نحو ربع ساعة من ذلك.

كان السيد باين يجلس مع السيدة جيفريز في غرفتها، وقد مرت الرحلة سعيدة دون أحداثٍ حتى تلك اللحظة. ولكن جاءت الآن اللحظة التي يُفترض فيها أن يحدث شيء... إن كان سيحدث شيء. جلس الاثنان متقابلين وقلب السيدة جيفريز ينبض بسرعة، وعيناها متعلقتان به بنوع من البحث المؤلم عن الطمأنينة.

قال لها: ابقي هادئة؛ أنت في أمان تام. إنني هنا.

وفجأة انطلقت صرخة في الممر: آه، انظروا... انظروا! النار تشتعل في القطار!

وخلال لحظة كانت إلسي والسيد باينْ في الممر. كانت امرأة منفعلة ذات سحنة سلافية تشير بإصبع مُعبّر، وخارج نافذة إحدى المقصورات الأمامية كان الدخان يخرج كسحابة كثيفة. ركض السيد باين وإلسي في الممر وانضم إليهما آخرون، وكانت المقصورة المعنية مليئة بالدخان، فيما تراجع أول الواصلين وهم يسعلون. ظهر مفتش القطار وصاح: المقصورة فارغة؛ لا تخافوا. سيداتي وسادتي... سنتم السيطرة على النار.

وانهمرت عشرات الأسئلة والأجوبة، وكان القطار يمر فوق الجسر الذي يربط البندقية بالأراضي المجاورة.

وفجأة التفت السيد باركر باين وشق طريقه عبر مجموعة الناس

المتجمهرين خلفه وهرع عبر الممر إلى غرفة إلسي. كانت السيدة ذات الوجه السلافي جالسة فيها وهي تسحب أنفاساً عميقة من النافذة المفتوحة. قال السيد باركر باين: اعذريني يا سيدتي، ولكن هذه ليست غرفتك.

قالت السيدة السلافية: "أعرف، أعرف. اعذرني؛ إنها الصدمة والانفعال... قلبي". ثم عادت لتجلس على المقعد وتشير إلى النافذة المفتوحة وهي تسحب أنفاسها بشهقات عميقة.

وقف السيد باركر باين في الباب وقال بنبرة أبوية مُطمْئِنة: ينبغي أن لا تخافي؛ لا أحسب أن هذه النار خطيرة.

قالت: "حقاً؟ آه، الحمد لله! أشعر بأنني أفضل". ثم همّت بالنهوض قائلة: "سأعود إلى غرفتي"، ولكن كف السيد باركر باين أعادتها بلطف إلى المقعد وهو يقول: ليس الآن؛ سأطلب منك البقاء لحظة يا سيدتي.

- هذا تصرف مُهين أيها السيد!

- سيدتي، سوف تبقين.

كان صوته بارداً، وجلست المرأة وهي ما تزال تنظر إليه، فيما انضمت إليهما إلسي قائلة بصوت لاهث: "يبدو أنها قنبلة دخانية... مزحة سخيفة من أحدهم. إن موظف القطار غاضب جداً، وهو يطلب من الجميع..."، ثم توقفت وهي تحدق إلى المرأة التي طرأت على الغرفة.

قال السيد باركر باين: سيدة جيفريز، ما الذي تحملينه في علبتك القرمزية الصغيرة؟

- جواهري.

- هل لك أن تتلطفي بأن تنظري للتأكد من أن كل شيء في مكانه؟

ومباشرة انطلق سيل من الكلمات من السيدة السلافية التي استخدمت الفرنسية لإطلاق العنان لمشاعرها. وفي غضون ذلك كانت إلسي قد أخذت علبة جواهرها ثم صاحت: آه! إنها غير مقفولة.

أكملت السيدة السلافية بالفرنسية: وأنا أتهم رفيق غرفتك.

صاحت إلسي: لقد ذهبت الجواهر... كلها! العقد الذي أعطانيه بوب، وإسوارة الألماس، والزمرد، وخواتم العقيق، وبعض الدبابيس الألماسية الرائعة. الحمد لله أنني كنت ألبس اللآلئ. آه يا سيد باين، ما الذي ستفعله؟

- اذهبي واستدعي موظف القطار، وسأحرص على أن لا تغادر هذه السيدة الغرفة حتى يأتي.

صاحت السيدة بالفرنسية: "وحوش... سفلة"، ثم تابعت كيل الشتائم، فيما توقف القطار في البندقية.

ويمكن تلخيص ما حدث في نصف الساعة التي أعقبت ذلك. فقد تعامل السيد باركر باين مع عدة مسؤولين، بعدة لغات مختلفة،

ولكنه تعرض لهزيمة، فقد وافقت السيدة المُشتبه بها على تفتيشها، ولكنها خرجت من ذلك بريئة ولم يُعثر معها على الجواهر.

وبين البندقية وتريستا جلس السيد باركر باين وإلسي لمناقشة القضية.

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها الجواهر عملياً؟

- صباح اليوم. نزعتُ قرطين كنتُ ألبسهما أمس ووضعتهما في العلبة، وأخذت بدلاً منهما قرطين من اللؤلؤ العادي.

- وكانت كل الجواهر وقتها موجودة هناك لم تُمس؟

- أنا لم أستعرض كل الجواهر بالطبع، ولكن بدا أن الأمر على ما يرام. ربما كان هناك خاتم مفقود أو شيء صغير مثل ذلك، ولكن ليس أكثر من هذا.

أومأ السيد باركر باين برأسه وقال: وعندما رتب الموظف الغرفة صباح اليوم؟

- كانت العلبة معي... في مقصورة المطعم. إنني آخذها معي دوماً، ولم أتركها أبداً إلا عندما ركضتُ إلى الخارج قبل قليل.

- إذن فإن تلك المرأة التي ادّعت البراءة والكرامة المجروحة، السيدة سوبايسكا أو كائناً ما كان اسمها، لا بد أن تكون هي اللصة. ولكن ماذا عساها فعلت بالجواهر؟ فهي لم تمكث هنا إلا دقيقة ونصف الدقيقة... الوقت الذي لا يكاد يكفي إلا لفتح العلبة بمفتاح مزيف وإخراج الجواهر... نعم، ولكن ماذا بعد ذلك؟

- أيمكن أن تكون أعطتها إلى شخص آخر؟

- صعب جداً. فقد كنتُ التفتَ وهرعت عائداً في الممر، ولو خرج أحد من الغرفة لرأيتُه.

- ربما رمتها لأحد من النافذة.

- فكرة ممتازة، إلاّ أننا كنا نعبر فوق المياه في تلك اللحظة. كنا على الجسر.

- إذن لا بد أنها خبأتها في الغرفة.

- دعينا نبحث عنها.

وبكل طاقة وحيوية شرعت إلسي في البحث، وشاركها في ذلك السيد باركر باين بشيء من الشرود. وعندما لامته على عدم جديته اعتذر قائلاً: إنني أفكر بأن علي أنْ أرسل برقية مهمة من تريستا.

قابلت إلسي تفسيره ببرود؛ فقد سقط السيد باركر باين من عينها كثيراً.

قال بخنوع: أخشى أن أكون قد أزعجتك يا سيدة جيفريز.

- أنت لم تكن ناجحاً جداً.

- ولكن، يا سيدتي العزيزة، عليك أن تتذكري أنني لستُ رجل تحرٍّ. السرقات والجرائم ليست من اختصاصي أبداً؛ تخصصي هو قلوب البشر.

- حسناً، لقد كنتُ تعِسة قليلاً عندما صعدتُ إلى هذا القطار، ولكن ذلك لم يكن شيئاً بالمقارنة مع وضعي الحالي! بوسعي أن أملأ الدنيا دموعاً. إسوارتي الرائعة... وخاتم الزمرد الذي أعطانيه إدوارد عند خطوبتنا.

- ولكن لا بد أنك مُؤَمَّنةٌ ضد السرقة؟

- أحقاً؟ لا أدري. نعم، أحسب أنني مُؤمَّنة. ولكن العبرة في لوعة الأمر يا سيد باين.

خفف القطار من سرعته، وأطل السيد باركر باين من النافذة وقال: تريستا... ينبغي أن أرسل برقيتي.

* * *

- إدوارد!

تهلل وجه إلسي إذ رأت زوجها يسرع إلى لقائها على رصيف محطة إسطنبول. وللحظة تلاشت من عقلها حتى سرقة جواهرها، ونسيت الكلمات الغريبة التي وجدتها على ورقة النشاف... نسيت كل شيء ما عدا مرور أسبوعين على آخر مرة رأت فيها زوجها، وأنه كان شخصاً وسيماً جداً.

كانا على وشك مغادرة المحطة عندما شعرت إلسي بربتٍ ودود على كتفها والتفتت لترى السيد باركر باين، وكان وجهه الهادئ متهللاً بكثير من الطيبة.

- سيدة جيفريز، هل لك أن تأتي لرؤيتي في فندق توكاتليان

خلال نصف ساعة؟ أظن أنني قد أحمل لك بعض الأنباء السارة.

نظرت إلسي إلى إدوارد بتردد، ثم قامت بتعريف الرجلين بعضهما ببعض: هذا هو زوجي... السيد باركر باين.

- أظن أن زوجتك قد أبرقت لك بأن جواهرها قد سُرقت، وقد كنتُ أقوم بما في وسعي لمساعدتها في استعادتها، وأظنني أستطيع إبلاغها بأخبار جيدة خلال نصف ساعة.

نظرت إلسي بتساؤل إلى إدوارد الذي أجاب بسرعة: من الأفضل أن تذهبي يا عزيزتي. هل قلتَ فندق توكاتليان يا سيد باين؟ حسناً، سوف أحرص على مجيئها إليك.

* * *

بعد نصف ساعة بالضبط جاءت إلسي إلى غرفة السيد باركر باين الذي نهض لتحيتها قائلاً: لقد خاب أملك بي يا سيدة جيفريز؛ لا تحاولي إنكار ذلك. إنني لا أدعي أنني ساحر، ولكنني أقوم بما يمكنني القيام به. ألقي نظرة داخل هذه.

ثم دفع لها -عبر الطاولة- علبة كرتونية صغيرة. فتحتها إلسي فوجدت فيها كل شيء... الخواتم والإسوارة والعقد والدبابيس.

هتفت: سيد باين، ما أروعك! هذا أمر عجيب جداً!

ابتسم السيد باركر باين بتواضع وقال: أنا سعيد إذ لم أخذلك يا سيدتي العزيزة.

- آه يا سيد باين، لقد جعلتني أشعر بأنني لئيمة جداً! فمنذ

غادرنا تريستا كنتُ فظيعة في تعاملي معك. والآن... هذا الموقف. ولكن كيف عثرتَ عليها؟ متى؟ وأين؟

هز السيد باركر باين رأسه بتأمل وقال: إنها قصة طويلة... يمكن أن تسمعيها في يوم من الأيام، بل ربما سمعتِها قريباً جداً.

- ولماذا لا يمكنني سماعها الآن؟

- لذلك أسباب.

اضطرت إلسي للمغادرة دون أن تُشبع فضولها، وعندما ذهبت أخذ السيد باركر باين قبعته وعصاه وخرج إلى شوارع بيرا. مشى هناك يبتسم لنفسه حتى وصل أخيراً إلى مقهى صغير يُطل على القرن الذهبي، وكان مهجوراً في تلك اللحظة، وعلى الجانب الآخر كانت مساجد إسطنبول تزهو بمآذنها الرفيعة التي تنتصب نحو السماء. كان مشهداً جميلاً جداً، وجلس السيد باركر باين وطلب فنجانين من القهوة. جاءت القهوة ثقيلة حلوة المذاق، وما أن ابتدأ يرتشف من فنجانه حتى انسلّ رجلٌ وجلس على الكرسي المقابل. كان ذلك هو إدوارد جيفريز.

قال السيد باركر باين وهو يشير إلى الفنجان الآخر: لقد طلبتُ لك قهوة.

دفع إدوارد القهوة جانباً ومال فوق الطاولة وقال: كيف عرفت؟

ارتشف السيد باركر باين من قهوته بشكل حالم وقال: لا بد أن

زوجتك قد أخبرتك بما اكتشفَتْهُ على الورق الشاف؟ ألم تخبرك؟ آه، ولكنها ستخبرك. لقد فاتها أن تفعل ذلك مؤقتاً.

ثم ذكر له ما اكتشفته إلـي وقال: حسناً، إن هذا يفسر تماماً الحادث الغريب الذي حدث قرب البندقية. لقد كنتَ تخطط لسرقة جواهر زوجتك لسبب أو لآخر، ولكن ما معنى عبارة: «قبل البندقية تماماً سيكون أفضل وقت»؟ فهذه العبارة تبدو هراء لا معنى له. لماذا لم تترك مسألة تحديد المكان والزمان لشريكتك... أو عميلتك؟ لقد فكرتُ بذلك ملياً، ثم أدركتُ -فجأة- المغزى من ذلك. فقد سُرقت جواهر زوجتك قبل أن تغادر أنت لندن ووُضعتْ، بدلاً منها، نُسخٌ زائفة عنها. ولكن ذاك الحل لم يُقنعك، فقد كنت رجلاً مستقيماً ذا ضمير حي، وقد خشيت أن يتم اتهام خادم ما أو شخص بريء، ولذلك فإن سرقةً فعلية ينبغي أن تحدث... في مكان وبأسلوب لن يترك مجالاً للشك بأحد من معارفك أو بِساكني منزلك.

وهكذا تم تزويد شريكتك بمفتاح مطابق لمفتاح علبة الجواهر، وبقنبلة دخانية. وفي اللحظة المناسبة صاحت، ثم اندفعت إلى غرفة زوجتك ففتحت علبة الجواهر وألقت تلك الزائفة إلى الماء. كان بالإمكان الشك بها وتفتيشها، ولكن لا يمكن إثبات شيء عليها إذ أن الجواهر ليست معها. والآن تصبح أهمية اختيار المكان جلية واضحة، فلو أن الجواهر أُلقيت -ببساطة- قرب خط سكة الحديد لأمكن العثور عليها، وهنا تكمن أهمية تلك اللحظة بالذات حيث كان القطار يعبر فوق الماء. وفي غضون ذلك تقوم أنت بعمل ترتيباتك لبيع الجواهر هنا؛ فلن يكون عليك إلاّ بيعها عندما تتأكد من أن السرقة قد تمت بالفعل. ولكن برقيتي وصلتك في الوقت

المناسب، وقد أطعتَ أوامري وأودعتَ علبة الجواهر في فندق توكاتليان بانتظار حضوري، وأنت تعرف أنك لو لم تفعل ذلك فإنني سأنفذ تهديدي وأضع الأمر في يد الشرطة... كما أطعتَ أوامري في الحضور إليّ هنا.

نظر إدوارد جيفريز إلى السيد باركر باين متوسلاً. كان شاباً وسيماً طويل القامة أبيض البشرة، ذا ذقن مستدير وعينين مستديرتين تماماً. قال بشكل يائس: كيف لي أن أجعلك تفهم؟ لا بد أنني أبدو لك مجرد لص عادي.

قال السيد باركر باين: أبداً. على العكس، بل أرى أنك شريف إلى حدٍّ مؤلم. إنني معتاد على تصنيف البشر، وأنت -يا سيدي العزيز- تدخل في خانة الضحايا بكل سهولة. والآن، أخبرني بالقصة كلها.

- يمكنني اختصار الأمر كله بكلمة واحدة: الابتزاز.

- وبعد؟

- لقد رأيتَ زوجتي، وأدركتَ أية مخلوقة بريئة صافية هي... دون أية معرفة أو فكرة عن الشر.

- نعم، نعم.

- إن لها مُثُلاً في غاية النقاء والنبل، ولو أنها اكتشفت شيئاً عن... عن أي شيء فعلته لتركتني.

- أتساءل إن كانت فعلاً ستتركك، ولكن هذه ليست نقطتنا. ما الذي فعلته يا صديقي الشاب؟ أفترضُ أن للأمر علاقة بامرأة ما.

أومأ إدوارد جيفريز برأسه موافقاً، فسأله السيد باين: بعد الزواج أو قبله؟

- قبله... آه، قبله.

- حسناً، حسناً. ما الذي حدث؟

- لا شيء، لا شيء على الإطلاق، وهذا هو الجانب القاسي في الموضوع. كان ذلك في فندق في جزر الهند الغربية، وكانت هناك امرأة شديدة الجمال تدعى السيدة روسيتر تقيم في الفندق. وكان زوجها رجلاً عنيفاً تنتابه نوبات غضب جنوني، وقد هددها في إحدى الليالي بمسدس، فهربت منه وجاءت إلى غرفتي، وكانت نصف مجنونة من الرعب. وقد طلبت مني أن أسمح لها بالبقاء هناك حتى الصباح. وأنا... ما الذي كان بوسعي فعله غير ذلك؟

حدق السيد باركر باين إلى الشاب وحدق الشاب إليه بشيء من نزاهة الضمير. ثم تنهد السيد باين وقال: وبعبارة أخرى، فإنك قد خُدعتَ بأسهل ما يكون يا سيد جيفريز.

- لا أدري...

- نعم، نعم. إنها حيلة قديمة جداً... ولكنها غالباً ما تنجح مع الشبان المثاليين. وأحسب أن الحبل قد ضُيّق عليك عند إذاعة نبأ زواجك القريب، أليس كذلك؟

- بلى؛ تلقيت رسالة تقول إنني إن لم أرسل مبلغاً من المال فإن كل شيء سيُقال لوالد زوجتي... كيف أغويت تلك السيدة وأبعدتها

عن زوجها، وكيف أن العديدين رأوها تأتي إلى غرفتي، وكيف سيقوم الزوج برفع دعوى للطلاق. لقد جعلوني أبدو وغداً شريراً.

ثم مسح جبينه بشيء من الحرج فقال السيد باركر باين: نعم، نعم، وهكذا فقد دفعت. ومن وقت لآخر كان الحبل يُشَدّ من جديد.

- نعم. وكانت تلك القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير. فقد كان عملنا متأثراً كثيراً بالركود، ولم يكن بوسعي تأمين أموال جاهزة، ولذلك فقد توصلتُ إلى هذه الخطة.

ثم أخذ فنجان قهوته البارد فحدّق به متأملاً، ثم شربه وسأل بشكل يثير الشفقة: ماذا أفعل الآن؟ ماذا أفعل يا سيد باين؟

قال السيد باين بحزم: ستعمل بناء على تعليماتي، سأتولى أنا التعامل مع معذّبيك. أما بالنسبة لزوجتك، فسوف تعود لها مباشرة وتخبرها بالحقيقة... أو بجزء منها على الأقل. النقطة الوحيدة التي يمكن أن تبتعد فيها عن ذكر الحقيقة الكاملة هي تلك المتعلقة بما حدث في جزر الهند الغربية. ينبغي أن تُخفي عنها أنك... أنك قد خُدعت كما قلتُ من قبل.

- ولكن...

- يا عزيزي السيد جيفريز، إنك لا تفهم النساء! المرأة لا تحب الزوج الأخرق الذي يُخدَع بمثل هذه السهولة. إن زوجتك فتاة رائعة بريئة ذات قيم عليا يا سيد جيفريز، وهي تحبك بما يكفي لفهم الأمر فهماً جيداً. اذهب لها يا صاحبي، واعترف بكل شيء...

أو بأكثر ما يمكنك من الأشياء. وقل لها إنك قد سرقتَ حتى لا يصل الأمر إلى مسامعها. إنها ستغفر لك بكل حماسة.

- ولكن....

- إن أحد المبادئ الجوهرية للحياة الزوجية يقول إن عليك أن تكذب على زوجتك... فهي تحب ذلك! اذهب ونَلْ غفرانها يا بني، وعش سعيداً طوال حياتك. وأظن أن زوجتك ستراقبك -مستقبلاً- بحذر كلما ظهرت امرأة جميلة أمامكما. من شأن بعض الرجال أن يتضايقوا من ذلك، ولكنني لا أظنك من هذا النوع.

قال الرجل ببساطة: لا أريد أبداً أن أنظر إلى امرأة غير إلسي.

- رائع يا بني! ولكنني، لو كنتُ مكانك، لما جعلتُها تعرف ذلك. ما من امرأة ترغب في أن تشعر أن مهمتها سهلة جداً!

نهض إدوارد جيفريز وقال: أتظنُّ حقاً...؟

قال السيد باركر باين بقوة: بل أعرف، معرفة اليقين.

* * *

مشى السيد باركر باين في شوارع دمشق، وعندما توقف خارج «فندق الشرق» رأى مركبة ضخمة ذات ست عجلات، أشبه بحافلة صغيرة، كان يُفترض أن تحمله مع أحد عشر شخصاً آخر عبر الصحراء إلى بغداد يوم غد.

وكرر السيد باركر باين مع نفسه أبيات الشاعر فليكر:

أربع بوابات ضخمة لمدينة دمشق...
وهذه بوابة الصحراء، وكهفُ الكوارث، وقلعة الخوف،
بوابة بغداد.
لا تمري عبري أيتها القافلة، ولا تمري وأنت تغنين.
أتسمعين ذلك الصمت حيث العصافير ميتة،
ومع ذلك يغرد شيء كالعصفور؟
اعبري خارجةً أيتها القافلة، قافلة القدر، قافلة الموت!

أصبح ذلك من قبيل الخيال الآن، ففي السابق كانت بوابة بغداد بوابة الموت فعلاً؛ أربعمئة ميل من الصحارى ينبغي أن تقطعها القافلة، وأشهر طويلة مملة من السفر. أما الآن فإن تلك الوحوش التي تتغذى على البترول، والموجودة في كل مكان، تقوم بتلك الرحلة في غضون ستٍّ وثلاثين ساعة.

- ماذا كنتَ تقول يا سيد باركر باين؟

كان ذلك الصوتَ المتلهف للآنسة نيتا برايس، الشابة الصغيرة التي كانت ترافقها عمةٌ شديدة المراس لها حذر طائر على فراخه.

ردد السيد باركر باين عليها أبيات فليكر، فقالت: يا لها من أبيات مثيرة!

كان ثلاثة رجال في زي القوة الجوية يقفون قريباً، وتدخل واحد منهم قائلاً: ما يزال أمامنا الكثير من الإثارة في هذه الرحلة؛ فحتى في هذه الأيام يقع إطلاق نار على القوافل بين حين وآخر من قبل قُطّاع الطرق، ثم هناك احتمال ضياعك... فهذا يحدث أحياناً، وعندها يتم إرسالنا للبحث عنك. لقد ضاع رجل لمدة خمسة أيام في الصحراء، ومن حسن حظه أنه كان يحمل الكثير من الماء معه. ثم هناك مطبات الطريق... وقد قُتل رجل بسببها. أنا أقول الحقيقة! كان نائماً فضُرب رأسه بسقف السيارة فمات بسبب الضربة.

سألت الآنسة برايس الكبرى: في عربة من ست عجلات يا سيد أوروورك؟

اعترف الشاب قائلاً: لا؛ ليس في عربة الست عجلات.

صاحت نيتا: ولكن ينبغي أن نقوم بشيء من التجول لرؤية المناظر.

سحبت عمتها كتاباً للإرشاد السياحي، فانسحبت نيتا مبتعدة وقالت: لا أريد رؤية الأسواق.

أجابها أوروورك بسرعة: تعالي معي؛ سوف نتمشى قليلاً.

وما لبثا أن ابتعدا، فالتفت السيد باركر باين إلى رجل هادئ يقف بجانبه اسمه هينسلي، وهو يعمل في دائرة الأشغال العامة في بغداد، وقال بشيء من الاعتذار: إن دمشق مخيبة قليلاً للآمال عندما يراها المرء لأول مرة؛ فهي متمدنة قليلاً. الترام والمساكن الحديثة والمحلات...

أومأ هينسلي برأسه موافقاً، فقد كان قليل الكلام. ولكنه قال بسرعة: لا يحصل المرء على الماضي... عندما يظن أنه حصل عليه.

جاء رجل آخر، شاب يلبس ربطة قديمة من تلك التي كان يلبسها طلبة كلية إيتون. كان ذا وجه ودود وإن كان يخلو قليلاً من التعابير، ولكنه بدا الآن قلقاً. كان هو وهينسلي في نفس الدائرة، وقال له صاحبه: مرحباً يا سميثرست. هل فقدتَ شيئاً؟

هز الكابتن سميثرست رأسه بالنفي. كان شاباً يبدو عليه شيء من بطء التفكير، وقال بشكل غامض: كنتُ أتجول فقط.

ثم مضى الصديقان معاً، واشترى السيد باركر باين صحيفة محلية باللغة الفرنسية، ولكنه لم يجدها مثيرة للاهتمام. لم تكن الأخبار المحلية تعنيه أبداً، ولم يبدُ أن أشياء مهمة تحدث في أي مكان. ثم وجد بعض الفقرات تحت عنوان: لندن. كانت أولى تلك الفقرات تتحدث عن مسائل مالية، وكانت الثانية تتحدث عن الوجهة المُفترضة للسيد صامويل لونغ، رجل المال الذي هرب من التزاماته

التي تراكمت لتبلغ الآن ثلاثة ملايين جنيه، وتقول الشائعات إنه قد وصل إلى أميركا الجنوبية.

قال السيد باركر باين كمَن يحدّث نفسه: ليس ذلك سيئاً بالنسبة لرجل لم يكد يتجاوز الثلاثين.

- عفواً، ماذا قلت؟

التفت السيد باركر باين ليواجه ضابطاً إيطالياً كان قد جاء معه على متن السفينة من برينديسي إلى بيروت.

شرح السيد باين ملاحظته فأومأ الضابط الإيطالي برأسه عدة مرات وقال: ذلك الرجل مجرم عظيم... لقد عانينا حتى في إيطاليا؛ فقد كان يحوز ثقة الآخرين بسهولة، ويقولون إنه كريم المحتد.

قال السيد باركر باين بحذر: حسناً، لقد تلقى تعليمه في إيتون وأكسفورد.

- أتظن أنه سيُقبَض عليه؟

- هذا يعتمد على ما توفر له من وقت للهرب. ربما كان ما يزال في إنكلترا، بل يمكن أن يكون في... أي مكان.

قال الضابط: "هنا معنا؟"، ثم ضحك.

بقي السيد باركر باين جدياً وقال: هذا ممكن، فما أدراك أيها الضابط؟ قد أكون أنا هو.

نظر إليه الضابط دهِشاً، ثم عاد وجهه الأسمر ليرتخي في ابتسامة فهم وقال: آه! هذا رائع جداً، رائع جداً حقاً. ولكنك...

ثم نزلت عيناه عن وجه السيد باين إلى الأسفل، وقد فسر السيد باين نظرته على نحو صحيح فقال: لا ينبغي أن تحكم حسب المظاهر. إن قدراً إضافياً من السمنة يمكن ترتيبه بسهولة وله تأثير كبير في إظهار المرء أكبر من عمره.

ثم أضاف بشكل حالم: بالإضافة إلى صبغ الشعر طبعاً، وتغيير سحنة الوجه، بل وحتى تغيير الجنسية.

انسحب الضابط بولي بارتياب، فلم يعرف أبداً مقدار جدية الإنكليزي.

* * *

سلّى السيد باركر باين نفسه في ذلك المساء بأن ذهب إلى السينما، وفيما بعد قادته خطاه إلى «قصر الأفراح الليلي» الذي تبين أنه لم يكن لا قصراً ولا ذا أفراح، بل كان أقرب إلى حانة مبتذلة. وفجأة لمح سميثرست. كان الشاب يجلس وحيداً إلى طاولة وكان وجهه محمرّاً، وقدّر السيد باين أنه قد شرب أكثر مما يتحمل، فذهب وانضم إليه.

قال الكابتن سميثرست متجهماً: إنني في وضع صعب، وعليّ أن أرفّه عن نفسي. لا أدري ماذا كنتَ ستفعل لو كنتَ مكاني. لا أحب أن أخذل صديقاً، أعني أنني... ومع ذلك... ماذا يفعل المرء؟

تفحص السيد باركر باين كما لو أنه يراه لأول مرة، ثم سأله بكل جفاء: من أنت؟ وماذا تعمل؟

قال السيد باركر باين بلطف: أنا أعمل في دخائل الناس.

حدق سميثرست إليه باهتمام شديد وقال: ماذا... أنت أيضاً؟

أخرج السيد باين من محفظته قصاصة صحيفة وأعطاها للكابتن عبر الطاولة. كانت القصاصة تقول: «هل أنت تَعِس؟ إن كنتَ كذلك فاستشر السيد باركر باين».

حدق سميثرست إلى الورقة بشيء من الصعوبة ثم قال بسرعة: عجباً. أتعني... أن الناس يأتون إليك ليخبروك بالأشياء؟

- إنهم يُسِرون لي بأمورهم... نعم.

- أحسبهم من النساء الغبيات.

اعترف السيد باركر باين قائلاً: يأتيني عدد كبير من النساء بالفعل، ولكن يأتيني رجال أيضاً. ماذا عنك أنت يا صديقي الشاب؟ لقد أردتَ مشورة قبل قليل، أليس كذلك؟

- هذا ليس من شأن أي إنسان... باستثنائي أنا.

هز السيد باركر باين رأسه بحزن، ثم تخلى عن الكابتن سميثرست باعتباره مهمة صعبة.

* * *

انطلقت القافلة إلى بغداد في الساعة السابعة صباحاً. كانت المجموعة تتألف من اثني عشر شخصاً: السيد باركر باين، والجنرال بولي، والآنسة برايس وعمتها، وثلاثة من ضباط سلاح الجو، وسميثرست، وهينسلي، بالإضافة إلى سيدة أرمنية مع ابن لها.

بدأت الرحلة دون أحداث تُذكر، وسرعان ما تجاوزت القافلة أشجار الفاكهة التي تحيط بدمشق. كانت السماء ملبدة بالغيوم، وقد نظر إليها السائق الشاب بارتياب مرة أو مرتين، ثم تبادل مع هينسلي بعض ملاحظات قائلاً: لقد كانت تمطر كثيراً عند الجانب الآخر من الرطبة؛ آمل أن لا تعلق السيارة بالطين.

توقفت السيارة عند منتصف النهار حيث تم توزيع وجبة غداء في علب كرتونية مُكعّبة، وقام السائقان بغلي الشاي الذي وُزّع أيضاً بكؤوس من الكرتون، ثم واصلت السيارة طريقها عبر البادية السهلية التي لا تنتهي.

فكر السيد باركر باين بالقوافل البطيئة وأسابيع السفر الطويلة، وعند الغروب تماماً وصلوا إلى قلعة الرطبة الصحراوية، حيث فُتحت بواباتها الضخمة ودخلت السيارة منها إلى باحة القلعة الداخلية.

قالت نيتا: يبدو هذا مثيراً.

وبعد أن غسلوا وجوههم وأيديهم تحمست نيتا للخروج في جولة قصيرة. وقد عرض عليها كلٌّ من الملازم المقاتل أوروورك والسيد باركر باين أن يرافقاها، وعند انطلاقهم جاء إليهم المدير

ورجاهم أن لا يبتعدوا؛ إذ ربما أصبح من الصعب عليهم تحديد طريق العودة بعد حلول الظلام.

وعده أورووك قائلاً: "لن نبعد كثيراً"، ولم يكن المشي مثيراً نظراً لتشابه المناظر كلها. وقد انحنى السيد باركر باين مرة والتقط شيئاً عن الأرض، فسألت نيتا بفضول: ما هذا؟

مد يده بما التقطه وقال: أداة من حجر الصوان تعود إلى ما قبل التاريخ... حفارة.

- هل كانوا... أكان بعضهم يقتل بعضاً بهذه؟

- لا. إنها لها استخدامات أكثر سلمية، ولكن أظن أنه كان بمقدورهم أن يقتلوا بها لو أرادوا ذلك. إن العبرة في الرغبة بالقتل، أما الأداة فلا تهم؛ إذ يمكن دوماً العثور على شيء ما.

كانت العتمة قد بدأت تخيم فعادوا أدراجهم إلى القلعة، وبعد تناول عشاء من عدة أصناف من المعلبات جلس الجميع للاستراحة، وكان مقرراً أن تواصل السيارة رحلتها في الساعة الثانية عشرة.

بدا السائق قلقاً وقال: توجد بعض المطبات السيئة قريباً من هنا، ويمكن أن تغرز السيارة في الوحل.

صعد الجميع إلى العربة الضخمة واستقروا في أماكنهم، وقد كانت العمة برايس منزعجة إذ لم يُتح لها أن تفتح إحدى حقائبها. قالت: أريد إخراج نعلي المنزلي الخفيف.

قال سميثرست: الأرجح أن تحتاجي أثقل ما لديك من أحذية.

ولئن لم تخني خبرتي فإن السيارة ستنغرز في بحر من الطين.

قالت نيتا: إنني لا أملك حتى جوارب احتياطية.

- لا بأس بذلك؛ فستبقين في السيارة. إن أقوى ستة أشخاص هم وحدهم الذين يخرجون لدفع السيارة.

قال السيد هينسلي وهو يربت على جيب معطفه: أنا أحتفظ بجوارب احتياطية دائماً، فالمرء لا يعرف ما يستجد له.

أضاءت المركبة مصابيحها وانطلقت في عتمة الليل، ولم تكن المسيرة مريحة. صحيح أن المركبة لم تضطرب بهم كما لو كان سيحدث في سيارة صغيرة، ولكنهم تعرضوا -مع ذلك- لمطباتٍ سيئة بين حين وآخر.

كان السيد باركر باين يجلس في المقعد الأول في المقدمة، وإلى يساره -عبر الممر- كانت تجلس السيدة الأرمنية وقد دثرت نفسها بالكثير من الأغطية والأوشحة، وكان ابنها خلفها. أما خلف السيد باين فكانت الآنسة برايس وعمتها، وفي المقاعد الخلفية جلس الجنرال وسميثرست وهينسلي وضباط القوة الجوية.

مضت المركبة تشق الليل، ووجد السيد باين صعوبة في النوم؛ فقد كان محشوراً في مكانه، إذ بقيت قدم السيدة الأرمنية ممتدة إلى الممر لتعتدي على تحفظه فيما كانت هي مرتاحة تماماً.

بدا أن الجميع نائمون. وشعر السيد باركر باين بالنعاس يغزو جفنيه، إلا أن مطباً مفاجئاً قذف به باتجاه سقف السيارة. وسمع احتجاجات ناعسة من مؤخرة السيارة: انتبه! أتريد دق أعناقنا؟

ثم عاد النعاس، وبعد عدة دقائق مالت رقبته إلى الأمام بشكل غير مريح ونام... ولكن حدث ما أيقظه فجأة؛ فقد توقفت السيارة، وكان بعض الرجال يخرجون، وقال هينسلي باقتضاب لقد غرزنا.

ولحرصه على رؤية كل ما يمكن أن يُرى، نزل السيد باركر باين إلى الطين بحذر. لم تكن السماء تمطر الآن، بل كان القمر بازغاً بحيث أمكن -تحت ضوئه- رؤية السائقَيْن وهما يعملان بشكل محموم ويستخدمان الحجارة والرافعات بغية رفع العجلات، وكان معظم الرجال يساعدون في ذلك. ومن نوافذ السيارة كانت النساء الثلاث ينظرن إلى المشهد. كانت الآنستان برايس تنظران باهتمام، فيما نظرت السيدة الأرمنية باشمئزاز لم تنجح في إخفائه.

وبناء على أوامر السائق قام الرجال من المسافرين برفع السيارة طائعين. وسأل أورورك: أين ذلك الشاب الأرمني؟ هل يبقي قدميه دافئتين مرتاحتين كقطة؟ دعونا نُخرجه أيضاً.

قال الجنرال بولي: والكابتن سميثرست أيضاً؛ إنه ليس معنا.

- ما زال اللئيم نائماً... انظروا إليه.

وبالفعل كان سميثرست ما يزال جالساً في كرسيه، وقد مال رأسه للأمام وارتخى جسده كله.

قال أورورك: "سأوقظه"، ثم قفز فدخل السيارة، وبعد دقيقة عاد للظهور وقد تغير صوته وقال: اسمعوا؛ أظنه مريضاً... أو به شيء. أين الطبيب؟

ومن بين المجموعة التي كانت منكبة على العجلة خرج قائد

السرب لوفتاس، الطبيب في القوة الجوية، وهو ذو مظهر هادئ وشعر بدأ الشيب يغزوه، ثم سأل: ما أمره؟

- إنني... لا أعرف.

دخل الطبيب السيارة، وتبعه أورورك وباركر باين. انحنى فوق الجسد المرتخي، وكانت تكفي نظرة ولمسة واحدة؛ إذ قال بهدوء: إنه ميت.

وانهمرت الأسئلة: "ميت؟"... "ولكن كيف؟"... فيما قالت نيتا: آه! يا له من أمر فظيع!

استدار لوفتاس بأسلوب منزعج وقال: لا بد أن رأسه قد ارتطم بالسقف؛ فلقد تعرضنا لمطبٍّ شديد.

- ولكن من المؤكد أن ذلك ما كان ليقتله. ألا يوجد شيء آخر؟

قال الطبيب: "لا أستطيع القول ما لم أفحصه بشكل مناسب". ثم نظر حوله بضيق بالغ. كانت النساء متلاصقات وبدأ الرجال في الخارج بالتجمع عند مدخل السيارة.

تكلم السيد باركر باين مع سائق السيارة، وكان شاباً رياضي الجسم قوياً، فقام بحمل النساء واحدة بعد أخرى عبر الطين إلى بقعة جافة من الأرض. وقد تمكن من حمل السيدة بيتيميان ونيتا بسهولة، أما العمة برايس الثقيلة فقد ترنح تحت ثقلها.

وهكذا فقد تم إفراغ داخل السيارة لكي يقوم الطبيب بإجراء فحصه.

عاد الرجال لمتابعة جهودهم لرفع السيارة. وسرعان ما بزغت الشمس في الأفق، وبدا النهار بهياً. أخذ الطين يجف بسرعة، ولكن السيارة بقيت منغرزة في الطين، وقد انكسرت ثلاث رافعات حديدية ولم تُفلح أية جهود في تحريك السيارة حتى تلك اللحظة. وبدأ السائق بإعداد الإفطار ففتح بعض المعلبات وراح يغلي الشاي.

وعلى بُعدٍ قليل من ذلك كان قائد السرب لوفناس يُطلق حكمه: ليس في جسده أية علامة أو جرح. وكما قلت، لا بد أن رأسه قد ارتطم بسقف السيارة.

سأل السيد باركر باين: ألَنت مقتنع أنه مات بشكل طبيعي؟

كان في صوته شيء جعل الطبيب يلتفت إليه بسرعة ويقول: يوجد احتمال واحد آخر.

- وما هو؟

- أن يكون أحدٌ قد ضربه على مؤخرة رأسه بشيء يشبه كيس رمل.

بدا وكأن في نبرة صوته شيئاً من الاعتذار، فقال ويليامسن ضابط الطيران الآخر، وكان شاباً ظاهر البراءة: ليس هذا مُحتملاً. أعني أنه ليس بمقدور أحد أن يفعل ذلك دون أن نراه.

قال الطبيب: وإذا كنا نائمين؟

أشار صاحبه قائلاً: لا يمكن للمرء أن يكون واثقاً من نوم الجميع؛ فالوقوف وغير ذلك كان من شأنه أن يوقظ هذا الراكب أو

ذاك.

قال الجنرال بولي: الطريقة الوحيدة هي أن يكون الشخص جالساً خلفه، إذ يمكنه أن يختار اللحظة المناسبة دون أن يضطر حتى للوقوف.

سأل الطبيب: من كان يجلس خلف الكابتن سميثرست؟

أجاب أوروورك على الفور: هينسلي يا سيدي... ولذلك فلا قيمة لهذا الدليل؛ فهينسلي كان أعزّ أصدقاء سميثرست.

ساد شيء من الصمت، ثم قال السيد باركر باين بشيء من اليقين الهادئ: أحسب أن لدى الملازم ويليامسن ما يخبرنا به.

- أنا يا سيدي؟ إنني... حسناً.

قال أوروورك: هيا، قلها يا ويليامسن.

- لا يوجد شيء حقاً... لا شيء أبداً.

- هيا قلها.

- إنه مجرد مقطع من حديث سمعتُه بالمصادفة... في الرطبة، في باحة القلعة. كنتُ قد عدتُ إلى المركبة فيما كان اثنان يتكلمان خارجها تماماً، وكان أحدهما سميثرست. كان يقول...

ثم سكت، فتعالت الأصوات: هيا يا رجل، قلها.

- كان يقول شيئاً عن عدم رغبته بخذلان صديق. وقد بدا أنه حزين جداً، ثم قال: سوف أمسك لساني حتى نصل إلى بغداد... ولكني

لن أسكت لحظة واحدة بعد ذلك. سيتعين عليك أن تخرج بسرعة.

- والرجل الآخر؟

- لا أدري. أقسم أنني لا أدري، فقد كان ذلك ليلاً ولم يقل إلاّ كلمة أو اثنتين لم أسمعهما.

- من منكم يعرف سميثرست جيداً؟

قال أورورك ببطء: لا أظن أن كلمة صديق يمكن أن تشير لأحد غير هينسلي. لقد عرفته، ولكن معرفة بسيطة جداً. وويليامسن جديد هنا... وهكذا قائد السرب لوفتاس. ولا أظن أن أياً منهما قد قابله من قبل أبداً.

وافقه كلا الرجلين فسأل السيد باين: وأنت أيها الجنرال؟

- أنا لم أرَ الشاب إلاّ منذ أن جئنا بالسيارة معاً من بيروت.

- وذلك الأرمني؟

قال أورورك بإصرار: لا يُمكن أن يوصف بكلمة صديق... وليس لأرمني من الجرأة ما يجعله يقتل أحداً.

قال السيد باركر باين: "ربما كان عندي دليل إضافي صغير". ثم كرر عليهم حديثه مع سميثرست في المقهى في دمشق.

قال أورورك متأملاً: لقد استخدم عبارة 'لا أحب أن أخذل صديقاً'، كما كان قلقاً أيضاً.

سأل السيد باركر باين: أليس لدى أحد منكم ما يمكن أن يضيفه؟

تنحنح الطبيب وقال: ربما لا يكون لهذا أية علاقة بالأمر...

ولما توقف تم تشجيعه على المضي فقال: ليس الأمر بأكثر من أنني سمعتُ سميثرست يقول لهينسلي: لا يمكنك أن تنكر أنه يوجد في قسمك اختلاسات.

- متى كان ذلك؟

- قبل قليل من انطلاقنا من دمشق صباح أمس. ظننتُ أنهما يتحدثان في شؤون عملهما فقط، ولم أتخيل...

ثم توقف، فقال الجنرال: هذا مثير يا أصدقائي؛ إنكم تجمعون الدليل قطعة قطعة.

قال السيد باركر باين: لقد أشرتَ إلى كيس رملي أيها الطبيب. هل يمكن للمرء تصنيع هذا السلاح؟

قال الطبيب ببرود وهو يأخذ بعض الرمل بيده: يوجد الكثير من الرمل هنا.

بدأ أورورك يقول: "إذا ما أخذت قليلاً من الرمل ووضعته في جورب..."، ثم تردد. وتذكر الجميع الجملتين القصيرتين اللتين قالهما هينسلي الليلة الماضية: إنني أحمل دوماً جوارب احتياطية. لا يعرف المرء ماذا يستجد.

ساد شيء من الصمت، ثم قال السيد باركر باين بهدوء: أيها القائد لوفتاس، أظن أن جوارب السيد هينسلي الاحتياطية موجودة في جيب معطفه الموجود الآن في السيارة.

اتجهت أنظارهم -للحظات- إلى حيث كان هينسلي يمشي بعصبية جيئة وذهاباً في الأفق البعيد. وكان هينسلي قد انعزل منذ اكتشاف جثة الرجل، وقد تم احترام رغبته في العزلة إذ أن الجميع كانوا يعلمون أنه كان صديقاً للقتيل.

قال السيد باركر باين للطبيب: هل لك أن تُحضر الجوربين إلى هنا؟

تردد الطبيب، ثم قال: "لا أحب أن..."، ثم نظر -ثانية- إلى هينسلي البعيد وهو يغدو ويروح وقال: يبدو ذلك تصرفاً مشيناً بعض الشيء...

قال السيد باين: ينبغي أن تُحضرهما، رجاء؛ فالظروف غير طبيعية. إننا منقطعون هنا، ويجب أن نعرف الحقيقة. وإن أحضرت الجوربين فلربما تقدمنا خطوة إلى الأمام.

استدار لوفتاس وذهب طائعاً، وسحب السيد باركر باين الجنرال بولي جانباً وقال له: أظن أنك كنت تجلس مقابل الكابتن سميثرست عبر الممر.

- صحيح.

- هل نهض أحد ومشى في الممر؟

- الآنسة الإنكليزية فقط، العمة برايس. ذهبت إلى المغسلة في آخر السيارة.

- هل تعثرت أو كَبَتْ بأي شكل؟

- لقد تمايلت فقط مع حركة السيارة، بشكل طبيعي.

- أكانت هي الشخص الوحيد الذي رأيته يمشي في الممر؟

- نعم.

نظر الجنرال إليه بفضول وقال: إنني أتساءل من أنت؟ إنك تتولى المسؤولية، ومع ذلك فأنت لست عسكرياً.

- لقد رأيتُ الكثير في هذه الحياة.

- لقد سافرتَ كثيراً، أليس كذلك؟

- لم أسافر أبداً؛ بل جلست في مكتبي.

عاد لوفتاس حاملاً الجوربين فأخذهما السيد باين وتفحصهما، وفي داخل أحدهما كان بعض الرمل الرطب ما يزال عالقاً.

سحب السيد باركر باين نفساً عميقاً وقال: الآن أصبحتُ أعرف.

تحولت كل الأعين إلى الجسد الذي يغدو ويروح في الأفق، وقال السيد باركر باين: أرغب في إلقاء نظرة على الجثة إن أمكن.

ثم ذهب مع الطبيب إلى حيث كانت جثة سميثرست ممددة وقد غُطيت بغطاء تقبل أزاحه الطبيب وقال: لا يوجد ما يُرى.

ولكن عيني السيد باركر باين كانتا مركزتين على ربطة عنق القتيل، ثم قال: لقد كان القتيل أحد طلبة كلية إيتون قديماً إذن؟

بدا لوفتاس مدهشاً، ثم أدهشه السيد باركر باين أكثر إذ سأله: ماذا تعرف عن الشاب ويليامسن؟

- لا أعرف شيئاً أبداً، فلم أقابله إلاّ في بيروت حين جئتُ من مصر. ولكن لماذا؟ من المؤكد أن...

قال السيد باركر باين بمرح: لأننا سنشنق رجلاً بناء على شهادته هو، أليس كذلك؟ لا بد أن يكون المرء حذراً.

بدا أنه ما يزال مهتماً بربطة القتيل وياقته. فكّ الأزرار وأزاح الياقة، ثم أطلق صيحة وقال: أترى هذا؟

على مؤخرة الياقة كانت بقعة دم دائرية صغيرة. وانحنى لينظر عن كثب إلى الرقبة المكشوفة، ثم قال بسرعة: هذا الرجل لم يُقتل بضربة على رأسه أيها الطبيب، بل طُعن... عند قاعدة جمجمته. يمكنك أن ترى تماماً الوخزة الصغيرة هنا.

- وأنا الذي لم أرها!

- لقد كانت لديك فكرة مسبقة تصورت من خلالها أنه تلقّى ضربة على رأسه. من السهل تماماً أن لا يلحظ المرء هذه الوخزة؛ فهو لا يكاد يرى الجرح. إنها طعنة سريعة بأداة صغيرة حادة، ومن شأن الوفاة أن تحدث مباشرة، ولن يتسنى للضحية حتى أن يصرخ.

- أتعني أنها من تلك المُدى الإيطالية الصغيرة؟ هل تقصد أن الجنرال...؟

قال السيد باركر باين: إن المخيلة الشعبية تربط -دوماً- بين المُدى الصغيرة والإيطاليين. هيا... ها قد أتت سيارة!

بدت في الأفق سيارة صغيرة قادمة، فقال أوروورك بعد أن جاء وانضم إليهما: هذا جيد؛ يمكن للسيدات أن يواصلن السفر بهذه السيارة.

سأل السيد باركر باين: وماذا عن قاتلنا؟

- أتعني هينسلي...؟

- لا؛ لا أعني هينسلي؛ فقد صدف أن عرفتُ أن هينسلي بريء.

- أنت... ولكن ماذا؟

- بسبب وجود رمل في جوربه.

حدق أوروورك إليه، فقال بلطف: أعرف -يا بني- أن ما أقوله لا يبدو معقولاً، ولكنه الحقيقة؛ إذ أن سميثرست لم يُضرب على رأسه، بل طُعن.

سكت لحظة ثم تابع بقول: عد بذهنك فقط إلى المحادثة التي رويتها لكم... تلك التي تبادلناها أنا وسميثرست في المقهى. لقد انتقيتَ أنت ما بدا لك أنه الجملة المهمة، ولكن ما أثار انتباهي

أنا عبارة أخرى. فعندما قلت له إنني أعمل في مجال دخائل الناس قال لي: "ماذا، أنت أيضاً؟". ألا ترى في هذه العبارة شيئاً غريباً؟ لا أحسب أنك يمكن أن تصنف سلسلة اختلاسات من دائرة معينة تحت بند «دخائل الناس»؛ فهذه العبارة يمكن أن تصف، بشكل أكثر دقة، سراً يتعلق بهروب السيد صاموئيل لونغ مثلاً.

جفل الطبيب وقال أوروورك: نعم، ربما...

- لقد قلتُ مازحاً إن السيد لونغ الهارب من ديونه ربما كان واحداً من مجموعتنا، فماذا لو كانت هذه هي الحقيقة؟

- ماذا... ولكن هذا مستحيل!

- أبداً. ماذا تعرف عن الناس غير ما تقوله جوازات سفرهم وغير ما يقولونه هم عن أنفسهم؟ هل أنا حقاً السيد باركر باين؟ وهل الجنرال بولي حقاً ضابط إيطالي؟ وماذا عن الآنسة برايس الكبرى المسترجلة التي تكاد تحتاج إلى حلاقة ذقنها؟

- ولكن سميثرست لم يكن يعرف لونغ.

- إن سميثرست كان طالباً قديماً في كلية إيتون، وكان لونغ أيضاً في تلك الكلية، وربما كان سميثرست قد عرفه دون أن يقول لكم ذلك. ربما كان قد ميزه بيننا، وإن كان الأمر كذلك، فماذا كان سيفعل؟ إنه ذو تفكير بسيط، وقد أقلقه الأمر، وقد قرر أخيراً أن لا يقول شيئاً قبل الوصول إلى بغداد. ولكنه سيتحدث بعد ذلك.

قال أوروورك والدهشة ما تزال تحيّره: أتعتقد أن أحدنا هو لونغ؟

ثم سحب نفساً عميقاً وقال: لا بد أنه الرجل الإيطالي... لا شك. أو ما رأيك بالأرمني؟

- إن التنكر على شكل أجنبي والحصول على جواز سفر أجنبي سيكون أصعب من البقاء إنكليزياً.

قال أوروورك غير مصدق: أتعني الآنسة برايس؟

قال السيد باركر باين: كلا، هذا هو صاحبنا!

ثم وضع على كتف الرجل الواقف قربه يداً كادت تبدو ودودة. ولكن لم يكن في صوته ما يوحي بالود، وكانت أصابعه تمسك بالرجل كالكماشة. ثم مضى قائلاً: قائد السرب لوفتاس أو السيد صاموئيل لونغ، لا فرق كيف تسميه!

صاح أوروورك: ولكن ذلك مستحيل... مستحيل. لقد كان لوفتاس في الخدمة منذ سنوات.

- ولكنك لم تلتق به من قبل، أليس كذلك؟ لقد كان غريباً بالنسبة لكم جميعاً. إنه ليس لوفتاس الحقيقي بالطبع.

وجد الرجل الهادئ صوته أخيراً وقال: ذكاء منك أن تخمن ذلك. كيف عرفت بالمناسبة؟

- من قولك السخيف الساذج إن سميثرست قد قُتل نتيجة ارتطام رأسه. لقد وضع أوروورك تلك الفكرة في رأسك عندما كنا

واقفين نتكلم في دمشق بالأمس، وفكرت قائلاً لنفسك: ما أبسط ذلك! فقد كنتَ الطبيب الوحيد بيننا... وكل ما تقوله سيُقبل. كنتَ قد حصلتَ على عدة لوفتاس الطبية وحصلتَ على أدواته، وكان من السهل أن تختار أداة حادة صغيرة تلائم غرضك. وقد انحنيت فوقه لتتحدث معه، وبينما كنتَ تتحدث أدخلت تلك الأداة في أسفل عنقه، وبقيتَ تتكلم لدقيقة أو اثنتين بعد ذلك. والجو معتم داخل المركبة، فمَنْذا يشك في شيء؟ ثم جاء اكتشاف الجثة، وأطلقتَ حكمك. ولكن الأمر لم يمر بالسهولة التي تصورتَها؛ فقد دارت بعض الشكوك، ولذلك لجأتَ إلى خطّ دفاعك الثاني. فقد كرر ويليامسن المحادثة التي سمعها تجري بين سميثرست وبينك، وقد فُهم منها أنها تُشير إلى هينسلي، وأضفتَ أنت ذلك الجزء الصغير المدمّر الذي لفقتَه حول وجود اختلاسات في دائرة هينسلي. بعد ذلك قمتُ باختبار صغير؛ إذ أشرتُ إلى الرمل والجوارب، وكنتَ تمسك ببعض الرمل في يدك. وأرسلتُك لتُحضر الجوارب كي يتاح لنا أن نعرف الحقيقة. ولكنني بهذه العبارة لم أقصد ما تخيلتَ أنني أقصده؛ إذ كنتُ قد فحصتُ أصلاً جوربي هينسلي، ولم يكن في أيٍّ منهما رمل... أنت الذي وضعت الرمل هناك!

أشعل السيد صاموئيل لونغ لفافة وقال: إنني أستسلم؛ لقد انقلب حظي! لقد كانوا يلاحقونني بشكل محموم عندما وصلتُ إلى مصر، والتقيتُ بلوفتاس. كان في طريقه للانضمام إلى الوحدات العاملة في بغداد ولم يكن يعرف أحداً منهم هناك، وكانت فرصة أروع من أن يفوتها المرء. وهكذا فقد رشوته، وقد كلفني ذلك عشرين ألف جنيه. ولكن ما أهمية هذا المبلغ بالنسبة لي؟ وبعد ذلك

جعلني سوء طالعي ألتقي بسميثرست... ذلك الحمار الذي لم أرَ حماراً مثله! لقد كان طالباً تحت عهدتي في كلية إيتون باعتباري أعلى منه مرتبة، وكان ينظر إليّ في تلك الأيام بشيء مما يسمونه عبادة الأبطال، ولم تعجبه فكرة إفشاء أمري. وقد حاولت معه جهدي، وفي النهاية وعد أن لا يقول شيئاً حتى نصل إلى بغداد. فما هي الفرصة التي ستكون أمامي عندها؟ لن تكون هناك أية فرصة. ولم يكن لي سوى خيار واحد... وهو تصفيته. ولكنني أؤكد لك أنني لست قاتلاً بطبعي؛ إن مواهبي تكمن في مجال مختلف تماماً.

تغير وجهه، وتقلص. ثم ترنح وسقط إلى الأمام.

انحنى أوروورك فوقه، وقال السيد باركر باين: ربما كان هذا نتيجة حامض البروسيك... في اللفافة. لقد خسر المقامر لعبته الأخيرة.

ثم نظر حوله إلى الصحراء الفسيحة، وكانت الشمس تضربه. إنهم لم يغادروا دمشق إلاّ بالأمس... من بوابة بغداد.

لا تمري عبري أيتها القافلة، ولا تمري وأنت تغنين.
أتسمعين ذلك الصمت حيث العصافير ميتة،
ومع ذلك يغرد شيء كالعصفور؟
اعبري خارجةً أيتها القافلة، قافلة القدَر، قافلة الموت!

* * *

بيت في شيراز

كانت الساعة السادسة صباحاً عندما غادر السيد باركر باين باتجاه إيران بعد توقف له في بغداد. وكانت المساحة المخصصة للركاب في الطائرة الصغيرة محدودة، كما كان الاتساع المحدود للكراسي نفسها لا يسمح لجسم السيد باركر باين الضخم بأي ارتياح، وكان معه رفيقا سفر، الأول رجل ضخم متورد الوجه رأى السيد باين أنه من النوع الثرثار، وامرأة نحيلة مزمومة الشفتين يوحي سمتها بالتصميم.

وفكر السيد باين مع نفسه قائلاً: إنهما لا يبدوان ممن يمكن أن يلجأ إلى استشارتي في مجال مهنتي على أية حال.

وقد كانا كذلك بالفعل، وكانا قد أعطيا زميلهما في الرحلة نبذة عن حياتهما قبل أن تنطلق الطائرة. وكان السيد باركر باين قد قال بشيء من عدم الاستحسان: أما أنا فمجرد سائح؛ سأذهب إلى طهران وأصفهان وشيراز.

وقد سحرته موسيقى هذه الأسماء بحيث أعاد ترديدها ثانية: طهران... أصفهان... شيراز.

نظر السيد باين من النافذة إلى البلد تحته. كانت صحراء تامة، وأحس بغموض هذه المناطق الشاسعة غير المأهولة. وفي كرمنشاه

حطت الطائرة لتفحص جوازات السفر والجمارك، وقد فُتحت حقيبة من حقائب السيد باركر باين وتم تفحص علبة صغيرة من الورق المقوى بشيء من الحماسة والانفعال. وطُرحت الأسئلة، ولكن بما أن السيد باين لم يكن يتحدث الفارسية أو يفهمها فقد كان الأمر صعباً.

جاء الطيار مسرعاً، وكان شاباً ألمانياً أشقر وسيم الطلعة ذا عينين عميقتي الزرقة ووجه سفعته الأنواء الجوية. سأل بأسلوب مرح: ما الأمر؟

التفت إليه السيد باركر باين بارتياح بعد أن كان منخرطاً في عرض إيمائي رائع لم يُجدِ فتيلاً. قال للطيار: إنه مسحوق للبعوض. هل تظن أن بوسعك أن تشرح لهم الأمر؟

بدا الطيار مدهوشاً وقال: ماذا؟

شرح له السيد باين الجملة بالألمانية فترجمها الطيار للفارسية، ففرح الموظفون المتجهمون الحزانى، وارتخت وجوههم الكئيبة، وابتسموا، بل لقد بلغ الأمر بأحدهم أن ضحك؛ فقد وجدوا الفكرة مضحكة.

عاد المسافرون لاحتلال مقاعدهم في الطائرة واستؤنفت الرحلة. وقد هبطت الطائرة في همذان لرمي البريد دون أن تتوقف طويلاً، ونظر السيد باركر باين من النافذة محاولاً أن يرى إن كان بإمكانه تمييز صخرة بيهستون، تلك البقعة الرومانسية التي وصف فيها داريوس اتساع امبراطوريته وفتوحاته بثلاث لغات مختلفة هي البابلية والميدية والفارسية.

كانت الساعة قد بلغت الواحدة عندما وصلوا إلى طهران، وكانت هناك إجراءات رسمية أكثر من قبل الشرطة. وكان الطيار الألماني قد جاء ووقف مبتسماً بجانب السيد باين فيما أكمل الأخير الإجابة على تحقيق مطول لم يفهم منه شيئاً. وبعد ذلك توجه بالسؤال إلى الطيار الألماني قائلاً: ما الذي كنتُ أقوله؟

- لقد كنتَ تقول إن اسم أبيك سائح، وإن مهنتك تشارلز، وإن اسم والدتك قبل الزواج بغداد، وإنك مولود في الطائرة!

- وهل يهم ذلك؟

- لا يهم أبداً؛ فقط أجبهم بشيء، فهذا كل ما يريدونه.

خاب أمل السيد باركر باين بطهران؛ فقد وجدها حديثة إلى حدٍّ يثير الأسى. وقد قال ذلك مساء اليوم التالي للسيد شْلاغال، الطيار الألماني، عندما صادفه وهو يهم بدخول فندقه. وبوحي اللحظة قام بدعوة الطيار إلى العشاء، فقبل الرجل الدعوة.

حام النادل الجورجي حولهما، ثم أصدر أوامره فما لبث الطعام أن جاء. وبعد قليل قال الألماني: إذن فستذهب إلى شيراز؟

- نعم؛ سوف أذهب إلى هناك بالطائرة، ثم سأعود من شيراز إلى أصفهان وطهران عن طريق البر. أأنت الذي ستطير بي غداً إلى شيراز؟

- لا، سأعود إلى بغداد.

- هل تعمل هنا منذ فترة طويلة؟

- منذ ثلاث سنين؛ فهذه الرحلة لم يبدأ تقديمها إلاّ قبل ثلاث سنين، وحتى الآن لم تتعرض لأي حادث... من حسن الطالع!

وبعد أن جيء إليهما بفنجانين من القهوة الحلوة قال الألماني متذكراً: كان أول ركاب أقلّهم سيدتين إنكليزيتين.

- نعم؟

- كانت إحداهما شابة من أصل عريق جداً، ابنة واحد من وزرائكم، واسمها الليدي إيستر كار. وكانت جميلة، بل جميلة جداً، ولكنها مجنونة.

- مجنونة؟

- مجنونة تماماً، وهي تعيش هناك في شيراز في بيت محلي ضخم، وترتدي ثياباً شرقية، وترفض رؤية أي أوروبيين. أهذه حياة تعيشها سيدة عريقة النسب؟

قال السيد باركر باين: لقد فعل آخرون ذلك.

- ولكن هذه مجنونة، يمكنك أن ترى ذلك في عينيها. كنت قد رأيتُ مثل ذلك في عيني قائدي في الغواصة أثناء الحرب، وهو الآن في مصحة عقلية.

راح السيد باركر باين يتأمل. كان يذكر اللورد مايكلديفر جيداً، والد الليدي إيستر كار؛ فقد عمل تحت إمرته عندما كان اللورد وزيراً للداخلية. كان رجلاً ضخماً أشقر ذا عينين زرقاوين ضاحكتين، وقد رأى الليدي مايكلديفر مرة، وكانت ذات جمال أيرلندي ملحوظ

بشعرها الأسود وعينيها الزرقاوين الغامقتين. كانا كلاهما شخصين وسيمين عاديين، ولكن بالرغم من ذلك فقد كان في عائلة كار عرق جنون بالفعل، وكان هذا العرق يظهر بين آونة وأخرى، لا ينجو منه جيل حتى يظهر في الجيل التالي. ورأى أن من الغريب أن يركز الطيار الألماني على هذه النقطة.

سأل متكاسلاً: والمرأة الأخرى؟

- المرأة الأخرى... ميتة.

كان في صوته شيء جعل السيد باركر باين يرفع نظره بحدة.

قال السيد شلاغال: إن لي قلباً مرهفاً، وقد كانت تلك الفتاة بالنسبة لي جميلة جداً. أنت تعلم كيف تجري الأمور، فهذه المشاعر تنتابك فجأة. لقد كانت زهرة... زهرة.

تنهد ثم قال: ذهبتُ لرؤيتهما مرة... في بيتهما في شيراز، والليدي إيستر هي التي دعتني للحضور. ولكني وجدت الصغيرة، زهرتي، خائفة من شيء ما. كان بوسعي أن أرى ذلك بوضوح وعندما عدتُ مرة أخرى من بغداد سمعت أنها ماتت. ماتت!

توقف قليلاً ثم قال بتأمل: ربما كانت المرأة الأخرى قد قتلتها، فقد كانت مجنونة كما قلت لك.

* * *

بعد ظهر اليوم التالي تماماً شاهد السيد باركر باين منظر شيراز لأول مرة. كانت الطائرة قد طارت فوق سلاسل جبلية بينها وديان

ضيقة معزولة ومجاهل قاحلة جافة، وفجأة ظهرت شيراز... جوهرة من الزمرد الأخضر في قلب تلك المجاهل.

أُعجب السيد باركر باين بشيراز أكثر مما أُعجب بطهران، ولم تصدمه الطبيعة البدائية للفندق ولا الطبيعة البدائية للشوارع. وقد وجد نفسه وسط عطلة فارسية؛ إذ كان عيد النوروز قد بدأ مساء اليوم السابق لوصوله، وهو فترة تمتد أسبوعين يحتفل فيها الفرس ببدء عامهم. وقد تجول في الأسواق الفارغة، ثم خرج إلى الأراضي الواسعة في الجانب الشمالي من المدينة. كانت كل شيراز تحتفل.

وفي أحد الأيام خرج يمشي خارج البلدة، ولدى عودته سحره أحد البيوت. كان بيتاً يغطيه الآجر الأزرق والوردي والأصفر ويقع وسط حديقة خضراء تنساب فيها المياه وتزينها الورود وأشجار البرتقال. وشعر أن هذا البيت هو بيت الأحلام.

في تلك الليلة كان يتناول العشاء مع القنصل البريطاني، وسأله عن ذلك البيت فقال القنصل: إنه بيت ساحر، أليس كذلك؟ لقد بناه أحد الحكام السابقين الأغنياء لمنطقة لورستان، وهو لامرأة إنكليزية الآن. لا بد أنك سمعت بها؛ الليدي إيستر كار. إنها مجنونة جنوناً مُطبقاً... أصبحت من أهل المنطقة تماماً ولا تريد أي علاقة بأي شيء أو إنسان بريطاني.

- أهي صغيرة؟

- أصغر من أن تمثل دور المغفلة بهذه الطريقة. إنها في نحو الثلاثين.

- لقد كانت معها امرأة إنكليزية أخرى، أليس كذلك؟ امرأة ماتت؟

- نعم. كان ذلك منذ نحو ثلاث سنين، وقد حدث ذلك في اليوم الذي تلا احتلالي لمنصبي هنا في الواقع.

سأل السيد باركر باين بجرأة: كيف ماتت؟

- وقعت من تلك الشرفة في الطابق الأول. كانت خادمة لليدي إيستر أو مرافقة لها، لا أذكر. على كلٍّ، كانت تحمل صينية الإفطار وتراجعت خطوة عند الحافة. أمر محزن جداً، ولم يمكن فعل شيء؛ فقد تهشمت جمجمتها على الحجر في الأسفل.

- ماذا كان اسمها؟

- أظن أن اسمها كان كينغ، وكانت فتاة جميلة.

- هل حزنت الليدي إيستر عليها؟

- نعم... لا. لا أدري! كانت غريبة الأطوار تماماً ولم أستطع فهمها. إنها مخلوقة... آمرة مهيبة. يمكنك أن ترى أنها ذات شأن، إن كنتَ تفهم ما أعنيه. لقد أفزعتني بشخصيتها الآسرة وبعينيها السوداوين اللامعتين.

ثم ضحك بشيء من الاعتذار ونظر إلى صاحبه بفضول. ولكن بدا وكأن السيد باركر باين يحدق إلى الفراغ، وكان عود الثقاب الذي أشعله ليشعل لفافته يحترق في يده، حتى إذا وصلت النار إلى أصابعه قذف العود بجفلة متألمة. ثم رأى تعابير الدهشة على وجه القنصل فابتسم وقال: أرجو أن تعذرني.

- لقد كنت في عالم آخر، أليس كذلك؟

قال السيد باركر باين بغموض: وراء تخوم بعيدة.

* * *

في تلك الليلة كتب السيد باركر باين رسالة على ضوء المصباح الزيتي الصغير، وقد تردد كثيراً في صياغتها، ومع ذلك كانت في النهاية بسيطة جداً:

يقدم السيد باركر باين تحياته إلى الليدي إستر كار ويود أن يوضح أنه يقيم في فندق فارس للأيام الثلاثة القادمة إذا ما رغبت الليدي في استشارته.

ثم أرفق مع الرسالة قصاصة ورق... وهي إعلانه الشهير: «هل أنت سعيد؟ إن لم تكن سعيداً فاستشر السيد باركر باين، ١٧ شارع ريتشموند».

قال السيد باركر باين لنفسه وهو يأوي بحذر إلى فراشه غير المريح: يجب أن تنجح هذه الطريقة. لنقل إنها ثلاث سنوات تقريباً. نعم... يجب أن تنجح هذه الطريقة.

* * *

في نحو الساعة الرابعة من مساء اليوم التالي جاء الجواب، وقد أتى به خادم فارسي لا يعرف الإنكليزية: ستكون الليدي إستر مسرورة إذا ما زارها السيد باركر باين في التاسعة من هذه الليلة.

وابتسم السيد باركر باين.

كان نفس الخادم هو الذي استقبله في ذلك المساء، وتم اصطحابه خلال الحديقة المظلمة، ثم صعوداً على درج خارجي يدور حتى يفضي إلى مؤخرة البيت. وهناك فُتح باب ومر منه السيد باركر باين إلى باحة مركزية كانت مكشوفة تظللها السماء. وكانت هناك أريكة كبيرة وضعت عند الجدار وعليها تجلس متكئة مخلوقة تثير الإعجاب.

ارتدت الليدي إستر أثواباً شرقية واسعة، وكان بالإمكان الشك بأن أحد أسباب تفضيلها لذلك يكمن في حقيقة أن تلك الأثواب تلائم طراز جمالها الشرقي الغني. لقد وصفها القنصل بأنها ذات شخصية آسرة، وقد بدت كذلك بالفعل. كان ذقنها يرتفع إلى الأعلى وحاجباها يوحيان بالتسلط. قالت: أنت السيد باركر باين؟ اجلس هنا.

أشارت يدها إلى كومة من الوسائد، وفي إصبعها الثالث التمعت زمردة كبيرة حُفر عليها شعار أسرتها. وفكر السيد باين بأن تلك القطعة كانت متوارثة في العائلة، ولا بد أنها تساوي ثروة.

انحنى طائعاً ليجلس، ولكن بشيء من الصعوبة؛ فليس سهلاً على رجل بمثل جسمه أن يجلس على الأرض بشكل مؤثر جليل. ثم ظهر خادم يحمل القهوة فأخذ السيد باركر باين فنجانه وارتشف منه باستحسان.

كانت مضيفته قد اكتسبت العادة الشرقية في أخذ ما تشاء من وقت. لم تندفع للحديث، بل ارتشفت هي الأخرى قهوتها بعينين نصف مغمضتين. ثم تكلمت أخيراً: إذن فأنت تساعد الناس التعساء. هذا ما يزعمه إعلانك على الأقل.

- نعم.

- لماذا أرسلته إلي؟ أهي طريقتك في... في العمل أثناء أسفارك؟

كانت في صوتها لهجة هجومية لا تخفى، ولكن السيد باركر باين تجاهل ذلك واكتفى بالرد ببساطة: لا؛ إن فكرتي فيما يخص السفر هي التمتع بعطلة كاملة دون عمل.

- لماذا أرسلته إلي إذن؟

- لأن عندي من الأسباب ما يجعلني أظن أنك... تعِسة.

ساد الصمتُ لحظة، وكان هو في غاية الفضول. كيف ستتلقى هذه الإجابة؟ أعطت نفسها دقيقة لتقرر ذلك، ثم ضحكت وقالت: أحسبك ترى أن كل من يترك العالم ويعيش كما أعيش، معزولاً عن أبناء جنسه وعن بلده، لا بد أنه يفعل ذلك لأنه تعس! أتظن أن الحزن أو خيبة الأمل... أو شيئاً من هذا القبيل هو الذي دفعني إلى المنفى؟ آه، كيف لك أن تفهم؟ هناك، في إنكلترا، كنتُ مثل سمكة خارج الماء، أما هنا فأنا أشعر بأنني أحقق نفسي. إنني شرقية في أعماقي. إنني أحب هذه العزلة، وأظن أنك لا تستطيع فهم ذلك؛ فبالنسبة لك لا بد أنني أبدو...

ترددت قليلاً ثم قالت: مجنونة.

قال السيد باركر باين: أنت لستِ مجنونة.

كان في صوته قدر كبير من التأكيد الهادئ، فنظرت إليه

باستغراب وقالت: ولكن أحسب أنهم كانوا يقولون إنني مجنونة. يا لهم من حمقى! لا يمكن أن يبقى العالم دون تنوع يسمح بوجود كل الأذواق. إنني سعيدة جداً.

- ومع ذلك فقد طلبتِ مني القدوم إلى هنا.

ترددت وقالت: سأعترف أنني كنت فضولية جداً لرؤيتك. وفوق ذلك فإنني لم أرد أبداً العودة إلى هناك، إلى إنكلترا، ولكنني -مع ذلك- أحب أحياناً أن أسمع ما يجري في...

- في العالم الذي تركتِه؟

وافقته على العبارة بإيماءة من رأسها. وبدأ السيد باركر باين يتحدث، وبدأ صوته الهادئ المُطَمْئِن يتكلم بهدوء بداية، ثم يعلو قليلاً ليركز على نقطة هنا أو موضوع هناك.

تحدث عن لندن، وعن المجتمع الراقي، وعن مشاهير الرجال والنساء، وعن المطاعم والنوادي الجديدة، وعن سباقات الخيول. وتحدث عن الملابس والأزياء القادمة من باريس، وعن محلات صغيرة في شوارع قديمة حيث يمكن إبرام صفقات عجيبة. ووصف لها المسارح ودور السينما وأخبار آخر الأفلام، وحدثها عن التوسع الجديد في بناء الضواحي، ثم تحدث عن الورود والبستنة، وأخيراً أتى إلى وصف حميم لمدينة لندن عند المساء، بتراماتها وحافلاتها، وحشودها المسرعة من الناس العائدين إلى بيوتهم بعد يوم العمل والبيوت الصغيرة التي تنتظر تلك الحشود، وكل النمط الحميم الغريب للحياة العائلية الإنكليزية.

كانت ذلك عرضاً رائعاً من طرفه، عرضاً أظهر معرفة واسعة غير عادية وترتيباً ذكياً للحقائق. وكان رأس الليدي إيستر قد انحنى وتخلت عن سمت العجرفة، ولبعض الوقت كانت دموعها قد انهمرت بصمت. والآن، وقد أنهى كلامه، تخلت عن كل المظاهر وبكت صراحة.

لم يقل السيد باركر باين شيئاً، بل جلس هناك يراقبها وعلى وجهه تعبير هادئ راضٍ كمَن قام بتجربة وحصل على النتيجة المطلوبة منها.

وأخيراً رفعت رأسها وقالت بمرارة: حسناً، هل رضيت؟

- أظن ذلك... الآن.

- كيف سأتحمل ذلك؟ كيف سأتحمل ذلك؟ أن لا أغادر هذا المكان أبداً وأن لا أرى... أحداً بعد الآن؟

خرجت منها الصرخة وكأنها عُصرت منها عصراً، ثم أحست بنفسها فاحمرّ وجهها وسألت بحدة: حسناً؟ ألن تسألني ذلك السؤال الواضح؟ ألن تقول: "إن كنت تريدين العودة إلى الوطن بهذا القدر فلماذا لا تعودين؟".

هز السيد باركر باين رأسه بالنفي وقال: لن أفعل، فالأمر ليس بمثل هذه السهولة بالنسبة لك.

ولأول مرة بدت لمحة بسيطة من الخوف في عينيها وقالت: أتعرف لماذا لا أستطيع الذهاب؟

- أظن ذلك.

هزت رأسها وقالت: خطأ. إن سبب عدم قدرتي على الذهاب سبب لا يمكن لك أبداً أن تحزره.

- أنا لا أحزر. إنني ألاحظ... وأصنّف.

هزت رأسها مرة أخرى وقالت: أنت لا تعرف شيئاً أبداً.

قال السيد باركر باين بمرح: أرى أنني مضطر لإقناعك. عندما جئتِ إلى هنا -يا ليدي إيستر- أظن أنك جئت جواً في رحلة جديدة بدأ الطيران الألماني بتنظيمها من بغداد، أليس كذلك؟

- بلى.

- وقد قادكم طيار ألماني، السيد شلاغال، الذي جاء إلى هنا فيما بعد لرؤيتك.

- نعم.

قيلت تلك الكلمة بنبرة مختلفة قليلاً بشكل يصعب تفسيره... كان فيها الكثير من الرقة!

- وكانت لديك صديقة أو مرافقة... وماتت.

كان صوته الآن كالفولاذ... بارداً، هجومياً.

- كانت مرافقتي.

- وكان اسمها...؟

- موريل كينغ.

- هل كنتِ تحبينها؟

- ماذا تعني بأنني أحبها؟

سكتت قليلاً لتسيطر على نفسها، ثم قالت: كانت مفيدة لي.

قالت ذلك بعجرفة، وتذكر السيد باركر باين قول القنصل عنها إن بوسع المرء أن يرى أنها ذات شأن.

- هل حزنتِ عندما ماتت؟

- إنني... طبعاً! ما هذا يا سيد باين؟ أمن الضروري العودة إلى هذا الموضوع؟

كانت تتحدث بغضب، ثم أكملت دون أن تنتظر منه جواباً: كان من لطفك أن تأتي، ولكنني متعبة قليلاً. لو قلتَ لي كم يجب أن أدفع لك...؟

ولكن السيد باركر باين لم يتحرك ولم يُظهر أية إشارة على شعوره بالإهانة، ومضى في أسئلته بهدوء: ومنذ أن ماتت لم يأتِ السيد شلاغال لرؤيتك. ماذا لو جاء، هل تستقبلينه؟

- كلا بالتأكيد.

- أترفضين ذلك تماماً؟

- تماماً؛ لن يُسمح للسيد شلاغال بالزيارة.

قال السيد باركر باين متأملاً: نعم. لا يمكنك قول أي شيء آخر.

انكسر قليلاً درع عجرفتها الدفاعي وقالت بشيء من التردد: إنني... إنني لا أعرف ما الذي تعنيه.

- هل عرفتِ -يا ليدي إيستر- أن السيد شلاغال قد وقع في حب موريل كينغ؟ إنه شاب عاطفي. وهو ما يزال يحترم ذكراها كثيراً.

- أحقاً؟

- كان صوتها أشبه بالهمس. ومضى بالسؤال: كيف كانت؟

- ماذا تعني بكيف كانت؟ كيف لي أن أعرف؟

قال السيد باين بهدوء: لا بد أنك كنت تنظرين إليها أحياناً.

- آه، تعني شكلها؟ كانت شابة جميلة تماماً.

- في مثل عمرك تقريباً؟

- تقريباً.

ساد شيء من الصمت، ثم قالت: لماذا تظن أن... أن شلاغال قد أحبها؟

- لأنه هو الذي أخبرني بذلك. نعم، أخبرني بكل وضوح. وكما قلت؛ فهو شاب عاطفي. كان سعيداً بالبوح لي، وقد أزعجته جداً وفاتها بالشكل الذي وقعت به.

قفزت الليدي إيستر واقفة وصاحت: أتظن أنني قتلتها؟

ولكن السيد باركر باين لم يقفز واقفاً؛ فهو لم يكن من النوع الذي يقفز واقفاً. قال: لا يا طفلتي العزيزة، أنا لا أظن أنك قتلتها.

ولأن الأمر كذلك، فإنني أرى أنك كلما عجّلت بالكف عن هذا التمثيل والعودة إلى وطنك كلما كان ذلك أفضل.

- ماذا تعني بالتمثيل؟

- الحقيقة أنك فقدتِ شجاعتك. نعم، فقدتِ شجاعتكِ تماماً؛ فقد ظننتِ أنك ستُتهمين بقتل سيدتك.

صدرت عن الفتاة حركة مفاجئة فيما استمر السيد باركر باين قائلاً: أنت لستِ الليدي إيستر كار. لقد عرفتُ ذلك قبل أن آتي إلى هنا ولكنني اختبرتك لكي أتأكد.

ثم اتسعت ابتسامته، هادئة لطيفة، وأكمل قائلاً: عندما ألقيت محاضرتي الصغيرة قبل قليل كنتُ أراقبك؛ وفي كل مرة كان رد فعلك هو رد فعل موريل كينغ، وليس إيستر كار. لقد انفعلتِ لذكر المحلات الرخيصة، والسينما، والضواحي الجديدة، والعودة إلى البيت بالحافلة أو الترام. أما أخبار النوادي الجديدة وأحاديث المناطق الراقية وسباقات الخيل... فهذه كلها لم تعنِ لكِ شيئاً.

غدا صوته أكثر إقناعاً وأبوية من ذي قبل، وقال: اجلسي وأخبريني عن ذلك الأمر. أنت لم تقتلي الليدي إيستر، ولكنك ظننتِ أنك قد تُتهمين بقتلها. أخبريني فقط كيف حدث الأمر كله.

سحبت نفساً عميقاً، ثم عادت فألقت بنفسها على الأريكة وبدأت تتكلم. وقد جاءت كلماتها عجلى، على شكل دفعات سريعة: ينبغي أن أبدأ منذ البداية. لقد... لقد كنتُ خائفة منها؛ فقد كانت مجنونة. لم تكن مجنونة تماماً... قليلاً فقط. أحضرتني معها

إلى هنا، وقد كنت سعيدة بذلك، أنا المغفلة! ظننتُ أن المسألة رومانسية جداً. كنتُ مغفلة، مغفلة بالفعل. ثم بدأتْ تصبح غريبة الأطوار أكثر فأكثر. ثم جاءت قصة ذلك الطيار، فقد أُعجبتْ به، وقد جاء هنا لرؤيتي، وظننت... آه، أنت تعلم كيف تتطور هذه الأمور. ولكن لا بد أنه أوضح لها موقفه تماماً، وبعدها انقلبت عليّ فجأة. كانت فظيعة ومخيفة؛ قالت إنني لن أعود إلى الوطن أبداً، وقالت إنني تحت سلطتها تماماً وإنها تملك حياتي وموتي.

أومأ السيد باركر باين برأسه متفهماً، فقد رأى الوضع ينكشف أمامه: الليدي إيستر تنحدر ببطء إلى حافة الجنون، كما انحدر قبلها بعض أفراد أسرتها، والفتاة الخائفة الغرّة التي لم يسبق لها السفر، وهي تُصدّق كل ما يقال لها.

أكملت الفتاة: ولكن في أحد الأيام بدا وكأن شيئاً في نفسي قد انفجر، فتصديت لها وأخبرتها أن الأمور إذا وصلت إلى ذلك الحد فإنني أقوى منها، وقلت لها إن من شأني أن أرميها من الشرفة. وقد خافت، خافت بالفعل. وأحسب أنها كانت قد اعتبرتني -حتى تلك اللحظة- مجرد حشرة. تقدمتُ منها خطوة، ولا أدري ما الذي تخيلَتْ أنني سأفعله، فقد تراجعت إلى الخلف، وخطت... وخطت على حافة الشرفة فسقطت!

قالت موريل كينغ ذلك ثم دفنت وجهها بيديها، فقال السيد باركر باين بلطف: وبعد ذلك؟

- فقدتُ عقلي. ظننتُ أنهم سيقولون إنني دفعتها. ظننتُ أن أحداً لن يُصغي إلي وأنني سأرمى في سجن رهيب هنا.

ارتعدت شفتاها، وأدرك السيد باركر باين -بوضوح- حقيقة الخوف الذي سيطر عليها والذي يُفقد المرء قدرته على الحكم.

- ثم خطر الأمر لي... لو كنت أنا! كنتُ أعرف أن قنصلاً جديداً سيأتي لم يسبق له أن رأى أياً منا، ورأيت أن بوسعي تدبّر أمر الخدم، فبالنسبة لهم كنا كلانا امرأتين إنكليزيتين مجنونتين، وعندما تموت واحدة تستمر الأخرى. أعطيتهم هدايا ثمينة وأموالاً، وقلتُ لهم أن يرسلوا في طلب القنصل. وعندما جاء استقبلته باعتباري الليدي إيستر، وكنتُ قد وضعتُ خاتمها في إصبعي. وقد كان القنصل في غاية اللطف وقام بترتيب كل شيء، ولم يبدُ أن أحداً قد شكّ بأي شيء.

أومأ السيد باركر باين برأسه متأملاً، ومضت موريل قائلة: وبعد ذلك تمنيت لو أنني لم أتقمص شخصيتها. أدركتُ أنني كنتُ مجنونة تماماً أنا الأخرى؛ فقد حُكم علي بالبقاء هنا لتمثيل الدور، ولم أستطع رؤية طريقة يمكن من خلالها الخروج من هنا أبداً. فإذا اعترفتُ بالحقيقة الآن سيبدو الأمر، أكثر من أي وقت مضى، وكأنني أنا التي قتلتها. آه يا سيد باين! ماذا عساي أفعل؟ ماذا أفعل؟

- تفعلين؟

نهض السيد باركر باين على قدميه بأسرع ما يسمح به جسمه وقال: يا طفلتي العزيزة! ستأتين معي الآن إلى القنصل البريطاني، وهو رجل ودود ولطيف جداً. توجد بعض الإجراءات الرسمية الكريهة التي ينبغي أن تمري بها، وأنا لا أعدك بأن الأمر سيكون

نزهة لطيفة، ولكنك لن تُشنقي بتهمة القتل. وبالمناسبة، لماذا تم العثور على صينية الإفطار مع الجثة؟

- أنا رميتها فوقها. لقد... لقد رأيت أن وجود الصينية هناك سيجعل الأمر يبدو أكثر إقناعاً بأن القتيلة هي أنا. أكان ذلك سخافة مني؟

- بل كانت لمسة ذكية، والحقيقة أنها كانت النقطة الوحيدة التي جعلتني أتساءل إن كنتِ قد قمتِ حقاً بقتل الليدي إيستر... إلى أن رأيتك. فعندما رأيتك عرفتُ أنك، مهما عملتِ في حياتك، فإنك لا يمكن أن تقتلي إنساناً أبداً.

- أتعني لأنني لا أملك الشجاعة؟

قال السيد باركر باين مبتسماً: إن ردود أفعالك لا تعمل بتلك الطريقة. والآن، هل نذهب؟ أمامنا مهمة كريهة يجب مواجهتها، ولكنني سأساعدك على اجتيازها، وبعدها العودة إلى ستريثام هِلْ. أنت من ستريثام هِلْ، أليس كذلك؟ نعم، لقد خمّنتُ هذا؛ فلقد رأيت وجهك يتقلص عندما ذكرت رقم حافلة محددة. هل ستأتين يا عزيزتي؟

تلكأت موريل كينغ وقالت بارتباك: إنهم لن يصدقوني... لن يصدقوا أنها تصرفت بالشكل الذي تصرفت به.

- اتركي ذلك لي؛ فأنا أعرف بعض الأشياء عن تاريخ العائلة. هيا يا طفلتي، لا تستمري في لعب دور الجبانة. تذكري أن هناك

شاباً يحترق قلبه عليك. من الأفضل أن يرتب بحيث تكون طائرته هي التي تقلك إلى بغداد.

ابتسمت الفتاة واحمرّ وجهها وقالت ببساطة: أنا جاهزة.

وفيما هي تتحرك باتجاه الباب التفتت فجأة وقالت: لقد قلت إنك كنتَ تعرف أنني لستُ الليدي إيستر كار من قبل أن تراني، فكيف تسنى لك أن تعرف ذلك؟

قال السيد باركر باين: الاحصاء.

- الإحصاء؟!

- نعم؛ فقد كان لكل من اللورد والليدي مابكلديفر عينان زرقاوان، وعندما ذكر لي القنصل أن ابنتهما ذات عينين سوداوين لامعتين عرفت أن في الأمر شيئاً غير طبيعي. إن ذوي العيون البنية يمكن أن ينجبوا أطفالاً زُرق العيون، ولكن العكس غير ممكن، وأؤكد لك أن هذه حقيقة علمية.

- أحسب أنك إنسان رائع!

* * *

ثمن اللؤلؤة

كان أفراد المجموعة قد قضوا يوماً طويلاً متعباً؛ فقد انطلقوا من عمّان في الصباح الباكر بدرجة حرارة تبلغ ستاً وثلاثين درجة في الظل، ووصلوا أخيراً عندما بدأ يحل الظلام إلى المعسكر الذي أقيم في قلب تلك المدينة ذات الصخور الوردية الخيالية الغريبة، وهي البتراء.

كانوا سبعة: السيد كاليب بلانديل، الثري الأميركي السمين، وسكرتيره جيم هيرست الأسمر الوسيم رغم قلة كلامه، والسير دونالد مارفيل عضو البرلمان، وهو سياسي بريطاني ظاهر السأم، والدكتور كارفر عالم الآثار الكهل المشهور عالمياً، والكولونيل دوبو الفرنسي الشهم القادم من سوريا في إجازة، والسيد باركر باين الذي لا يمكن تصنيف مهنته بكل ذلك الوضوح، وأخيراً الآنسة كارول بلانديل، الجميلة المدللة والواثقة بشدة من نفسها باعتبارها المرأة الوحيدة بين نصف دزينة من الرجال.

تناولوا عشاءهم في الخيمة الكبيرة بعد أن اختاروا خيامهم أو كهوفهم التي سينامون فيها، وتحدثوا في السياسة في الشرق الأدنى. تحدث الإنكليزي بحذر، والفرنسي بتكتم، والأميركي بشكل فارغ إلى حدٍّ ما. ولم يتحدث عالم الآثار ولا السيد باركر باين على

الإطلاق، وبدا أن كلاً منهما قد فضّل دور المستمع، وهو ما ينطبق أيضاً على جيم هيرست.

ثم تحدثوا عن المدينة التي جاؤوا لزيارتها.

قالت كارول: إنها أكثر رومانسية من أن تصفها الكلمات. أن يفكر المرء بأولئك... ماذا أسميتموهم؟ الأنباط... وبأنهم عاشوا هنا في ذلك الزمن السحيق، قبل أن يبدأ الزمن تقريباً!

قال السيد باركر باين بلطف: ليس إلى هذا الحد. ما رأيك يا دكتور كارفر؟

- آه، لم يكن ذلك إلاّ منذ نحو ألفي سنة، وقد واجهت المدينة الكثير من اللصوص.

سألت كارول: أتظن أنه كان يوجد سارقون؟

- كلمة السارق ليست رومانسية يا آنسة بلانديل، فهي توحي بسرقات بسيطة تافهة. أما اللصوصية فتوحي بما هو أكبر وأعظم.

قال السيد باركر باين مُعرّضاً وهو يرمش بجفنيه: أشبه برجل مال معاصر!

صاحت كارول: هذه واحدة عليك يا أبي!

قال السيد بلانديل بشيء من الوعظ: إن الرجل الذي يربح المال إنما يفيد البشرية.

تمتم السيد باركر باين: ولكن البشرية جاحدة جداً هذا الفضل.

سأل الفرنسي: ما هي النزاهة؟ إنها لون يتغير، تقليد يختلف معناه باختلاف البلدان وباختلاف تعليم المرء.

دخل السير دونالد في الحديث دون كثير اهتمام: إن التعليم لا يعدو أن يكون مفسدة! يعلم المرء الكثير من الأمور التي لا فائدة منها... أعني أنه لا يغير طبيعة المرء.

- وماذا تعني بذلك؟

- ما أعنيه أنك -مثلاً- إن كنتَ لصاً مرة فستبقى كذلك.

ساد صمت ثقيل للحظات، ثم بدأت كارول تتكلم بشكل محموم عن البعوض، وقد ساندها والدها.

تمتم السير دونالد مع جاره السيد باين وقد تحير قليلاً: يبدو وكأنني فجّرتُ قنبلة، ما الأمر؟

أجابه السيد باركر باين: أمر غريب.

وكائناً ما كان الحرج الذي ساد مؤقتاً فإن شخصاً واحداً قد فشل تماماً في الانتباه إليه؛ فقد كان عالم الآثار قد جلس صامتاً وعيناه حالمتان شاردتان، وعندما ساد شيء من الصمت تحدث فجأة وبسرعة: أتعلمون؟ إنني أتفق مع هذا الرأي... من وجهة النظر المقابلة على الأقل؛ فالمرء إما أن يكون نزيهاً في جوهره أو لا يكون... لا تستطيع إنكار ذلك.

سأله السيد باركر باين: ألا تظن أن إغراء مفاجئاً، مثلاً، يمكن أن يبدّل رجلاً نزيهاً إلى مجرم؟

قال كارفر: مستحيل!

هز السيد باركر باين رأسه بلطف وقال: ما كنتُ لأقول إن هذا مستحيل؛ فالكثير من العوامل يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. نقطة الانهيار مثلاً.

قال الشاب هيرست متحدثاً لأول مرة: ما الذي تسميه نقطة الانهيار؟

كان ذا صوت عميق لا يخلو من عذوبة. وقال السيد باين: إن الدماغ مُهيأ لحمل وزن معين، وقد يكون الشيء الذي يعجّل في وقوع الأزمة والذي يقلب رجلاً نزيهاً إلى رجل مجرم مجرد شيء تافه بسيط، ولذلك فإن معظم الجرائم سخيفة، والسبب فيها -في أغلب الحالات- هو ذلك الشيء التافه البسيط من الحمولة الزائدة. أي القشة التي تقصم ظهر البعير.

قال الفرنسي: أنت تتكلم في علم النفس هنا يا صديقي.

قال السيد باركر باين: "إن كان المجرم عالم نفس فأي نوع من المجرمين سيكون؟". بدا أنه يفكر في هذه الفكرة باستمتاع، ثم قال: عندما تفكر أن من بين كل عشرة أشخاص تقابلهم تسعة على الأقل تستطيع إغراءهم بالتصرف بأية طريقة تريدها عن طريق استعمال الحافز المناسب.

صاحت كارول: آه، اشرح ذلك!

- مثلاً الرجل الذي يستجيب للترهيب، لا يحتاج المرء إلاّ

للصياح به بصوت عالٍ حتى يطيع. أما الرجل المعاند فما على المرء إلاّ أن يدفعه في الاتجاه المعاكس لما يريده منه. ثم هناك الشخص القابل للتأثر بالإيحاء، وهو أكثر الأنواع شيوعاً، وهؤلاء الناس هم الذين يرون سيارة لمجرد أنهم سمعوا بوق سيارة، ويرون سكيناً في الجُرح لأنهم سمعوا من قال لهم إن الرجل قد طُعن، أو الذين يسمعون صوت المسدس لأن فلاناً قال لهم إن النار قد أُطلقت على شخص ما.

قالت كارول بشيء من عدم التصديق: لا أظن أن أحداً يستطيع أن يمارس معي مثل هذا الإيحاء.

قال لها أبوها: أنت أذكى بكثير من أن تتعرضي لذلك يا حبيبتي.

قال الفرنسي متأملاً: إن ما تقوله صحيح تماماً؛ إن الفكرة المسبقة تخدع الحواس.

تثاءبت كارول وقالت: أنا ذاهبة إلى كهفي، أكاد أهلك تعباً. وقد قال عباس أفندي إن علينا أن ننطلق مبكرين صباح غد، حيث سيأخذنا إلى مكان التضحية... كائناً ما كان ذلك يعني.

قال السير دونالد: إنه المكان الذي كانوا يضحّون بالفتيات الصغيرات الجميلات فيه.

- يا إلهي، يا له من أمر فظيع! حسناً، طاب مساؤكم جميعاً. آه، لقد أسقطتُ قرطي.

التقطه لها الكولونيل دوبو من حيث تدحرج عبر الطاولة وأعاده إليها.

سأل السير دونالد فجأة: هل قرطاك حقيقيان؟

وكان يحدق، وقد انتابته الوقاحة للحظات، إلى اللؤلؤتين في أذنيها. فقالت: إنهما طبيعيان دون شك.

قال أبوها متلذذاً: لقد كلفاني ثمانين ألف دولار، وهي لا تحسن تثبيتهما بحيث يقعان ويتدحرجان عبر الطاولة. أتريدين تدميري يا بنت؟

قالت كارول بحب: لا أظن أن هذا يدمرك حتى لو اضطررتَ لشراء زوج جديد لي.

وافقها والدها قائلاً: أظنك محقة في هذا. يمكنني أن أشتري لك ثلاثة أزواج من الأقراط من دون أن ألاحظ ذلك في حسابي المصرفي.

ثم نظر حوله بفخر، فقال السير دونالد: كم هذا رائع بالنسبة لك!

قال بلانديل: حسناً، أظنني سآوي إلى فراشي الآن. طابت ليلتكم.

وخرج الشاب هيرست معه فيما ابتسم الأربعة الباقون بعضهم لبعض، وكأنهم متعاطفون لفكرة معينة.

قال السير دونالد: "من اللطيف أن يعرف أنه لن يفقد أمواله"، ثم أضاف بحقد: خنزير فخور بماله!

قال دوبو: إن لدى هؤلاء الأميركيين كثيراً من المال.

قال السيد باركر باين بلطف: من الصعب أن يجد الغني استحساناً من الفقير.

ضحك دوبو وقال: الحسد والضغينة؟ أنت محق يا سيدي؛ إننا -جميعاً- نتمنى أن نصبح أغنياء وأن نشتري أقراط اللؤلؤ عدة مرات، ولكن ربما باستثناء السيد هنا.

ثم انحنى للدكتور كارفر الذي كان قد شرد ثانية فيما يبدو أنها عادة لديه. كان يعبث بشيء صغير في يده، ثم قال وقد انتبه: ماذا؟ كلا، عليّ الاعتراف بأنني لا أرغب كثيراً باللؤلؤ الضخم، أما المال فهو مفيد دائماً بالطبع.

كانت نبرته تضع المال حيث ينبغي أن يوضع، وأضاف قائلاً: ولكن انظروا إلى هذه. إنها شيء مثير أكثر بمئة مرة من أية لآلئ.

- ما هذا؟

- إنه ختم أسطواني من حجر الهيماتيت الأسود، وقد حُفر عليه مشهد... أحد الآلهة يقدم شخصاً يحمل عريضة إلى إله آخر أعلى شأناً، وصاحب العريضة يحمل طفلاً على سبيل القربان، وخادم يقوم بكشّ الذباب عن الإله المهيب على العرش بواسطة مكشة ذباب من أغصان النخيل. وهذا النقش الدقيق هنا يذكر الرجل على أنه خادم لحمورابي، ولذلك فلا بد أن هذا الختم قد صُنع قبل نحو أربعة آلاف عام.

أخذ قطعة من المعجون من جيبه ووضع بعضها على المائدة، ثم مسحها بقليل من الفازلين وضغط الختم عليها وهو يديره، ثم

استخدم سكيناً ليقطع أطراف قطعة المعجون بحيث أصبحت على شكل مربع، ورفعها بهدوء عن الطاولة وقال: أترون؟

كان المشهد الذي وصفه قد استوى أمامهم في المعجون واضحاً دقيق التفصيلات. وللحظات هيمنت عليهم روح الماضي. ثم جاء من الخارج صوت السيد بلانديل عالياً نشازاً: أنت أيها العامل! تعال وخذ أمتعتي من هذا الكهف التعس إلى خيمة من الخيم؛ إن تلك البهائم تقرص بقوة وشهية ولا أستطيع إغماض جفني أبداً.

سأل السير دونالد: البهائم؟

- ربما قصد ذباب الرمل.

قال السيد باركر باين: أحب اسم البهائم؛ إنه معبّر أكثر من غيره.

* * *

انطلقت المجموعة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي شاقةً طريقها بعد العديد من عبارات التعجب من لون الصخور وأشكالها. وقد كانت المدينة «الوردية» حقاً عجيبة من عجائب الطبيعة.

تقدمت المجموعة ببطء؛ إذ أن الدكتور كارفر كان يمشي وعيناه في الأرض وينحني بين وقت وآخر ليلتقط أشياء صغيرة.

قال الكولونيل دوبو وهو يبتسم: بوسع المرء -دوماً- أن يميز عالم الآثار عن غيره... بهذا الشكل. فهو لا ينظر إلى السماء أبداً، ولا إلى الهضاب وجمال الطبيعة، بل يمشي مُطأطئ الرأس يبحث.

قالت كارول: نعم، ولكن عن ماذا يبحث؟ ما هي الأشياء التي تلتقطها يا دكتور كارفر؟

وبابتسامة خفيفة مد الدكتور يده وفيها شظيتان موحلتان من الفخار، فصاحت كارول بازدراء: هذه القذارة!

قال الدكتور كارفر: إن الفخار أكثر إثارة من الذهب.

ولكن كارول بدت غير مصدقة. ثم وصلوا إلى منعطف حاد، وعبروا بضعة قبور قُدّت من الصخر. كان المرتقى حاداً متعباً بعض الشيء، وكان الحرس من البدو يتقدمونهم صاعدين المنحدرات الشديدة الخطيرة من دون اهتمام، ومن دون النظر إلى الأسفل حيث الهوة الساحقة تحتهم.

بدت كارول شاحبة قليلاً. وانحنى أحد الحراس من الأعلى ومد يده، فقفز هيرست أمامها ومد عصاه لتصبح مُتكأً لها على الجانب المنحدر. شكرته بنظرة منها، وبعد لحظة كانت تقف بأمان على ممر عريض من الصخر، وتبعها الآخرون ببطء.

كانت الشمس قد ارتفعت الآن وزادت الحرارة، وفي النهاية وصلوا إلى أرض مستوية عريضة في القمة تقريباً، وكان قليل من التسلق كافياً للوصول إلى ذروة قطعة مربعة ضخمة من الصخر. أشار بلانديل إلى الدليل بأن أفراد المجموعة سيصعدون بمفردهم، فألقى البدو بأنفسهم مرتاحين على الصخور وبدؤوا يدخنون. وما هي إلاّ بضع دقائق قليلة حتى وصل الآخرون الذروة.

كان المكان مكشوفاً غامضاً، وكان المنظر أمامهم رائعاً يُظهر

الوادي من جميع جوانبه، وقد وقفوا على أرض مستطيلة مستوية ذات أحواض صخرية قُدّت على الجانب ومكان أشبه بمذبح القرابين.

قالت كارول بحماسة: إنه مكان رائع لتقديم الأضحيات. ولكن لا بد أن أنفاسهم كانت تتقطع إذ يحملون أضحياتهم إلى هنا!

أوضح الدكتور كارفر: لقد كان يوجد في الأصل طريق صخري متعرج، وسوف نرى آثاره ونحن نازلون من الجانب الآخر.

راحوا يعلقون ويتحدثون لبعض الوقت، ثم سمع صوت رنة ضعيفة، وقال الدكتور كارفر: أظنك قد أسقطت قرطك ثانية يا آنسة بلانديل.

مدت كارول يدها إلى أذنها وقالت: آه، لقد أسقطته بالفعل.

بدأ دوبو وهيرست يبحثان في الأرض، وقال الفرنسي: ينبغي أن يكون هنا؛ لا يمكن أن يكون تدحرج بعيداً، فلا يوجد مكان يذهب إليه... المكان أشبه بصندوق مربع.

سألت كارول: أيمكن أن يكون قد تدحرج إلى شقٍّ ما؟

قال السيد باركر باين: لا توجد أية شقوق هنا... يمكنك أن تري ذلك بنفسك؛ فالمكان مُستوٍ تماماً. آه، هل وجدتَ شيئاً أيها الكولونيل؟

قال الفرنسي مبتسماً: "مجرد حصاة صغيرة"، ثم رماها بعيداً.

وتدريجياً خيمت روح مختلفة على عملية البحث... روح من

التوتر. ولم تكن أية كلمات قد قيلت، ولكن عبارة «ثمانين ألف دولار» كانت حاضرة في عقول الجميع.

صاح والدها: ألَنت واثقة أنك كنت تلبسينه يا كارول؟ أعني أنك ربما أسقطتِه على الطريق ونحن صاعدون.

- لقد كنتُ ألبسه عندما صعدنا إلى تلك الصخرة العريضة هنا؛ أعرف ذلك لأن الدكتور كارفر أشار إليّ قائلاً إنه مرتخٍ وقام بشدّه لي.

وافقها الدكتور كارفر. ولكن السير دونالد هو الذي عبّر عما يجول في رؤوس الجميع من أفكار إذ قال: إن هذا لموقف كريه فعلاً يا سيد بلانديل. لقد كنتَ تخبرنا مساء أمس عن قيمة هذا القرط، فإن لم يتم العثور عليه (وهو ما يبدو أنه سيحدث) فإن كل واحد منا سيكون عرضة للشكوك.

قال الكولونيل دوبو فجأة: وإنني، بدءاً من نفسي، أطالب بأن يتم تفتيشي. وأنا لا أطلب هذا فقط، بل أطالب به كحقٍّ لي!

قال هيرست وقد بدا صوته أجشّ: فتشوني أنا أيضاً.

سأل السير دونالد وهو ينظر حوله: ما رأي الآخرين جميعاً؟

قال السيد باركر باين: بالتأكيد.

وأضاف الدكتور كارفر: فكرة ممتازة.

قال السيد بلانديل: وسوف أُفتَّش أنا أيضاً أيها السادة. إن لديّ أسباباً لذلك، رغم أنني لا أريد ذكرها.

قال السير دونالد بلباقة: كما ترغب بالطبع يا سيد بلانديل.

- عزيزتي كارول، هل لك أن تنزلي وتنتظري مع أدلائنا؟

غادرتهم الفتاة دون أن تنبس بكلمة، وكان وجهها برماً متجهماً عليه نظرة يأس لفتت انتباه واحد من أفراد المجموعة على الأقل. وقد تساءل عن معنى تلك النظرة.

تم المضي في التفتيش، وكان قاسياً تفصيلياً... وغيرَ مُجدٍ على الإطلاق. ولكن شيئاً واحداً أصبح أكيداً، وهو أن القرط لم يكن لدى أي فرد من أفراد المجموعة. ونزلت المجموعة منخفضة المعنويات تعالج المنحدر وتصغي من دون حماسة لوصف الدليل ومعلوماته.

كان السيد باركر باين قد أنهى لتوه ارتداء ملابسه استعداداً لتناول الغداء عندما ظهرت كارول على باب خيمته وسألت: هل لي أن أدخل يا سيد باين؟

- بالتأكيد يا فتاتي العزيزة، بالتأكيد.

دخلت كارول وجلست على طرف السرير. كانت على وجهها نفس النظرة المتجهمة التي لاحظها عليه في وقت سابق من ذلك النهار.

سألت: أنت تزعم أنك تحل الأمور للناس عندما يكونون تعساء، أليس كذلك؟

- أنا في إجازة يا آنسة بلانديل؛ إنني لا أتولى أية قضايا.

قالت الفتاة بهدوء: حسناً، ولكنك ستتولى هذه القضية. اسمعني يا سيد باين، إنني تعِسة بقدر تعاسة أي امرئ في هذه الدنيا.

- ما الذي يضايقك؟ أهي قضية القرط؟

- إنها هي بالضبط. لقد قلتم ما فيه الكفاية. إن جيم هيرست لم يأخذ ذلك القرط يا سيد باين... إنني أعرف أنه لم يأخذه.

- أنا لا أفهمك تماماً يا آنسة. ولماذا يفترض أحدٌ أنه أخذه؟

- بسبب سوابقه. لقد كان جيم هيرست لصاً ذات يوم يا سيد باين، وقد قُبض عليه في بيتنا. وقد... وقد شعرت بالأسف عليه؛ فقد بدا شاباً صغيراً يائساً...

فكر السيد باركر باين قائلاً لنفسه: "ووسيماً أيضاً". ومضت الفتاة قائلة: وقد أقنعتُ والدي بأن يعطيه فرصة ليتحسن. ووالدي مستعد لعمل أي شيء من أجلي؛ ولذلك فقد أعطى جيم فرصةً. وقد تحسن جيم بالفعل، ثم أصبح والدي يعتمد عليه ويثق به ويأتمنه على كل أسراره. وكان والدي سيغيّر في النهاية موقفه تماماً، أو كان من شأنه أن يغيره لو لم تقع هذه الحادثة.

- ماذا تعنين بتغيير موقفه؟

- أعني أنني أريد الزواج بجيم وهو يريد الزواج بي.

- وماذا عن السير دونالد؟

- السير دونالد هو العريس الذي يريده والدي، وليس خياري أنا. أتظنني أرغب بالزواج برجل مغرور كالسير دونالد؟

سألها السيد باركر باين: وماذا عن السير دونالد نفسه؟

قالت كارول بازدراء: أظنه يرى أنني سأكون مفيدة له فقط.

فكر السيد باركر باين بالوضع ثم قال: أود أن أسألك عن أمرين؛ ففي الليلة الماضية قيلت جملة مفادها أن المرء إذا كان لصاً مرة فإنه سيكون لصاً دوماً.

أومأت كارول برأسها موافقة، فقال السيد باين: يمكنني الآن أن أفهم الحرج الذي سببته تلك الجملة.

- نعم، فقد كان موقفاً شديد الحرج بالنسبة لجيم، وبالنسبة لي ولأبي أيضاً. لقد خشيتُ كثيراً من أن يُظهر وجهُ جيم شيئاً، ولذا فقد نطقت بأول ملاحظة وردت على ذهني.

أوما السيد باركر باين برأسه متأملاً ثم قال: لماذا أصرّ والدك على أن يكون من بين من يتم تفتيشهم اليوم؟

- ألم تفهم سبب ذلك؟ لقد فهمتُه أنا. فوالدي رأى أنني قد أظن أن أمر القرط كله قد يكون مؤامرة وُضعت ضد جيم، وهو يريدني بكل إلحاح أن أتزوج ذلك الإنكليزي، ولذلك فقد أراد أن يريني أنه لم يخطط لمؤامرة ضد جيم.

- يا إلهي! هذا يوضح الكثير من الأمور بالمعنى العام. أعني أنه لا يفيدنا بشيء في مسعانا الخاص هذا.

- لا أظنك سوف تستسلم؟

- كلا، كلا.

سكت لحظة ثم قال: ما الذي تريدين مني فعله يا آنسة كارول؟

- أن تثبت أن مَن أخذ تلك اللؤلؤة لم يكن جيم.

- أرجو أن تعذريني، ولكن ماذا لو كان قد أخذها؟

- إن كنتَ تظن ذلك فأنت مخطئ... مخطئ تماماً.

- نعم، ولكن لو فكرتِ في القضية بإمعان، ألا تظنين أن اللؤلؤة ربما شكّلت إغراء مفاجئاً للسيد هيرست؟ إن بيعها سيؤمن مبلغاً ضخماً... ولنقل إن هذا المبلغ قد يكون أساساً لاستثمار ما، الأمر الذي سيوفر له الاستقلالية، بحيث يستطيع الزواج بك سواء وافق والدك أم لم يوافق.

قالت كارول ببساطة: إن جيم لم يفعلها.

قبل السيد باركر باين هذه المرة قولها وقال: حسناً، سأبذل ما في وسعي.

أومأت برأسها بسرعة وغادرت الخيمة، وجلس السيد باركر باين -بدوره- على السرير وراح يفكر. وفجأة ضحك وقال لنفسه بصوت عالٍ: إنني أغدو بطيء التفكير!

وعند الغداء كان مرحاً جداً.

مرت فترة العصر بهدوء، ونام معظم أفراد المجموعة. وعندما دخل السيد باركر باين إلى الخيمة الكبيرة في الساعة الرابعة والربع لم يكن فيها إلاّ الدكتور كارفر، وكان يتفحص بعض شظايا الفخار.

قال السيد باركر باين وهو يجر كرسياً: آه! أنت تماماً الرجل الذي أردتُ رؤيته. هل يمكنك أن تعطيني قطعة المعجون تلك التي تحملها معك؟

تلمس الدكتور جيبه وأخرج إصبعاً من المعجون أعطاه للسيد باركر باين، ولكن السيد باركر باين أعاده وقال: لا، ليس هذا هو ما أريده. أريد تلك الكرة من المعجون التي كانت لديك الليلة الماضية. وحتى أكون صريحاً فإن المعجون ليس هو ما أريده، بل ما يحتويه المعجون.

ساد شيء من الصمت ثم قال الدكتور كارفر بهدوء: لا أظنني أفهمك تماماً.

- بل أظن أنك تفهمني. أريد قرط الآنسة بلاندل.

ساد صمت ثقيل للحظات، ثم مد الدكتور كارفر يده إلى جيبه وأخرج كرة معجون وقال ووجهه لا يُظهر أي تعبير: هذا ذكاء منك.

قال السيد باركر باين ويداه منشغلتان بكرة المعجون: "أتمنى أن تخبرني بالأمر". ثم أخرج قرط اللؤلؤ وأضاف بلهجة اعتذار: أعرف أن ذلك فضول مني، ولكنني أحب سماع الموضوع.

- سأخبرك إن أنت أخبرتني كيف استطعت أن تعرف بأمري بالضبط. لا أظنك رأيتَ شيئاً، أليس كذلك؟

هز السيد باركر باين رأسه وقال: أنا لم أرَ شيئاً أبداً، ولكنني فكرت بالأمر فقط.

- لقد كان الأمر -بدايةً- مجرد مصادفة. كنت أنا وراءكم جميعاً هذا الصباح، ووجدتُ القرط أمامي. لا بد أنه سقط من أذن الفتاة قبل لحظة من ذلك ولم تلحظه، بل لم يلحظه أحد. فأخذته ووضعتُه في جيبي بقصد أن أعطيها إياه عندما ألحق بها في الأعلى. ولكنني نسيت. وبعد ذلك، ونحن في وسط ذلك المرتقى بدأت أفكر، فهذا القرط لا يعني شيئاً لتلك الفتاة السخيفة... بل من شأن والدها أن يشتري لها غيره دون أن يؤثر عليه ذلك بشيء، ولكنه سيعني الكثير بالنسبة لي؛ فإن ثمن هذا القرط من شأنه أن يُجهّز بعثة آثار.

تلوى فجأة وجهه الخالي من التعابير ودبت فيه الحياة، وأكمل قائلاً: هل تعرف مقدار الصعوبة هذه الأيام في جمع تبرعات لأعمال التنقيب؟ لا، لا تعرف. إن ثمن تلك اللؤلؤة من شأنه أن يجعل كل ذلك سهلاً جداً. يوجد موقع أريد التنقيب فيه في بلوشستان، حيث فصل كامل من الماضي كامن ينتظر من يكشفه. وقد خطر في ذهني ما قلتَه أنت في الليلة الماضية... حول الشاهد الذي يتأثر بالإيحاء، وقد رأيتُ أن الفتاة من هذا النوع. وعندما وصلنا إلى القمة قلتُ للفتاة إن قرطها مُرتخ وتظاهرتُ بأنني أثبّته لها، ولكن ما فعلتُه -في الحقيقة- هو أنني ضغطتُ رأس قلم رصاص صغير في شحمة أذنها. وبعد بضع دقائق رميت حصوة صغيرة، وكانت مستعدة تماماً لأن

تُقسم -وقتها- بأن القرط كان في أذنها وأنه قد سقط لتوه... وفي غضون ذلك ضغطتُ القرط داخل المعجون في جيبي. هذه هي قصتي، ليس فيها ما يُفتخر به. والآن جاء دورك.

- ليس لديّ الكثير مما يمكن أن أقوله؛ فقد كنتَ الشخص الوحيد الذي يلتقط الأشياء عن الأرض، وهذا ما جعلني أفكر فيك. كما أن العثور على تلك الحصاة الصغيرة كان ذا مغزى، فقد أوحى بالحيلة التي اتبعتَها. بالإضافة إلى...

- استمر.

- حسناً، لقد تكلمتَ عن النزاهة بشكل متحمس بعض الشيء في الليلة الماضية. إنك تعرف ما يقوله شيكسبير... لقد بدا الأمر -على نحو ما- وكأنك تحاول إقناع نفسك، كما تعاملتَ مع المال بشيء من الازدراء المبالغ فيه.

بدا وجه الرجل أمامه متغضناً سَئِماً وقال: لقد انتهى أمري الآن. أحسب أنك ستعيد للفتاة تُحفتها، أليس كذلك؟ غريبة هي تلك الغريزة البدائية للتبرج والتزين! إنها تعود إلى العصور الحجرية الأولى، وهي واحدة من أولى غرائز الجنس الأنثوي.

- أظن أنك تسيء الحكم على الآنسة كارول. إن لها عقلاً راجحاً... والأهم من ذلك أن لها قلباً. وأظن أنها ستُبقي هذا الأمر سراً.

- ولكن والدها لن يبقيه.

- أظنه سيبقيه سراً هو أيضاً؛ إذ أن له أسباباً خاصة به تدفعه لذلك. يا صاحبي، ليس في هذا القرط ما يساوي أربعين ألف دولار. مجرد خمس دولارات تكفي لشرائه!

- ماذا تعني؟

- نعم، والفتاة لا تعلم بذلك، بل تظن أنهما قرطان حقيقيان تماماً. لقد راودتني الشكوك ليلة أمس؛ فقد تحدث السيد بلاندبل بشيء من الإفراط عن الأموال التي يملكها. وعندما تسوء الأحوال وتصاب تجارتك بركود وخسائر فإن أفضل ما تفعله هو أن تتظاهر بعدم التأثر وتخادع، وقد كان السيد بلاندبل يخادع.

فجأة ابتسم الدكتور كارفر، وكانت ابتسامته ابتسامة طفل يُستغرب أن تُرى على رجل كهل مثله. قال: إذن فنحن جميعاً في الهواء سواء!

- بالضبط يا صديقي.

* * *

موت على النيل

كانت الليدي غريل عصبية، ومنذ أن وطئت قدماها أرض السفينة المسماة «الفيوم» كانت تشتكي من كل شيء؛ فهي لم تحب غرفتها لأنها تستطيع تحمل شمس الصباح ولكنها لا تتحمل شمس الظهيرة، وقد قامت ابنة أخ زوجها، باميلا، بالتخلي لها عن غرفتها في الجانب الآخر راضية. وقد قبلتها الليدي غريل بتذمر.

صاحت بممرضتها، الآنسة ماكناوتن، لأنها أخطأت في الوشاح الذي أحضرته لها، ولأنها وضعت الوسادة الصغيرة في الحقيبة بدل أن تتركها قيد الاستعمال. وصاحت بزوجها، السير جورج، لمجرد أنه أخطأ في نوع السبحات التي اشتراها لها؛ فقد أرادت سبحات اللازورد لا من العقيق الأحمر، ولذلك اتهمت زوجها بالمغفل!

قال السير جورج بلهفة: آسف يا عزيزتي، آسف! سأعود وأبدلها، فلدينا متسع من الوقت.

ولكنها لم تصح في وجه بيسل وست، سكرتير زوجها، لأن أحداً لم يَصِح ببيسل وست أبداً؛ فابتسامته تهدّئك حتى قبل أن تبدأ.

أما أسوأ العواقب فقد نزلت على رأس الدليل السياحي...

وهو شخص مهيب ذو ثياب زاهية لا يمكن أن يعكر صفوه شيء. فعندما لمحت الليدي غريل غريباً يجلس على كرسي من القماش وأدركت أنه رفيق سفر صبّتْ جام غضبها كالحمم: لقد قالوا لي في المكتب بوضوح إننا المسافرون الوحيدون، وإن الموسم في نهايته ولا يوجد مسافر غيرنا.

قال محمد بهدوء: لا بأس يا سيدتي، أنت فقط والمجموعة ورجل واحد فقط، هذا كل ما في الأمر.

- ولكنهم قالوا لي إننا سنكون بمفردنا.

- لا بأس يا سيدتي.

- بل يوجد كل البأس! لقد كانت كذبة. ما الذي يفعله ذلك الرجل هنا؟

- لقد جاء لاحقاً يا سيدتي، بعد أن قطعتم تذاكركم. لم يقرر المجيء إلاّ هذا الصباح.

- هذا احتيال بحت!

- لا بأس يا سيدتي؛ فهو رجل هادئ، لطيف جداً وهادئ جداً.

- أنت مغفل ولا تعرف عن الأمر شيئاً. آنسة ماكناوتن، أين أنت؟ آه، ها أنت ذي. لقد طلبتُ منكِ مراراً أن تبقي بقربي، فربما أحسستُ بالإغماء. ساعديني في الذهاب إلى غرفتي وأعطيني حبة

أسبرين ولا تدعي محمداً يقترب مني؛ فهو لا ينفك يقول "لا بأس يا سيدتي" حتى أشعر برغبة في الصراخ.

مدت لها الآنسة ماكناوتن يدها دون أن تنبس بكلمة.

كانت امرأة طويلة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها، وسيمة على نحو هادئ غامض. وقد وضعت الليدي غريل في غرفتها وأسندتها بالوسائد، وقدمت لها الأسبرين وأصغت لسيل شكاواها.

كانت الليدي غريل في الثامنة والأربعين من عمرها، وقد عانت منذ أن كانت في سن السادسة عشرة من علة امتلاك الكثير من المال، ثم تزوجت ذلك البارون المفتقر، السير جورج غريل، قبل عشر سنوات.

كانت امرأة ضخمة الجسم ليست بالقبيحة فيما يخص قسمات وجهها، ولكن وجهها كان بادي الغيظ حاد الخطوط، ولم تنفع المساحيق الكثيرة التي تضعها عليه إلاّ في إبراز العيوب التي تركها الزمن والمزاج السيء. وكانت تبالغ في ارتداء الكثير من الملابس والجواهر.

وفيما كانت الآنسة ماكناوتن الساكتة تنتظر بوجهٍ خالٍ من التعابير، أنهت الليدي غريل حديثها قائلة: أبلغي السير جورج بأن عليه أن يُنزل ذلك الرجل عن السفينة! يجب أن أتمتع بقدر من الخصوصية بعد كل ما عانيته مؤخراً.

ثم أغمضت عينيها، فقالت الآنسة ماكناوتن: "نعم يا ليدي غريل"، ثم غادرت الغرفة.

كان المسافر المتطفل الذي جاء في آخر لحظة ما يزال جالساً على الكرسي على سطح السفينة. كان يعطي ظهره للأقصر ويحدق بعيداً عبر النيل إلى الهضاب البعيدة التي بدت ذهبية فوق خطٍّ من الخضرة الداكنة.

نظرت إليه الآنسة ماكناوتن نظرة تقويم سريعة وهي تمر قربه. وقد وجدت السير جورج في البهو، وكان يمسك بسبحة في يده وينظر إليها بارتياب. قال: أخبريني يا آنسة ماكناوتن، هل تظنين أن هذه السبحة ستكون مقبولة؟

ألقت الآنسة ماكناوتن نظرة سريعة على اللازورد وقالت: إنها رائعة جداً بالفعل.

- أتظنين أن الليدي غريل ستُسَرّ بها؟

- آه، لا، ما كنتُ لأقول ذلك يا سير جورج؛ فما من شيء يسرها... هذه هي الحقيقة. وبالمناسبة، فقد أرسلتني برسالة إليك. إنها تريد منك التخلص من هذا الراكب الإضافي.

فغر السير جورج فمه وقال: وكيف لي أن أتخلص منه؟ ماذا أقول للرجل؟

قالت إلسي ماكناوتن بصوت سريع ولطيف: "لا يمكنك ذلك

بالطبع. قل -فقط- إنه لم يكن بالإمكان فعل شيء". ثم أضافت بشيء من التشجيع: سيكون الأمر على ما يرام.

قال ووجهه يثير الشفقة: أتظنين أنه سيكون على ما يرام؟

قالت إلسي ماكناوتن بصوت أكثر لطفاً: لا ينبغي لك أن تتأثر كثيراً بهذه الأمور يا سير جورج، إنها بسبب صحتها فقط. لا تأخذ الأمر على محمل الجد.

- أتظنين أن صحتها سيئة حقاً؟

عبَر خيالٌ وجهَ الممرضة، وكان في صوتها شيء غريب عندما أجابته: "نعم، إنني... لا يعجبني وضعها تماماً، ولكن أرجوك أن لا تقلق يا سير جورج... يجب أن لا تقلق حقاً". ثم ابتسمت له ابتسامة ودٍّ وذهبت.

دخلت باميلا بكثير من التكاسل والبرود بملابسها البيضاء وقالت: مرحباً يا عماه.

- مرحباً يا عزيزتي باميلا.

- ما هذا الذي معك؟ آه، إنها رائعة.

- يسعدني أن يكون هذا رأيك. أتظنين أن عمتك ستراها كذلك أيضاً؟

- إنها لا تستطيع حب أي شيء. لا أفهم لماذا تزوجتَ هذه المرأة يا عم.

سكت السير جورج، ونهضت أمام مخيلته بانوراما كاملة من الصور المضطربة لسباقات خيل فاشلة... ودائنين يضغطون... وامرأة وسيمة رغم تسلطها.

قالت باميلا: يا لعمي المسكين! أحسب أنك اضطررتَ إلى ذلك. ولكنها تضطهدنا كلينا، أليس كذلك؟

بدأ السير جورج يقول: منذ أن مرضتُ...

ولكن باميلا قاطعته قائلة: ليست مريضة، ليست مريضة أبداً! إنها تستطيع القيام بأي شيء تريده، وعندما كنتَ في أسوان كانت في غاية الانشراح. أراهنك على أن الآنسة ماكناوتن تعلم أنها محتالة.

قال السير جورج متنهداً: لا أعرف ماذا كنا سنفعل دون الآنسة ماكناوتن؟

- إنها فعّالة وناجحة في عملها... مع أنني لا أحبها تماماً كما تحبها أنت يا عم. آه، أنت تحبها، لا تناقض نفسك! إنك ترى أنها رائعة، وهي كذلك بالفعل بطريقة ما، ولكنها لا يُسبَر غورها. إنني لا أعرف أبداً ما الذي تفكر به، ومع ذلك فهي تتدبر أمر القطة العجوز بشكل رائع.

- اسمعي يا باميلا، لا ينبغي لك أن تتكلمي عن عمتك بهذا الشكل؛ فهي طيبة جداً معك.

- نعم، إنها تدفع كل فواتيرنا، أليس كذلك؟ ومع ذلك فإنها حياة أشبه بالجحيم.

انتقل السير جورج إلى موضوع أقل إيلاماً: ماذا سنفعل بهذا الرجل الذي التحق بالرحلة؟ عمتك تريد السفينة لها وحدها.

قالت باميلا ببرود: لا يمكن لها ذلك. إن الرجل مهذب جداً، واسمه باركر باين. أظنه كان موظفاً في دائرة التسجيل... إن كان لمثل هذه الدائرة وجود. الغريب هو أنني أحس بأنني سمعتُ بهذا الاسم في مكان ما. بيسل!

كان السكرتير قد دخل لتوه فقالت له: أين يمكن أن أكون قد رأيتُ اسم باركر باين؟

أجاب الشاب بسرعة: في الصفحة الأولى من صحيفة التايمز، عمود «مشكلات القراء». «هل أنت سعيد؟ إن لم تكن كذلك فاستشر السيد باركر باين».

- يا إلهي! هذا مُسَلٍّ جداً. دعونا نحدثه عن كل مشكلاتنا طَوال الطريق إلى القاهرة.

قال بيسل ببساطة: ليست لدي أية مشكلات. إننا سنبحر فوق النيل الذهبي ونرى المعابد...

ثم نظر بسرعة إلى السير جورج الذي كان قد أخذ صحيفة وقال هامساً: ... معاً.

سمعت باميلا الكلمة الأخيرة، والتقت عيناها بعينيه فقالت من دون اهتمام: أنت على حق يا بيسل؛ من الرائع أن يكون المرء حياً.

نهض السير جورج وخرج، وتجهم وجه باميلا، فقال بيسل: ما الأمر يا غاليتي؟

- زوجة عمي الكريهة...

قال بيسل بسرعة: "لا تقلقي. ما أهمية ما يدخل عقلها؟ لا تعارضيها". ثم ضحك وقال: ألا ترين؟ إنها تمويه جيد.

ظهر جسد السيد باركر باين وهو يدخل البهو. وخلفه دخل محمد وهو مستعد لإلقاء مقطوعته: سيداتي وسادتي، سننطلق الآن، وخلال بضع دقائق سنعبر معبد الكرنك على الجهة اليمنى...

* * *

مسح السيد باركر باين جبينه. كان قد عاد لتوه من زيارة لمعبد دنديرا، وقد شعر بأن ركوب الحمار كان ممارسة لا تلائم جسمه. وقد كان في طريقه لتغيير قميصه عندما لفتت انتباهَه رسالةٌ أُسندت على طاولة زينته. فتحها وقرأ:

سيدي العزيز،

سأكون ممتنة إن أنت لم تَزُر معبد أبيدوس وبقيت في السفينة، إذ أنني أرغب باستشارتك.

المخلصة: إيريادين غريل

تجعد وجه السيد باركر باين الهادئ بابتسامة، وأخذ ورقة وأخذ قلمه وكتب:

الليدي العزيزة غريل،

إنني آسف إذ أخيب أملك، فأنا في إجازة في الوقت الحاضر ولا أقوم بأي عمل.

ثم وقع الرسالة باسمه وأرسلها مع أحد المضيفين. وما أن أنهى تغيير ملابسه حتى جاءته رسالة أخرى:

عزيزي السيد باركر باين،

إنني أقدّر حقيقة أنك في إجازة، ولكنني مستعدة لدفع مئة جنيه أجراً للاستشارة.

المخلصة: إيريادين غريل

ارتفع حاجبا السيد باركر باين ونقر على أسنانه بقلمه وهو يتأمل. لقد كان يريد رؤية معبد أبيدوس، ولكن مئة جنيه تبقى مئة جنيه، وقد ظهر له أن مصر كانت ذات غلاء فاحش لم يكن يتصوره! وهكذا أخذ قلمه وكتب من جديد:

عزيزتي الليدي غريل،

أنا لن أزور معبد أبيدوس.

المخلص: باركر باين

كان رفض السيد باركر باين مغادرة السفينة مصدر ألم كبير لمحمد الذي اندفع يقول: إنه معبد رائع جداً... كل السادة يحبون رؤية ذلك المعبد. سآتي لك بعربة... سأحضر لك كرسياً يحملك عليه البحارة.

رفض السيد باركر باين كل تلك العروض المغرية، وانطلق الآخرون.

انتظر السيد باركر باين على ظهر المركب، وسرعان ما فُتح باب غرفة الليدي غربل وخرجت الليدي نفسها إلى ظهر المركب.

قالت بشيء من الأبهة: يا لها من ظهيرة حارة! أرى أنك تخلفتَ يا سيد باين. إنه قرار حكيم منك. هل تتناول بعض الشاي في البهو؟

نهض السيد باركر باين بسرعة وتبعها. لا مجال للإنكار بأنه كان فضولياً. وبدا أن الليدي تشعر بشيء من الصعوبة في الدخول في الموضوع؛ فقد انتقلت من موضوع لآخر، وفي النهاية تكلمت بصوت مختلف: سيد باين، إن ما سأقوله لك هو في غاية السرية! أنت تفهم هذا، أليس كذلك؟

- طبعاً.

سكتت قليلاً ثم أخذت نفساً عميقاً، وانتظر السيد باين.

- أريد أن أعرف إن كان زوجي يسممني أم لا.

وكائناً ما كانت توقعات السيد باركر باين فإنه لم يتوقع ذلك، وقد أظهر دهشته بوضوح وقال: هذا اتهام خطير جداً يا سيدتي.

- أنا لستُ بالمغفلة ولم أولد بالأمس. لقد كانت لديّ شكوك منذ بعض الوقت؛ فكلما سافر جورج تحسنت حالتي. لا يعود طعامي يؤذيني وأشعر أنني امرأة مختلفة. لا بد أن يكون لذلك سبب.

- إن ما تقولينه خطير جداً يا ليدي غربل. وينبغي أن تتذكري أنني لست رجل تحرٍّ؛ أنا متخصص بالقلوب إذا صح التعبير.

قاطعته قائلة: إيه... ألا تعتقد أن كل ذلك يقلقني؟ أنا لا أريد شرطياً؛ إنني أستطيع العناية بنفسي، شكراً لك... إن ما أريده هو اليقين. يجب أن أعرف. أنا لستُ امرأة شريرة يا سيد باين؛ إنني أتصرف بإنصاف مع من يُنصفونني. إن الصفقة تبقى صفقة ينبغي أن تُحترَم، وقد احترمتُ الجانب الخاص بي من الصفقة... لقد دفعتُ كل ديون زوجي ولم أقتر عليه بالمال.

شعر السيد باركر باين بشيء من الشفقة على السير جورج، ومضت هي تقول: أما بالنسبة للفتاة فقد وفّرتُ لها الملابس وغير ذلك الكثير. إن كل ما أطلبه هو شيء من الامتنان.

- إن الامتنان ليس شيئاً يُنتج عند الطلب يا ليدي غربل.

قالت: "هراء!"، ثم مضت قائلة: حسناً، هذا هو الأمر؛ اعثر لي على الحقيقة! فعندما أعرف...

نظر إليها بفضول وقال: عندما تعرفين، ماذا يحدث يا ليدي غربل؟

قالت: "هذا شأني أنا"، ثم أغلقت شفتيها بحدة.

تردد السيد باركر باين لحظة ثم قال: اعذريني يا ليدي غربل، ولكن لديّ انطباعاً بأنك لم تكوني صريحة تماماً معي.

- هذا سخف؛ لقد أخبرتك بما أريدك أن تجده بالضبط.

- نعم، ولكنك لم تخبريني بالسبب؟

التقت عيونهما، وكانت عيناها هما اللتان انخفضتا أولاً. قالت: أظن أن السبب واضح تماماً.

- لا، لأنني متشكك حول نقطة واحدة.

- وما هي؟

- هل تريدين أن تثبت صحة شكوكك أم خطؤها؟

- يا لهذا السؤال يا سيد باين!

نهضت على قدميها وهي ترتجف سخطاً، وأومأ السيد باركر باين برأسه بلطف وقال: نعم، نعم. ولكن هذا لا يجيب عن سؤالي.

- آه!

بدا أن الكلمات قد خانتها، وخرجت من الغرفة بسرعة.

وما أن بقي السيد باركر باين وحيداً حتى أخذ يتأمل بتركيز. وقد كان غارقاً في أفكاره إلى الحد الذي جعله يجفل عندما جاء من يجلس على الجانب الآخر من طاولته. وكانت تلك هي الآنسة ماكناوتن.

- لا شك أنكم عدتم سريعاً.

- لم يعُد الآخرون. لقد قلتُ إن لديّ صداعاً وعدتُ بمفردي.

ترددت قليلاً وقالت: أين الليدي غريل؟

- يخيل إليّ أنها متمددة في غرفتها.

- آه، هذا حسنٌ؛ لا أريدها أن تعرف أنني عدت.

- ألم تأتي من أجلها إذن؟

هزت الآنسة ماكناوتن رأسها وقالت: بل عدتُ لرؤيتك أنت.

دُهش السيد باركر باين. كان من شأنه أن يقول -بداهةً- إن الآنسة ماكناوتن قادرة تماماً على معالجة متاعبها بنفسها من دون الحاجة إلى نصيحة خارجية، ولكن بدا أنه مخطئ في ذلك.

- لقد راقبتُكَ منذ أن صعدنا ظهر السفينة، وأحسب أنك ذو خبرة واسعة وحُكم صائب، وأنا بحاجة ماسة إلى النصيحة.

- ومع ذلك (وأرجو أن تعذريني يا آنسة ماكناوتن) فأنت لستِ من النوع الذي يطلب النصائح عادة. أحسب أنك امرأة راضية تماماً بالاعتماد على أحكامها الخاصة.

- في الأحوال الطبيعية، نعم. ولكنني في وضع غريب جداً.

ترددت لحظة ثم قالت: أنا لا أتحدث عن مرضاي في العادة، ولكني أحسب أن ذلك ضروري في هذه الحالة. سيد باين، عندما غادرتُ إنكلترا مع الليدي غريل كانت حالتها واضحة، وبصراحة لم يكن بها شيء. ربما لا يكون هذا صحيحاً تماماً، ولكن الكثير من الفراغ والكثير من المال يؤديان فعلاً إلى حالة مَرَضية معينة.. ولو

كان لدى الليدي غريل بضعة طوابق ينبغي مسحها وتنظيفها وخمسة أطفال أو ستة تعتني بهم لوجدتَها في أحسن صحة وأتم سعادة.

أومأ السيد باركر باين برأسه، فيما مضت الممرضة تقول: إن ممرضة مستشفى مثلي ترى الكثير من هذه الحالات العصبية. لقد كانت الليدي غريل تستمتع بصحتها السيئة، وكان دوري أن أخفف من معاناتها وأن أكون لبقة ما وسعني... وأن أستمتع شخصياً بالرحلة قدر الإمكان.

- فكرة عاقلة جداً.

- ولكن الأمور لم تعد كما كانت يا سيد باين؛ فالمعاناة التي تشكو الليدي غريل منها الآن حقيقية وليست مُتخيّلة.

- ماذا تعنين؟

- لقد بدأتُ أشكّ بأن الليدي غريل تتعرض للتسميم.

- منذ متى شككتِ بذلك؟

- خلال الأسابيع الثلاثة الماضية.

- وهل تشكين... بأي شخص محدد؟

أسبلت عينيها، ولأول مرة افتقد صوتها الصدق. قالت: لا.

- أعتقد -جازماً- يا آنسة ماكناوتن بأنك تشكين بشخص محدد، وبأن ذلك الشخص هو السير جورج غريل.

- آه، لا، لا. لا أستطيع تصديق ذلك! إنه مسكين جداً، أشبه بطفل. لا يمكن أن يكون قاتلاً متحجر القلب.

كان في صوتها نبرة ألم، وردّ السيد باركر باين: ومع ذلك فقد لاحظتِ أن السير جورج كلما غاب تحسنت حالة زوجته وأن فترات مرضها تتزامن مع عودته.

لم تجبه.

- ما السم الذي تشكين فيه؟ الزرنيخ؟

- شيء من هذا القبيل. الزرنيخ أو الأنتيمون.

- وما هي الخطوات التي اتخذتِها؟

- لقد فعلتُ كل ما أستطيع للإشراف على ما تأكله الليدي غريل أو تشربه.

أومأ السيد باركر باين برأسه وقال بشكل عرضي: أتظنين أن لدى الليدي غريل نفسها أية شكوك؟

- آه، لا؛ أنا واثقة من أنها لا تشكّ بشيء.

- في هذا أنت مخطئة؛ فالليدي غريل تشك بالفعل.

أبدت الآنسة ماكناوتن دهشتها. وقال السيد باين: إن الليدي غريل أكثر قدرة على حفظ السر مما تتصورين... إنها امرأة تعرف تمام المعرفة كيف تكتم على أسرارها.

قالت الآنسة ماكناوتن ببطء: هذا يدهشني كثيراً.

- أود أن أسألك سؤالاً آخر يا آنسة ماكناوتن. هل تظنين أن الليدي غريل تحبك؟

- لم أفكر في هذا الأمر أبداً.

ولكنّ محمداً قاطعهما، إذ جاء متهلل الوجه وزركشات ثيابه تتطاير خلفه وقال: لقد سمعت الليدي أنك عدتِ، وهي تسأل عنك وتسأل لماذا لم تذهبي إليها؟

نهضت إلسي ماكناوتن بسرعة، ونهض السيد باركر باين أيضاً قائلاً: هل يناسبك أن نتحاور غداً في الصباح الباكر؟

- نعم، سيكون ذلك أفضل وقت؛ فالليدي غريل تنام حتى ساعة متأخرة، وفي غضون ذلك سأكون حريصة جداً.

- أظن أن الليدي غريل ستكون حريصة أيضاً.

* * *

لم يرَ السيد باركر باين الليدي غريل حتى ما قبل العشاء بقليل. كانت جالسة تدخن لفافة وتحرق ما بدا أنه رسالة، ولم تلتفت لوجوده أبداً، الأمر الذي فهم منه أنها ما تزال تشعر بالإهانة.

وبعد العشاء لعب البريدج مع السير جورج وباميلا وبيسل. وبدا الجميع شاردين بعض الشيء، وانقضت لعبة البريدج في وقت مبكر.

بعد بضع ساعات تم إيقاظ السيد باركر باين. كان محمد هو

الذي أتاه قائلاً: إنها الليدي... إنها مريضة جداً، والممرضة خائفة جداً، وقد حاولتُ الاتصال بطبيب.

سارع السيد باركر باين بارتداء بعض الملابس، ووصل إلى مدخل غرفة الليدي غريل في نفس الوقت الذي وصل فيه بيسل وست. كان السير جورج وباميلا في الداخل، وكانت إلسي ماكناوتن تعمل بيأس على مريضتها. وعند وصول السيد باركر باين أصاب جسد المرأة المسكينة تشنج أخير؛ تلوى جسدها المتقوّس وتصلب، ثم سقطت إلى الخلف على وسائدها.

سحب السيد باركر باين باميلا بلطف إلى الخارج، وكانت الفتاة تنشج قليلاً وتقول: ما أفظع هذا! ما أفظعه! هل... هل...؟

- تقصدين ماتت؟ نعم أخشى أن كل شيء قد انتهى.

تركها في عهدة بيسل، وخرج السير جورج من الغرفة مشدوهاً وهو يتمتم: لم أحسب أبداً أنها مريضة حقاً... لم أظن ذلك أبداً.

تجاوزه السيد باركر باين ودخل إلى الغرفة، وكان وجه الممرضة ماكناوتن شاحباً متجهماً، وسألت: هل أرسلوا في طلب طبيب؟

- نعم. أهو الستريكنين؟

قالت: "نعم؛ فهذه التشنجات لا شك في سببها. آه، لا يسعني تصديق ذلك!"، ثم ألقت بنفسها على كرسي وهي تبكي، وربت السيد باين على كتفها.

ثم بدا أن فكرة قد خطرت له، فغادر الغرفة مسرعاً وذهب إلى

البهو، كانت قطعة صغيرة من الورق قد بقيت غير محترقة في منفضة التبغ وكان بالإمكان تمييز بضع كلمات فيها: ...سولة الأحلام... احرقي هذه...

قال السيد باركر باين لنفسه: هذا مثير تماماً.

* * *

جلس السيد باركر باين في غرفة مسؤول بارز في القاهرة وقال بتأمل: هذا هو الدليل إذن؟

- نعم، وهو دليل كامل تماماً. لا بد أن الرجل كان مغفلاً تماماً.

- ما كنتُ لأصف السير جورج بأنه رجل راجح العقل.

قال الرجل الآخر ملخصاً القضية: ولكن مع ذلك! لقد أرادت الليدي غريل فنجاناً من الشاي. وقد أعدته الممرضة لها، ثم طلبت وضع بعض الحليب فيه، فأتى السير جورج بالحليب. وبعد ساعتين ماتت الليدي غريل بعلامات لا تُخطئ على التسمم بالستريكناين. وقد وُجدت علبة من هذا السم في غرفة السير جورج وعلبة أخرى في جيب السترة التي تناول العشاء وهو يلبسها.

- أمر متكامل تماماً. من أين أتى الستريكناين بالمناسبة؟

- في هذا الأمر بعض الشكوك؛ فلدى الممرضة شيء منه (تحسباً لمتاعب قد يتعرض لها قلب الليدي غريل) ولكنها ناقضت

نفسها مرة أو مرتين. قالت في البداية إن مخزونها من تلك المادة سليم لم يمسه أحد، والآن تقول إنه ليس كذلك.

علق السيد باركر باين قائلاً: ليس من طبيعتها أبداً أن لا تكون واثقة من مثل هذه الأمور.

- إنهما مشتركان في الأمر معاً برأيي. السير جورج متورط في المسألة وليست له أية فرصة أبداً.

قال السيد باركر باين: "حسناً، حسناً. يجب أن أرى ما الذي أستطيع فعله". ثم خرج يبحث عن ابنة الأخ الجميلة.

كانت باميلا شاحبة ساخطة وقالت: عمي لم يفعل مثل هذا الأمر... أبداً... أبداً... أبداً!

قال السيد باركر باين بهدوء: مَن الذي فعله إذن؟

تقدمت منه باميلا وقالت: أتعلم ما الذي أراه؟ أرى أنها هي التي فعلت ذلك بنفسها. لقد كانت غريبة الأطوار بشكل لا يُصدق مؤخراً، وكانت تتخيل أموراً.

- أية أمور؟

- أموراً غريبة. بيسل مثلاً... كانت تُلمح إلى أنه يحبها، مع أنني أنا وبيسل... أعني...

قال السيد باركر باين مبتسماً: إنني أدرك ذلك.

- كل ذلك الحديث عن بيسل كان محض خيال. أظن أنها

كانت لا تطيق عمي المسكين، وأحسب أنها لفقت تلك القصة وأخبرتك بها ثم وضعت الستريكناين في غرفته وفي جيبه وسممت نفسها. لقد فعل الناس أموراً كهذه، أليس كذلك؟

اعترف السيد باركر باين قائلاً: لقد فعلوا... ولكني لا أظن أن الليدي غريبل فعلت ذلك؛ فهي لم تكن من هذا النوع، إذا سمحتِ لي بقول ذلك.

- ولكن ماذا عن مزاعمها؟

- نعم، إنني أود سؤال السيد وست عن ذلك.

وجد الشاب في غرفته، وقد أجاب بيسل عن أسئلته بكل جاهزية: لا أريد أن أبدو سخيفاً، ولكنها أُعجبت بي؛ ولذلك لم أجرؤ على إطلاعها على أمري مع باميلا. فقد كانت ستجعل السير جورج يطردني.

- أتظن أن نظرية الآنسة غريبل محتملة؟

- أحسب أنها ممكنة.

بدا الشاب متشككاً، فقال السيد باركر باين بهدوء: ولكنها ليست جيدة بما فيه الكفاية. لا، ينبغي أن نعثر على شيء أفضل.

تاه في تأملاته للحظات ثم قال بسرعة: سيكون الاعتراف أفضل شيء.

ثم فتح قلمه وأخرج ورقة وقال للشاب: هل لك أن تكتبه؟

حدّق بيسل وست إليه مدهوشاً وقال: أنا؟! ما الذي تعنيه بالله عليك؟

قال السيد باين بلهجة كادت تكون أبوية: يا عزيزي الشاب، إنني أعرف كل شيء عن الأمر... كيف كنتَ تغازل السيدة الطيبة، وكيف كان وازع الخير لديها يؤرقها، وكيف وقعتَ في حب ابنة الأخ الجميلة المفلسة، وكيف رتبتَ خطتك: التسميم البطيء يمكن أن يمر مرور الكرام باعتباره موتاً طبيعياً بسبب أمراض معوية... وإن لم يعتبر كذلك فسوف يُعزى الأمر إلى السير جورج طالما أنك حرصتَ على جعل المرض يشتد أثناء وجوده. ثم اكتشفتَ أن الليدي قد بدأت تشك وتحدثت معي في الموضوع، فسارعتَ إلى التصرف السريع! أخذتَ شيئاً من الستريكناين من مخزون الآنسة ماكتاوش فوضعتَ بعضه في غرفة السير جورج وبعضه الآخر في جيبه، ووضعتَ كمية كافية منه في كبسولة وضعتَها داخل رسالة صغيرة إلى الليدي، تخبرها فيها بأنها «كبسولة الأحلام». فكرة رومانسية؛ إذ أنها ستتناولها بمجرد خروج الممرضة، ولن يعرف أحدٌ شيئاً عن الموضوع. ولكنك ارتكبت خطأً واحداً يا فتاي العزيز؛ فلا فائدة من أن تطلب من سيدة أن تحرق رسائلها. إنهن لا يفعلن ذلك أبداً! لقد حصلتُ على كل المراسلات الرائعة، بما فيها الرسالة الخاصة بالكبسولة.

استحال وجه بيسل وست أصفر شاحباً، واختفت كل وسامته وبدا كالجرذ المحاصر. صاح قائلاً: تباً لك! فأنت تعرف كل شيء إذن... أيها المتطفل الخبيث.

وقد نجا السيد باركر باين من العنف الجسدي بظهور الشهود

الذين رتَّب -بذكاء- وجودهم خارج الباب الذي بقي مفتوحاً قليلاً بحيث سمعوا اعترافات الرجل.

* * *

كان السيد باركر باين يناقش القضية ثانية مع المسؤول البارز ويقول: ولم يكن لديّ أي دليل باستثناء قصاصة صغيرة عليها نصف عبارة يصعب فهمها، مع عبارة «احرقي هذه». وقد استنتجتُ القصة كلها وحاولت أن أجربها عليه، وقد نجحت... وفكرة الرسائل هي التي أنجحتها. ومع أن الليدي غريبل قد أحرقت كل قصاصة كتبها لها، فإنه لم يكن يعرف ذلك. لقد كانت امرأة غير عادية بالفعل، وقد دُهشتُ وتحيرتُ عندما جاءت إلي، وكان ما أرادته -حقاً- هو أن أخبرها بأن زوجها يسممها، ففي تلك الحالة كانت ستهرب مع الشاب وست. لقد أرادت أن تتصرف بشكل منصف... شخصية غريبة.

قال صاحبه: ستعاني تلك الفتاة المسكينة.

قال السيد باركر باين ببرود: ستتغلب على الأمر؛ فهي ما تزال شابة. إنني حريص على أن ينال السير جورج بعض السعادة قبل أن يفوت الوقت. لقد كان يُعامَل وكأنه حشرة طوال عشر سنوات، ولكن إلسي ماكناوتن ستكون لطيفة جداً معه الآن.

ثم تهلل وجهه وتنهد وقال: إنني أفكر بالذهاب إلى اليونان مُختفياً شخصيتي؛ إذ ينبغي -حقاً- أن أتمتع بإجازة!

* * *

قضية ديلفي

لم تكن السيدة بيترز تهتم باليونان أبداً، ولم يكن لها -في دخيلة قلبها- أي اهتمام بديلفي على الإطلاق.

كان قلب السيدة بيترز في باريس ولندن والريفيرا، وكانت امرأة تستمتع بحياة الفنادق، ولكن فكرتها عن غرف الفنادق كانت تشمل وجود السجاد الثمين، والسرير الفخم، والإضاءة الكهربائية (بما في ذلك المصباح المُظلّل قرب السرير)، والماء الحار والبارد، وهاتف قرب السرير تستطيع بواسطته أن تطلب الشاي والمياه المعدنية والوجبات وتتحدث به مع صديقاتها.

ولكن أياً من هذه الأشياء لم يكن موجوداً في هذا الفندق في ديلفي. كان المنظر من النافذة رائعاً، وكان السرير نظيفاً، وكذلك هذه الغرفة البيضاء التي كان فيها كرسي ومغسلة وخزانة أدراج. أما الاستحمام فيتم بترتيب مُسبق، وكان -عامة- مُخيباً للآمال فيما يخص الماء الحار.

رأت أنه سيكون من الجيد أن يقول المرء إنه كان في ديلفي، وقد حاولت -جاهدة- أن تهتم باليونان القديمة ولكنها وجدت ذلك صعباً؛ فقد بدت تماثيلهم غير مكتملة أبداً، تنقصها الرؤوس والأذرع والسيقان، وكانت تفضل -سراً- التمثال الرخامي الصغير الذي نُصب فوق قبر زوجها الراحل ويلارد بيترز. ولكنها حرصت على إخفاء

كل هذه الآراء السرية خشية أن يزدريها ابنها ويلارد. وهي لم تأتِ إلى هذا المكان إلاّ إكراماً لويلارد، لتقيم في هذا الفندق البارد غير المريح مع خادمة نكدة وسائق متذمر.

ذلك أن ويلارد (المسمى -حتى عهد قريب- ويلارد الأصغر، وهو اسم كان يكرهه) كان ابن السيدة ويلارد البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وهي تحبه حباً لا يمكن أن يوصف. وكان ويلارد النحيل الشاحب المكتئب ذو النظارات هو الذي تعلق كل هذا التعلق بالفن القديم، وهو الذي ابتلى أمه المحبة بهذه الرحلة عبر اليونان.

كانوا قد زاروا أولمبيا (التي اعتبرتها السيدة بيترز فوضى محزنة)، وأثينا التي اعتبرتها مدينة تَعِسة، وقد كانت زيارة كورنيث وميسينا عذاباً لها وللسائق. وفكرت السيدة بيترز، بحزن، بأن ديلفي جاءت لتزيد من معاناتها؛ فليس فيها ما يمكن أن يفعله المرء -أبداً- باستثناء المشي في الشارع والنظر إلى الآثار... وقد قضى ويلارد ساعات طوالاً على ركبتيه يفك رموز النقوش الإغريقية قائلاً: "ماما، اسمعي ما يقول هذا النقش. أليس هذا رائعاً؟"... ثم يقرأ عليها شيئاً تجده في غاية التفاهة.

وكان ويلارد قد انطلق مبكراً في ذلك الصباح لرؤية بعض الفسيفساء البيزنطية. أما السيدة بيترز فقد اعتذرت عن الذهاب، وقد تنهدت الآن واستعدت للنهوض لتناول إفطارها.

نزلت إلى غرفة الطعام لتجدها فارغة إلاّ من أربعة أشخاص؛ أم وابنتها ترتديان ما بدا للسيدة بيترز أنه طراز غريب جداً، وذلك الرجل البدين المتوسط العمر الذي ساعدها باستلام حقيبتها عندما

نزلت من القطار، واسمه تومبسن، وقادم جديد أصلع الرأس وصل في الليلة الماضية.

وكان هذا الشخص هو آخر الباقين في غرفة الإفطار، وسرعان ما انخرطت السيدة بيترز في حديث معه؛ فقد كانت امرأة ودودة تحب أن تجد من تتكلم معه، وقد كان أسلوب تومبسن مُحبطاً جداً لها (وقد عزت ذلك إلى ما تسميه بالتحفظ الإنكليزي)، وكانت المرأة وابنتها متعجرفتين كثيراً وعاليتي الثقافة.

وجدت السيدة بيترز في القادم الجديد شخصاً لطيفاً جداً. فقد كان كثير المعلومات دون أن يتعامل بتعالي المثقفين، وقد أخبرها بالكثير من التفصيلات الصغيرة المثيرة عن الإغريق، مما جعلها تشعر أكثر بأنهم كانوا أناساً حقيقيين وليس مجرد تاريخ ممل ضمن الكتب. كما أخبرت السيدة بيترز صديقها الجديد كل شيء عن ويلارد ومدى ذكائه وكيف أن الثقافة أصبحت طعامه وشرابه. لقد كان في هذا الشخص الهادئ اللطيف شيء يجعل من السهل على المرء أن يتحدث معه.

أما ما هو عمله وما هو اسمه فهذا ما لم تعرفه السيدة بيترز؛ إذ لم يكن منفتحاً في حديثه عن نفسه، باستثناء أنه كان في سفر وأنه يتمتع براحة كاملة من العمل (ولكن أي عمل؟).

وقد مرّ اليوم بأسرع مما كان مُتوقعاً، وبقيت المرأة وابنتها على نفس سلوكهما غير الاجتماعي، وقد قابلا السيد تومبسن وهو يخرج من المتحف فسارع إلى تغيير اتجاهه فوراً.

نظر صديق السيدة بيترز الجديد خلف الرجل متجهماً وقال:
إنني أتساءل من هو هذا الرجل!

أعطته السيدة بيترز اسم الرجل، ولكنها لم تستطع إعطاءه شيئاً فوق ذلك.

- توميسن... توميسن؟ لا أظن أنني قابلته من قبل، ومع ذلك يبدو لي وجهه مألوفاً بشكل أو بآخر، وإن كنت لا أستطيع تحديده تماماً.

وبعد الظهر تمتعت السيدة بيترز بقيلولة هادئة في بقعة مُظللة. لم يكن الكتاب الذي أخذته معها لتقرأه ذلك الكتاب الممتاز الذي أوصاها ابنها بقراءته عن الفن الإغريقي، بل كان قصة بعنوان «لغزْ غداءٍ على النهر»، وفيها أربع جرائم قتل، وثلاث حوادث اختطاف، وعصابة ضخمة متنوعة من عتاة المجرمين. وقد وجدت السيدة بيترز أن قراءة هذه القصة قد نشّطتها وهدّأتها في الوقت ذاته.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة عندما عادت إلى الفندق، وقد أحست بالثقة بأن ويلارد سيكون قد عاد إلى الفندق في مثل هذا الوقت. وقد كانت بعيدة جداً عن أي توقع للشر بحيث أنها كادت أن تنسى فتح رسالة قال مالك الفندق إن رجلاً غريباً قد تركها لها بعد الظهر.

كانت الظرف متسخاً جداً. وفتحته بتكاسل، وبعد أن قرأت الأسطر القليلة الأولى شحب وجهها ومدت يداً لتسند نفسها.

كان الخط أجنبياً، ولكن اللغة المستخدمة كانت الإنكليزية. قالت الرسالة:

أيتها الليدي،

لقد سلّمنا هذه الرسالة لنبلغك بأن ابنك قد أُخذ رهينة من قبلنا في مكان آمن جداً. لن يحدث أذى للشاب المحترم إن أنت أطعتِ الأوامر. إننا نطلب مقابله فدية قدرها عشرة آلاف جنيه إسترليني، وإذا ما تحدثتِ بهذا لمالك الفندق أو الشرطة أو أي شخص آخر فسيُقتل ابنك. وقد أعطيناك هذه الرسالة لتفكري، وسوف نعطيك -غداً- تعليمات حول طريقة دفع المبلغ، فإن لم تطيعيها فسوف يتم قطع أذني ابنك الشاب المحترم وإرسالهما إليك، وإذا لم تطيعيها في اليوم التالي فسوف يُقتل. ونكرر ثانية بأن هذا ليس تهديداً فارغاً. فلتفكري ملياً، ولكن الأهم أن تبقي ساكتة.

ديميتريوس ذو الحاجب الأسود

لم يكن ثمة داعٍ لوصف حالة المرأة المسكينة؛ فرغم الصياغة الوقحة الطفولية لذلك الطلب إلا أنه أشعرها بجو رهيب من الخطر. ويلارد، ابنها المُدلّل، صبيها الرقيق الجاد.

ستذهب فوراً إلى الشرطة، وسوف تثير المنطقة كلها. ولكن إن هي فعلت ذلك فربما... ارتعدت. ثم نهضت وخرجت من غرفتها بحثاً عن صاحب الفندق... الشخص الوحيد في الفندق الذي يستطيع تكلم الإنكليزية.

قالت له: إن الوقت يتأخر، وابني لم يعد بعد.

ابتسم لها الرجل الضئيل المرح وقال: صحيح. لقد صرف السيد البغال وقال إنه يرغب بالعودة ماشياً. كان ينبغي أن يكون هنا في هذا الوقت، ولكن لا شك أنه تلكأ قليلاً في الطريق.

ثم ابتسم لها بسعادة فقالت: قل لي، هل لديكم أي أشخاص سيئين في المنطقة؟

لم تكن عبارة «أشخاص سيئين» داخلة في قاموس إنكليزية الرجل الضئيل، وقد شرحت له السيدة بيترز بشكل أوضح، فتلقت إجابة أكد فيها أن كل من هم في دبلفي أناس طيبون جداً وهادئون جداً... ويحترمون الأجانب أيما احترام.

ارتعدت الكلمات على شفتيها، ولكنها أجبرتها على التراجع. لقد ربط ذلك التهديد الخبيث لسانها. قد يكون هذا كله مجرد خداع، ولكن ماذا لو لم يكن كذلك؟ لقد خُطف طفل لصديقة لها في أميركا، وعندما أبلغت الشرطة قاموا بقتل الصبي. إن مثل هذه الأمور تحدث.

وكاد يجن جنونها. ماذا تفعل؟ عشرة آلاف جنيه... كم كان ذلك؟ ما بين أربعين وخمسين ألف دولار! وماذا كان هذا يعني بالنسبة لها مقارنة بسلامة ويلارد؟ ولكن كيف تحصل على مثل هذا المبلغ؟ لقد كانت أمامها صعوبات لا نهاية لها الآن في مسألة المال والسحب النقدي، وكان كل ما تحمله معها لا يعدو رسالة اعتماد ببضع مئات من الجنيهات.

هل سيفهم قطاع الطرق ذلك؟ هل سيكونون عقلانيين؟ هل سينتظرون؟

وعندما جاءتها خادمتها صرفتها بشدة. ثم قُرع جرس العشاء، وقد نزلت المسكينة إلى غرفة الطعام حيث أكلت بشكل آلي. ولم ترَ أحداً، ولعل الغرفة كانت فارغة تماماً بالنسبة لها.

ومع وصول الفاكهة وُضعت أمامها رسالة. وقد تقبضت لرؤيتها، ولكن الخط كان مختلفاً تماماً عن ذلك الخط الذي خشيت رؤيته... فقد كان خطاً أنيقاً كخط الموظفين الإنكليز. فتحتها دون اهتمام كبير، ولكنها وجدت محتوياتها آسرة للاهتمام:

في ديلفي لم يعد بإمكانك استشارة آلهة الإغريق، ولكن بإمكانك استشارة السيد باركر باين.

وتحت ذلك كانت قصاصة لإعلانٍ أُرفقت مع الورقة بدبوس، وفي أسفل الورقة أُلصقت صورة، وكانت صورة صديقها الأصلع الذي قضت معه فترة الصباح.

قرأت السيدة بيترز قصاصة الصحيفة مرتين: «هل أنت سعيد؟ إن لم تكن كذلك فاستشر السيد باركر باين».

سعيد؟ سعيد؟ هل سبق لامرئ أن كان بمثل هذه التعاسة؟ كانت تلك كنعمة هبطت عليها من السماء.

وبسرعة كتبت على ورقة صدف أن كانت في حقيبة يدها:

أرجوك أن تساعدني، هل لك أن تقابلني خارج الفندق بعد عشر دقائق؟

وضعت الورقة في مغلف وطلبت من النادل أن يأخذها إلى السيد الجالس على الطاولة قرب النافذة، وبعد عشر دقائق خرجت السيدة بيترز من الفندق متلفعة بمعطف فرو بسبب برودة الليل، ثم مشت ببطء في الطريق نحو الآثار، وكان السيد باركر باين ينتظرها. قالت بأنفاس متقطعة: إنه لمن رحمة الله أنك موجود هنا. ولكن كيف خمنتَ المشكلة القطيعة التي وقعتُ فيها؟ هذا ما أريد معرفته.

- إنها سحنة الإنسان يا سيدتي العزيزة. لقد عرفتُ فوراً أن شيئاً ما قد حدث، أما ما هو هذا الشيء فهذا ما أنتظر منك أن تخبريني به.

وخرج منها الموضوع متدفقاً كالسيل، ثم أعطته الرسالة فقرأها على ضوء مصباحه اليدوي، ثم قال: هممم... وثيقة مهمة. وثيقة مهمة جداً. إن فيها نقاطاً معينة...

ولكن السيدة بيترز لم تكن في مزاج يسمح لها بالإصغاء إلى نقاش حول أهم ما تضمنته الرسالة من نقاط، فالأهم هو ما الذي سيفعله لويلارد؛ لابنها العزيز الرقيق ويلارد.

مضى السيد باركر باين يهدئها، وقد رسم صورة جميلة لحياة قطاع الطرق اليونانيين قائلاً إنهم سيكونون في غاية الحرص على رهينتهم، إذ أنه يشكل منجم ذهب بالنسبة لهم. وشيئاً فشيئاً استطاع تهدئتها.

ناحت السيدة بيترز قائلة: ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟

- انتظري حتى الغد. هذا إلاّ إن كنتِ تريدين الذهاب إلى الشرطة.

قاطعته السيدة بيترز بصيحة رعب قائلة إن من شأن ذلك أن يؤدي إلى مقتل ابنها العزيز ويلارد وضياعه! ثم سألته: أتظن أنني سأستعيد ويلارد سالماً معافى؟

- لا شك في ذلك. السؤال الوحيد هو ما إذا كان بوسعك استعادته دون دفع عشرة آلاف جنيه.

- كل ما أريده هو ابني.

- نعم، نعم. مَن الذي أحضر الرسالة بالمناسبة؟

- رجل لا يعرفه صاحب الفندق... رجل غريب.

- آه! هذا يقدم لنا فرصة جيدة؛ فالرجل الذي يُحضر الرسالة غداً يمكن أن يُلاحَق. حسناً، ماذا ستخبرين الناس في الفندق عن غياب ابنك؟

- لم أفكر في ذلك.

فكر السيد باين قليلاً وقال: إنني أتساءل... أظن أن بوسعك أن تعبري عن ذعرك وقلقك على غيابه بشكل طبيعي تماماً، ويمكن إخراج فريق بحث للبحث عنه.

- ألا تظن أن أولئك المجرمين قد...؟

ثم غصت الكلمات في حلقها فقال: لن يحصل مكروه... طالما لم يجرِ ذكر للاختطاف أو الفدية فإنهم لن يتصرفوا بشكل دموي، وأنت لا يمكنك -في نهاية المطاف- أن تتعاملي مع اختفاء ابنك دون ضجة على الإطلاق.

- هل بمكنني إيكال الأمر لك؟

- هذا هو عملي.

ثم انطلقا عائدين نحو الفندق ثانية، ولكنهما كادا أن يصطدما بجسم رجل قوي البنية.

سأل السيد باركر باين بحدة: من هذا؟

- أظنه كان السيد تومبسن.

قال السيد باركر باين بتأمل: آه! تومبسن، أليس كذلك؟ تومبسن... همم!

* * *

شعرت السيدة بيترز، وهي تأوي إلى فراشها، بأن فكرة السيد باين حول الرسالة كانت جيدة؛ فذلك الذي أحضرها لا بد أن له علاقة بالمختطفين. وقد شعرت ببعض العزاء ونامت بأسرع مما كانت تتصور.

وعندما كانت تلبس في صباح اليوم التالي لاحظت -فجأة- وجود شيء على أرض الغرفة قرب النافذة. رفعته، ودق قلبها بقوة.

نفس المغلف القذر الرخيص، ونفس الأحرف الكريهة. فتحته وقرأت:

صباح الخير يا سيدتي. هل فكرت؟ ابنك بخير ولم يتعرض لأذى... حتى الآن. ولكن ينبغي أن نحصل على المال. ربما لا يكون من السهل عليك الحصول على هذا المبلغ، ولكن قيل لنا إن لديك عقداً من الألماس، من حجر فاخر جداً، وسوف نكتفي بذلك بدل المال.

اسمعي، هذا ما يجب أن تفعليه. ينبغي عليك (أو على أي شخص ترسلينه) أخذ العقد وإحضاره إلى المُدرَّج، ومن هناك تصعدين إلى حيث توجد شجرة قرب صخرة كبيرة. وستراقبك الأعين لنتأكد من قدوم شخص واحد فقط، وعندها ستتم مبادلة ابنك بالعقد. وينبغي أن يكون الوقت غداً في السادسة صباحاً، بعد طلوع الشمس تماماً. وإذا ما أخبرتِ الشرطة عنا فيما بعد فستطلق النار على ابنك وأنتما ذاهبان بالسيارة إلى المحطة. هذه آخر كلمة لنا يا سيدتي. إن لم يصلنا العقد صباح غد فسنرسل لك أذني ابنك، وفي اليوم التالي سيموت.

مع تحياتي يا سيدتي.
ديميتريوس

سارعت السيدة بيترز لرؤية السيد باركر باين الذي قرأ الرسالة بتمعن، ثم سألها: أهذا صحيح؟ أعني عقد الألماس؟

- بالتأكيد؛ لقد دفع زوجي مئة ألف دولار ثمناً له.

تمتم السيد باين: يا للصوصنا المُطّلعين!

- ماذا قلت؟

- كنت أفكر فقط ببعض جوانب القضية.

- يا إلهي يا سيد باين! لم يعد لدينا وقت للجوانب. يجب أن أستعيد ابني.

- ولكنك امرأة شجاعة يا سيدة بيترز. هل يعجبك التخلي عن الماسك بخنوع لمجموعة من الأشقياء؟

- طبعاً لا، إن كنتَ تضع الأمر بهذه الصيغة...!

ثم تصارعت المرأة الشجاعة داخل السيدة بيترز مع الأم، فقالت: لشد ما أود الانتقام منهم... أولئك الوحوش الجبناء! بمجرد أن أستعيد ابني -يا سيد باين- فإنني سأثير عليهم شرطة المنطقة كلها، وإذا تطلب الأمر فسوف أستأجر سيارة مصفحة لتأخذني أنا وويلارد إلى محطة القطار!

كان وجهها قد احمرّ وبدا فيه التحدي، فقال السيد باركر باين: نعم. ولكن يا سيدتي العزيزة، أخشى أنهم سيكونون مستعدين لهذا التصرف من طرفك. إنهم يعرفون أنك فور استردادك لويلارد لن يمنعك شيء عن إثارة شرطة المنطقة كلها عليهم، مما يدفع المرء للاعتقاد بأنهم سيكونون مستعدين لهذا الاحتمال.

- حسناً، ماذا تريد أن تفعل؟

ابتسم السيد باركر باين وقال: أريد تجربة خطة صغيرة.

ثم نظر حوله إلى غرفة الطعام، فوجدها فارغة وقد أُغلق باباها من كلا الطرفين، فقال: سيدة بيترز، يوجد رجل أعرفه في أثينا... جواهري، وهو متخصص بالجواهر الزائفة ذات النوعية العالية.

ثم انخفض صوته ليصبح همساً وهو يقول: سأتصل به هاتفياً، وبوسعه أن يصل إلى هنا بعد ظهر اليوم ومعه مجموعة جيدة من أحجار الألماس الزائفة.

- ماذا تعني؟

- سيقوم بنزع الألماسات الحقيقية من العقد ووضع ألماسات زائفة مكانها.

حدقت السيدة بيترز إليه وقالت: هذا أذكى شيء سمعته في حياتي!

- هس! لا ترفعي صوتك. هل لك أن تفعلي شيئاً من أجلي؟

- بالتأكيد.

- تأكدي من عدم اقتراب أحد بحيث يسمعني وأنا أتحدث في الهاتف.

أومأت السيدة بيترز برأسها موافقة. وكان الهاتف في مكتب المدير، وقد قام المدير بإفراغه عن طيب خاطر بعد أن ساعد السيد

باين على الحصول على الرقم. وعندما خرج وجد السيدة بيترز في الخارج، فقالت: إنني أنتظر السيد باركر باين، فنحن خارجان للسير قليلاً.

- آه، نعم يا سيدتي.

كان السيد تومبسن أيضاً في الصالة، وقد تقدم نحوهما وشاغل المدير بحديث قائلاً: هل توجد أي فيلا يمكن استئجارها في ديلفي؟

- توجد واحدة لسيدة أميركية. إنها في الطرف الآخر من القرية، وهي مغلقة الآن. وتوجد واحدة لرجل إنكليزي، وهي على الحافة الصخرية التي تشرف على القرية.

تدخلت السيدة بيترز قائلة بصوت عال: لقد أحببتُ المكان كثيراً. وأنت يا سيد تومبسن؟ لا بد أنك أحببته أيضاً طالما أنك تبحث عن فيلا. أهي زيارتك الأولى إلى هنا؟

ثم مضت في حديثها بإصرار إلى أن خرج السيد باين من المكتب، وقد ابتسم لها ابتسامة باهتة لا تكاد تُرى.

مشى السيد تومبسن ببطء نازلاً الدرج وخرج إلى الطريق. وقد مضى كل شيء على ما يرام؛ فقد وصل الجواهري قبل العشاء تماماً في سيارة مليئة بالسواح الآخرين، ثم أخذت السيدة بيترز عقدها إلى غرفته. وقد ابتسم بإعجاب حين رآه وتحدث بالفرنسية فقال:

"اطمئني يا سيدتي، فسأنجح في ذلك". ثم أخرج بعض الأدوات من حقيبته الصغيرة وبدأ عمله.

وفي الساعة الحادية عشرة قرع السيد باركر باين باب السيدة بيترز وقال لها: "تفضلي"، ثم أعطاها الكيس الصغير المصنوع من الشامواه. نظرت داخل الكيس وقالت: ألماساتي!

- هس! ها هو العقد وفيه الألماسات المزيفة بدل الحقيقية. أليس رائعاً جداً؟

- ممتاز تماماً.

- إن أرستوبولس فنان.

- ألا تظن أنهم سيرتابون في الأمر؟

- كيف سيرتابون؟ إنهم يعرفون أن العقد معك، وقد سلّمتِه لهم، فكيف يرتابون في الحيلة؟

كررت السيدة بيترز قائلة وهي تعيد العقد له: حسناً، أظن أن ذلك رائع. هل لك أن تأخذه لهم؟ أم أنني أطلب الكثير؟

- سآخذه بالتأكيد. أعطني الرسالة فقط لكي تكون تعليماتهم واضحة بالنسبة لي. شكراً. والآن، طابت ليلتك، وتشجعي؛ سيكون ابنك معك غداً على الإفطار.

- آه، يا ليت ذلك يكون!

- لا تقلقي، دعي الأمر كله لي.

لم تقضِ السيدة بيترز ليلة مريحة، وعندما نامت رأت أحلاماً فظيعة... أحلاماً عن مجرمين مسلحين في سيارات مصفحة يطلقون زخات من الرصاص على ويلارد وهو يركض نازلاً الجبل. وقد حمدت الله على استيقاظها حين بزغ -أخيراً- أول خيط من خيوط الفجر. نهضت وارتدت ملابسها، ثم جلست... تنتظر.

* * *

في الساعة السابعة قُرع باب غرفتها، وكانت حنجرتها جافة بحيث لم تكد تستطيع الكلام. قالت: تفضل.

فُتح الباب ودخل السيد تومبسن فحدقت إليه وقد خانتها الكلمات، وأحست بنذر الشر. ومع ذلك فقد كان صوته -عندما تكلم- طبيعياً وواقعياً تماماً، كان صوتاً غنياً هادئاً: صباح الخير يا سيدة بيترز.

- كيف تجرؤ أيها السيد؟ كيف تجرؤ...

- يجب أن تعذريني على زيارتي غير التقليدية في وقت مبكر كهذا، ولكن لدي مسألة عمل يجب تسويتها.

انحنت السيدة بيترز للأمام بعينين فيهما الاتهام وقالت: أنت إذن من خطف ابني! لم يكونوا قطّاع طرق أبداً.

- لم يكونوا قُطّاع طرق بالتأكيد، وأحسب أن هذا الجزء من

القصة قد تم بشكل غير مقنع أبداً. كان يفتقر للمسة الفنية، هذا أقل ما يمكن أن يقال عنه.

لم تكن السيدة بيترز لتفكر إلا بفكرة واحدة في هذا الوقت. قالت وعيناها كعيني نَمِرة غاضبة: أين ابني؟

- إنه خلف هذا الباب تماماً في الحقيقة.

- ويلارد!

فُتح الباب بقوة واندفع ويلارد النحيل ذو النظارات وقد طالت لحيته إلى حضن أمه، ووقف السيد تومبسن ينظر بعطف.

قالت السيدة بيترز وقد استعادت نفسها فجأة والتفتت إليه: ورغم ذلك فإنني سألاحقك قانونياً على ذلك. نعم، سأفعل.

قال ويلارد: لقد فهمتِ الأمر خطأً يا أمي؛ فقد أنقذني هذا الرجل.

- أين كنت؟

- في بيت على الحافة الصخرية، على بعد ميل من هنا فقط.

قال السيد تومبسن: "واسمحي لي -يا سيدة بيترز- بأن أعيد لك جواهرك". ثم سلمها صرة صغيرة ملفوفة بمنديل ورقي، وقد سقط المنديل ليُظهر عقد الألماس.

قال السيد تومبسن مبتسماً: ولا حاجة بك لإخفاء مجموعة الأحجار التافهة تلك يا سيدة بيترز؛ فالأحجار الحقيقية ما تزال في

العقد، وكيس الشامواه لا يحتوي إلاّ على مجموعة من الأحجار الزائفة المُقلَّدة. وكما قال صديقك فإن أريستوبولس عبقري تماماً.

قالت السيدة بيترز بصوت ضعيف: إنني لا أفهم حرفاً واحداً من هذا كله.

قال السيد تومبسن: يجب أن تنظري إلى الأمر من وُجهة نظري أنا. لقد أثار انتباهي استخدام اسم معين، وقد سمحتُ لنفسي بأن أتبعك أنت وصديقك السمين خارجَ الفندق وأصغي (وأعترفُ بذلك صراحة) إلى حديثكما المثير جداً. وقد وجدتُ هذا الحديث موحياً بالكثير من الأمور، موحياً إلى الحد الذي جعلني أفضي بالأمر إلى مدير الفندق. وقد سجل الرقم الذي اتصل به صاحبك، كما جعل خادماً يصغي إلى حديثكما في غرفة الطعام هذا الصباح. وقد أصبحت الخطة واضحة تماماً؛ فقد كنتِ ضحية لاثنين من لصوص الجواهر الأذكياء. وقد كانا يعرفان كل شيء عن عقدك الثمين، وقد لحقا بك إلى هنا، فاختطفا ابنك وكتبا تلك الرسالة المضحكة قليلاً حول «قطّاع الطرق»، ثم رتبوا الأمر بحيث تثقين بالعقل المدبر للعملية. وبعد ذلك غدا كل شيء بسيطاً؛ فقد سلمك الرجل الطيب كيساً من الجواهر الزائفة... وهرب مع صاحبه. وصباح اليوم، عندما لا يظهر ابنك، ستغضبين وسيجعلك غياب صديقك تظنين أنه قد اختُطف هو الآخر. وأظن أنهم قد رتبوا الأمر بحيث يذهب أحدٌ ما إلى الفيلا غداً. ومن شأن ذلك الشخص أن يكتشف وجود ابنك، وما أن تبدئي بمناقشة الأمر مع ابنك حتى تبدأ خيوط المؤامرة تتبين لك. ولكن -في ذلك الحين- سيكون الأشقياء قد كسبوا من الوقت ما يمكنهم من الهروب.

- والآن؟

- آه، إنهم الآن في أيدٍ أمينةٍ وفي عهدة أقفال ثقيلة، لقد دبرت أمر ذلك.

قالت السيدة بيترز بغضب وهي تتذكر ثقتها المطلقة بالرجل: يا له من وغد! يا له من وغد متملق خبيث!

وافقها السيد تومبسن قائلاً: نعم؛ لم يكن رجلاً لطيفاً أبداً.

قال ويلارد بإعجاب: إن ما يحيرني هو كيفية معرفتك بالأمر. إنه ذكاء بالغ منك.

هزّ الآخر رأسه مُعارضاً وقال: أبداً، أبداً؛ فعندما تكون مسافراً مخفياً هويتك وتسمع اسمك يُستخدَم من قبل غيرك...

حدقت السيدة بيترز إليه وقالت بسرعة: من أنت؟

أوضح الرجل قائلاً: أنا السيد باركر باين.

* * *